الدكتور

أحمد محمد الحوفي

أستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
وعضو مجمع اللغة العربية

تيارات ثقافية

بين العرب والفرس

الطبعة الثالثة

منقحة ومزيدة

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

الدكتور
أحمد محمد الحوفي
أستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
وعضو مجمع اللغة العربية

تيارات ثقافية

بين العرب والفرس

الطبعة الثالثة

منقحة ومزيدة

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إذا كان العالم المعاصر يتصل بعضه ببعض اتصالا يختلف فى القوة والضعف ، ويتباين فى السلام والحرب ، وفى المودة والعداء ، ويتفاوت فى التأثير والتأثر ، فقد كان العالم القديم شبيها فى هذا بالعالم الحديث ، على مابين العالمين من فروق فى وسائل الاتصال ، وطبيعتها ، وسرعتها ، وقوتها ، وما ينجم عنها من تبادل التأثير والتأثر .

والحق أن التاريخ فى هذا يعيد نفسه ، فالعزلة المطلقة ضرب من المحال بين الشعوب التى تتجاور فى الموقع ، أو تتقارب فى المكان ، فتشتبك مصالحها ، وتتفق أو تختلف سياستها ، وتقوم علائقها على السلم تارة ، وعلى الحرب تارة ، وتتبادل العطاء فيأخذ بعضها من بعض ، ويعطى بعضها بعضا .

وليس من شك فى أن اتصال أمة بأمة يعقب آثاراً شتى فى النُّظُم ، والعادات ، والعقائد ، واللغة ، والثقافة ، تظهر معالمها فى الضعيف المحاكِى أكثر مما تظهر فى القوى الذى يُحاكَى ، إذْ كان الناس ومازالوا مولعين بمحاكاة من يرونه أعلى منهم حضارة ، وأوسع ثقافة ، وأعظم معرفة ، سواء أكان الغَلَب السياسى له أم لهم .

وهذه دراسة لصلات العرب والفرس فى الجاهلية والإسلام ،

ولما أثمرته من تبادل فى النظم السياسية والاجتماع والعقائد والعادات ، وما نجم عن هذا كله فى اللغة والأدب والثقافة .

ولقد قصدت إلى تقسيم الدراسة قسمين : القسم الأول خاص بالعصر الجاهلى ، والقسم الثانى مقصور على فترات من الإسلام ، لأن لكل من الزمنين وسائل اتصال وضروب تأثير وتأثر ، ولأن العرب والفرس كانوا فى الإسلام أقوى صلات وأكثر علاقات ، فكان تأثير الفرس فى العرب حينئذ أوسع وأعمق مما كان فى الجاهلية ، وكانت آثار العرب فى الفرس لاتقل عما نقلوه من الفرس إن لم تزد عليه شمولا وعمقاً وسعة ونَبالة وخيراً .

ولست أدَّعَى لهذه الدراسة أنها استيعاب أو استقصاء ، فإنها لا تتجاوز شق الطريق ، ونصب المعالم ، والتمهيد للرُّوَّاد ، فمازال كثير من الموضوعات جديراً بأن يُفْرد ببحث مفصَّل مستقل ، لعله يكشف عن جديد ، ولعله يغير بعض مارسخ فى الأذهان من أوهام وأغاليط كادت لكثرة ترديدها تصل إلى مرتبة الحقائق التى ينقلها لاحق عن سابق .

وآمل أن تظهر دراسات مشابهة تتناول صلات العرب بغير الفرس من الأُمم التى عاصرتهم فأعطتهم وأخذت منهم ، كالروم والحبش والهنود ، فإن علائق العرب بهؤلاء كعلائقهم بالفرس تمتد جذورها إلى ماقبل الإسلام ، ثم تعلو سُوقها وتتفرع أغصانها بعد الإسلام ،

أحمد محمد الحوفى

الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢م
الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م
الطبعة الثالثة ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م

الباب الأول

في العصر الجاهلي

الفصل الأول

عوامل الاتصال

اولا — قبل إمارة الحيرة

١ — يُحَدِّث التاريخ بصلة قديمة جداً بين العرب والفرس ، نشأت قبل أن تؤسَّس إمارة الحيرة بقرون ، يُحدِّث أن العرب أدوا الجزية للملك قورش بخوراً ولباناً في كل عام (٥٥٠ ق . م) إذ استولى الفرس على أكثر الهلال الخصيب ، واتصلوا بالعرب ، واحتكوا بهم احتكاكا مباشرا .

٢ — ثم استعان قمبيز بالعرب في غزو مصر (٥٢٥ ق . م) فملوه بالإبل ، وزوّدوا قواته بالماء ، وساعدوه مساعدة كبيرة ، لولاها ما استطاع أن يصل إلى مصر .

وبعد ذلك بثلث قرن ساعدوا الفرس في حملتهم على اليونان (٤٩٢ ق . م) (١)

---

(١) العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ١٠١ نقلا عن هيرودوت . وتاريخ العرب ٥٠ فيليب حتي .

٣ –وقد ذكر الكاتب اليونانى كينوفند (٤٠١ ق . م) أن كُورة فى شرق الفرات كانت تسمى (العربية) (١) .

على أن البلاد الواقعة شرق الفرات أسفل مصبّ نهر الخابور كانت تسمى بلاد العرب منذ عهد قرطاجنة (٤٠١ ق . . م) (٢) .

٤ –وفى أوائل القرن الثالث بعد الميلاد تنازعت إياد ومضر بعد انتصارهما على جُرْهُم وإجلائها عن مكة ، فَهُزِمت إياد ، وهاجرت إلى العراق ، وكان أكبر موطن لها عين أباغ ، على أنها استوطنت أجزاء متفرقة من جنوبى الحيرة (٣) ، منها سِنْداد – نهر فيما بين الحيرة إلى الأُبُلّة – وكانوا ذوى منعة ، لايعطون الإتاوة أحداً من الملوك ، وقد أغاروا على بلاد الفرس مرتين وانتصروا (٤) .

٥ – وكان على شاطىء الفرات حصن عظيم كالمدينة ، هو الذى ذكره عَدِىٌّ بن زيد فى قوله :

أيها الشامت المعَيِّر بالدهـ ـر أأنت المبَرَّأ الموفور ؟
منْ رأيتَ المنونَ خلَّدْن أم من ذا عليه من أن يُضامَ خفير ؟
أين كسرى كسرى الملوك أنوشر وان أم أين قبله سابور ؟
وبنو الأصْفر الكرام ملوك الر وم لم يَبْقَ منهمُ مذكور
وأخو الحَضْر إذ بناه وإذْ دجْـ ـلةُ تُجْبَى إليه والخابور
شاده مرمرا وخلَّله كلْـ ـسًا فللطير فى ذُراه وُكور

(١) مجلة المجمع اللغوى ٣/٣٣١ .
(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٨ بارتولد .
(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٣/١٦٧.
(٤) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٧٣ .

لم يَهْبه رَيْب المنــون فبان الـ ـمُلْك عنــه فبــابه مهجــور
سرّه مالُهُ وكثرة مــا يَمْـ ـلك والبحر مُعرِضٌ والسَّدير
فارعَوَى قلبــه وقال : وماغِبْـ ـطةُ حيٍّ إلى الممــات يصير؟

وذكره أبو دُواد الإيادى فى قوله :

وأرى المــوت قد تدلَّى من الحضْـ ـر عــلى أهــله السَّــاطِرونِ
صَــرعته الأَيام من بعــد مُلْك ونعــيم وجــوهر مكنــون (١)

كان مالك هذا الحصن أو هذه المدينة ومالك أرض الجزيرة هــو الساطرون ، والعرب تسميه الضَّيزَن ، وكان من قبائل قُضاعة وبنى عُبيْد بن الأَجرم عــدد كبير استعان بهم فى بسط نفوذه حتى بلغ الشام.

ثم إنه أغار على بعض سواد العراق فى عهد سابور الأول بن أردشير (٢٤١ — ٢٧٢ م) (٢) ، وافتخر عمرو بن إلَّة القضاعى بهذه الإغارة فى قوله :

لقِيناهم بجَمْــع من عِلافٍ وبالخيل الصَّلادمة الذُّكور
فلاقت فارسٌ منــا نَكالاً وقَتَّلنــا هَرابِذَ شَهْر زور
دَلَفنــا للأَعــاجم من بعيــد بجمع م الجزيرة كالسعير(٣)

وقد شخص سابور إلى حصن الضَّيْزن فحاصره عامين ، وإلى هذا يشير الأعشى بقوله :

---

(١) سيرة ابن هيشام ١/٨٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ٢/٦٢ وابن خلدون ٢/٢٤٩ .

(٣) تاريخ الطبرى ٢/٦٢ والأغانى ٢/١٤١ ، الهرابذة ، جمع هربذ وهو خادم نار المجوس . شهر زور : مدينة فارسية . علاف : علاف بن حلوان من قضاعة تنسب إليه الخيل العلافية . الصلادمة : القوية الشديدة المفرد صلدم على وزن زبرج .

ألم تر للحَضْر إذْ أهـله بنَعْمى ، وهل خالدٌ من نَعِمْ ؟
أقام به شاهبـور الجنـو دِ حولين يضْربُ فيه القُدُم
فمـا زاده ربُّـه قـوة ومِثْـلُ محـاوره لم يَقُـم
فلمـا رأى ربُّـهُ فعـله أتاه طُروقـا فـلم يَنْتَقِـمْ
وكان دعا قومه دعـوة هلمـوا إلى أمـركم قد صُرِم
فمـوتوا كـراما بأسيافكم أرى الموت يَجْشمه من جَشِم(١)

ثم فتح سابور الحصن ، وقتل الضَّيْزَن ، ونكل بمن كانوا معه من قضاعة ، فقال عمرو بن إلّة ، وكان فيمن شاهدوا المعركة :

ألم يَحْزُنك والأنباءُ تَنْمِى بما لاقت سَراةُ بنى العبيـد
ومصرعُ ضَيْزَنٍ وبنى أبيـه وأحلاسِ الـكتائب من تَزيدِ
أتاهم بالفُيـول مجلَّلاتٍ وبالأبطـال سـابورُ الجنـود
فهدَّم من أواسى الحَضْرِ صخرا كأنَّ ثِفاله زُبَر الحديد (٢)

ولقد فسح الإخباريون لخيالهم المجال ؛ فزعموا أن ابنة الضيزن عشقت سابور وعشقها ، وأنها هى التى دلته على حيلة لتقويض الحصن ، ثم غدر بها (٣) .

٦ — ثم انتهز العرب صغر سنّ سابور الثانى (٣٠٩ — ٣٧٩م) فأغاروا على أطراف مملكته ، كما طمع فيها الترك والروم ، وكان العرب أقرب

(١) تاريخ الطبرى ٦١/٢ وسيرة ابن هشام ٧٨/١ ومعجم البلدان ٢٩١/٣ وديوان الأعشى ٤٢ . شاهبور الجنود : سابور الأول وكان يسمى لكثرة جنوده شاهبور الجنود

(٢) الطبرى ٦٢/٢ والأغانى ١٤٢/٢ ومعجم البلدان ٢٩١/٣ ونسب الشعر فيه لجدى ابن الدلهان . زبر الحديد : قطعه .

(٣) الطبرى ٦٣/٢ ومروج الذهب ٢٩٦/١ والأخبار الطوال للدينورى ٥٠ وسيرة ابن هشام ٧٧/١ .

إلى فارس ، وأحوج إلى تناول شيء من خيرات الفرس ، لسوء حالهم ، وشَظَف عيشهم ، فسار جمع عظيم منهم فى البحر من ناحية بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى تخوم فارس ، وغلبوا أهلها على مواشيهم وحروثهم ، وأكثروا الفساد فى تلك البلاد ، واطمأنوا هنالك مدة لايُجْليهم أحد من الفرس .

فلما كبر سابور انتخب ألف فارس من صناديد جنده وأبطالهم وسار بهم ، فأوقع بهؤلاء العرب ، وقتّلهم تقتيلا ، وأسرهم أسرا عنيفا ، ولم ينج منه إلاّ من هربوا .

ويقال إنه لم يكتف بذلك ، بل اجتاز البحر إلى بلاد العرب ، فورد الخَط والبحرين وقتل أهلها ، ثم ورد هَجَر فأروى الأرض بدماء من هنالك من تميم وبكر وعبد القيس ، حتى كان الهارب منهم يرى أنه لن ينجيه غار فى جبل ولا جزيرة فى بحر ، ثم عطف على بلاد عبد القيس ، فأباد أهلها ، إلا من هرب ، ثم أتى اليمامة فأسرف فى التقتيل .

وهو فى أثناء ذلك لم يمرّ بماء من مياه العرب إلا غوّره ، ولا بئر إلا طمسها .

ثم اقترب من يثرب فقتل وأسر .

وعرج على بلاد بكر وتَغْلِب فيما بين مملكة فارس والروم بالشام فقتل وسبى وانتقم .

ثم أسكن الأسرى من العرب من بكر بن وائل كَرْمانَ ، ومن بنى حنظلة الأَهْوازَ ، وأسكن عددا عظيما من أسرى العرب إقليم تَوّج ، وكانت حملاته هذه نحو سنة ٣٥٠ م .

وعاش سابور حياته نهماً إلى قتل العرب ، ونَزْعِ اكتاف رؤسائهم ، ولهذا سماه العرب ذا الأكتافَ (١) .

ولقد ثأر العرب منه فيما بعد بانضمامهم إلى خصمه يوليان ملك الروم فى الحرب التى قامت بينهما (٣٦١ – ٣٦٣م) حتى قالوا إن العرب كانوا فى جيشه مئة وسبعين ألفا (٢) .

٧–وكأنّما يأبى هذا العداء المستحكم إلا أن يغزو البحرين أردشير الثانى (٣٧٩ – ٣٨٥ م) ، فألقى ملك البحرين بنفسه فى البحر (٣) .

ومن هذا نرى أن الفرص قد تعددت لأن يحتك العرب بالفرس من قديم ، وأن يخالطوهم ، ويساكنوهم ، ويحاربوهم ، قبل أن تؤسس إمارة الحيرة .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/٦٦–٦٩ و ٣/٦٨ ومروج الذهب ١/١٢٢–١٢٤ وتاريخ ابن خلدون ٢/١٦٩ ودائرة المعارف مادة بكر .

(٢) الطبرى ٣/٦٨ وسأوثر رسم مئة على هذه الصورة .

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢/١٦٩ .

ثانيا — إمارة الحيرة

رأى الفرس أن الوسيلة المثلى للاطمئنان على الأمن فى هذا الجانب من مملكتهم أن يساعدوا القبائل العربية النازلة على مقربة من حدودهم على تأسيس إمارة تقيهم غزوات العرب ، وتحجز بين حدود الفرس وحدود الروم ، فكانت إمارة الحيرة .

١ — والحيرة مدينة قديمة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة ، على بحيرة النجف ، وعن كثب من البادية .

ويظهر أن كلمة الحيرة سريانيّة (حِرْتا) ومعناها المعسكر ، وقد ذكرت باسم (إرْثا) على أنها مدينة فارسية فى كتاب غلاوكوس (١) وفى كتاب ستفانوس البيزنطى (٢) .

وكانت المدينة من قصور مُحَصَّنة ، حول ميدان واسع لم تكن له وسائل دفاع ، ولم يكن حول المدينة سور يحميها أو حصنٌ يقيها ، لهذا لما سار إليها خالد ابن الوليد ١٢ هـ (٦٣٣م) ليفتحها تحصن أهلها بقصورهم ، فساق خالد قطعانهم وأغنامهم إلى زرعهم الذى لم بكونوا حصدوه ، فطلبوا المفاوضة على التسليم .

كان أهل الحيرة منذ القرن الثالث الميلادى ثلاثة أصناف :

ـ سوخ وهم البدو النازلون غربى الفرات (٣) ، والعباد وهم السكان

---

(١) Eragmenta. p. 409.

(٢) Ethnica p. 276.

(٣) هؤلاء من العرب الذين اجتمعو من البحرين وتحالفوا على التناصر ، فصاروا يدا واحدة ضمهم اسم تنوخ (الطبرى ١/٤٧٦ وابن الأثير ١/١٣٥ والأغانى ١١/١٥٥) .

الأصليون اللين سكنوا المدينة وبنوا فيها ، والأحْلاف وهم النازلون بالحيرة من غير هؤلاء جميعا ، وسموا بذلك لتحالفهم مع العباد .

وهؤلاء السكان كلهم من العرب .

٢ — ليس من المعلوم يقيناً متى بدأ تأسيس الإمارة ، أكان فى عهد سابور الأول بن أردشير ملك الفرس (٢٤١ — ٢٧٢م) إذ نصب على الحيرة عمرو بن عَدِىّ أم كان فى عهد أبيه أردشير (٢٢٦ — ٢٤١م) ؟

ويظهر أن الإمارة بدأت فى عهد أردشير ، إذ تَأمَّر على الحيرة مالك ابن فَهْم الأزْدى ، ثم خلفه ابنه جَذِيمة الأبْرَش ، ثم تولى بعد جذيمة ابن أخته عمرو بن عَدِىّ (٢٦٨ — ٢٨٨ م) وهو أول الأُمراء اللخمِيين آل نصر ، وأول من يعده أهل الحيرة من ملوك العرب بالعراق ، ثم توالى بعده الأُمراء من اللَّخْمِيين حتى دامت إمارتهم نحو أربعة قرون ، إلى أن افتتحها خالد بن الوليد سنة ١٦ هـ ٦٣٧ م (١) .

٣ — كان أمراء الحيرة أو ملوكها يخضعون للفرس خضوعا إسمياً وكان الفرس يعفونهم من الإتاوة ، لقاء حمايتهم للحدود ممن يغير عليها وكِفاء مساعدتهم لهم فى حروبهم للروم .

على أنهم بلغوا من القوة أحيانا إلى حد المساواة بينهم وبين الفرس والروم ، فحاربوا الفرس حينا ، وحاربوا الروم أحيانا منتصرين للفرس وموالين لهم .

ومن أعظم ملوكهم النعمان بن امرىء القيس بن عمرو المعروف

(١) الطبرى ٢/٣٧ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ١٧٦ ومروج الذهب ١/١٢٦ وتاريخ الإسلام السياسى ٤٨ الدكتور حسن ابراهيم .

بالنعمان الأعور (حوالى ٤٠٣ ـ ٤٣١ م) كانت عنده كتيبتان يقال لإحداهما دوْسَر وهى عربية ، ويقال للأُخرى الشَّهْباء ، وهى فارسية ، فكان يغزو بهما بلاد الشام ومن لم يخضع له من العرب (١) .

كذلك عظمت مكانة الحيرة فى عهد المنذر الثالث الملقب بابن ماء السماء (حوالى ٥١٤ ـ ٥٥٤م) وهو الذى رفض أن يعتنق المزدكية كما اعتنقها ملك الفرس قُباذ ، فعزله قباذ ، وولى على الحيرة الحارث ابن عمرو أمير كِنْدة ، فلما مات قباذ خلفه ابنه كسرى أنوشروان ، فنكَّل بالمزدكية وأتباعها ، وأعاد المنذر إلى إمارة الحيرة ، وكان هذا سبباً فى حروب بينه وبين الحارث الكندى ، إلى أن قضى عليه وعلى بنيه

ويبدو أن رفض المنذر للمزدكية ، وانتصاره على الحارث الكندى، وتخوف كثير من العرب أن يحكمهم الحبش الذين استولوا فى ذلك الوقت على اليمن ، يبدو أن هذا دفع القبائل العربية فى نجد وشرق الجزيرة إلى أن تعلن ولاءها للمنذر .

ثم زاد من مكانته أنه حارب الغساسنة والروم ، وانتصر عليهم مرات ، وكان من نتائج انتصاره أنه لما عقد الصلح بين الفرس والروم فى عهد الإمبراطور جستنيان عام ٥٢٢ م كان من شروطه أن يدفع الروم لملك الفرس وللمنذر غُرْما متساويا من المال .

٤ ـ كان آخر ملوك الحيرة الأقوياء النعمان الثالث بن المنذر (٥٨٥ ـ ٦١٣م أو ٦٠٢) وهو أبو قابوس ، وصاحب النابغة الذبيانى ،

---

(١) الطبرى ٢/٧٣ .

وقاتل عبيد بن الأبرص وَعدىّ بن زيد فى إحدى الروايات ، وهو الذى مات فى حبس كسرى (٦١٣م) .

وقد أقام كسرى إياسَ بن قَبِيصة خلفا للنعمان على الحيرة ، ولم يكن من أهل بيت النعمان ، وأشرك معه فى الحكم رجلا فارسياً اسمه النَّخِيرجان .

وكان من أثر هذا ضعف الحكومة العربية فى الحيرة ، ثم قيام حرب ذى قار بين الفرس والعرب ، وكان إياس بن قبيصة وأولياؤه من العرب فى صف الفرس ، لكن العرب انتصروا على الفرس وعلى إياس .

ثم انفرد بملك الحيرة آزاذ بن يابيان الهمذانى سبعة عشر عاما ؛ وجاء بعده المنذر بن النعمان فلم يمكث إلاّ ثمانية أشهر ، وهو الذى يسميه العرب المغرور ، إذ قدم خالدبن الوليد إلى الحيرة فافتتحها سنة ١٢ ﻫ ٦٣٣ م (١) بعد أن دامت أربع مئة سنة ،وهى مدة طويلة فى أعمار الدول .

٥ — على أن الحيرة لم تكن حلقة اتصال بين العرب والفرس فحسب ، بل كانت الحيرة وماجاورها مجمعا لأديان شتى فى الجاهلية ، يدل على ذلك أن المسلمين فتحوها وعلى شواطىء دجلة والفرات فرس يعتنقون الزرادشتية ، ونصارى يدينون بالمسيحية ، وأناس يتبعون المانوية (٢) ، وأتباع لديانات قديمة وثنية ، بقيت منهم آخر طائفة وهم الصابئة بحرّان حتى القرون الوسطى (٣) .

---

(١) الطبرى ٢/١٥٦ — ١٥٧ .

(٢) ديانة نشأت من اتحاد دين زرادشت بالأفكار المسيحية والهندية .

(٣) الفهرست ١٧ والحضارة الإسلامية ٧٣ فون كريمر و

Literary History of Persia. Browne. p. 154.

ثالثا ــ الفرس باليمن

لم يكن اتصال العرب بالفرس محصورا فى نطاق الجوار والمخالطة والغزوات المتبادلة والصلة التجارية ، عن طريق الحيرة وحدها ، لأن التاريخ ينبىء عن صلات أخر.

١ ــ فقد قام أبو كَرِب أسْعد الملقب تُبَّع (حوالى ٣٨٥ ــ ٤٢٠م) مع ابنه حَسَّان بهجوم على شمال الجزيرة(١) ، أملا فى بسط سلطانه على بلاد العرب كلها ، ورغبة فى دعم نفوذه التجارى على طرق القوافل العربية ، لهذا عين ابنه على يثرب ، وعين على كِنْدَة أحد أقاربه وهو حُجْر آكل المُرار ، ثم تقدم إلى الحيرة واستولى عليها ، ثم توغل فى فارس نفسها حوالى ٤٢٠ م أو ٤٢٥م.

٢ ــ ولما تورطت اليمن فى النزاع الناشب بين الفرس والروم (٥٠٦ ــ ٥٢٦م) آزر الملك معد يكرب بيزنطة على فارس ، بمحاربته المنذر ملك الحيرة الموالى للفرس سنة ٥١٦م .

لكن اليمن بعد ذلك انحازت إلى فارس ، لأن الروم حاولوا أن ينشروا المسيحية بها ، وخوّفوهم بالحبس ، فاعتنق اليهوديةَ ذو نُواس

---

(١) كان امرؤ القيس بن عمرو ملك الحيرة الموالى للفرس قد هجم على نجران ، وفى نقش النمارة (٣٢٨م) إشارة إلى حملته ، ولقب نفسه بفاتح نجران وملك العرب ، وكان الغرض من هذه الحملة السيطرة على القبائل العربية المقيمة بين الحيرة واليمن ، والسيطرة على طرق القوافل التجارية ، والقضاء على احتكار اليمن لهذه الطرق. وتصدى لمقاومته أخوان هما الشرح يحصب ويازل باين ، وكانا قد اغتصبا الملك من شمر يهر عش ، واستعانا فى مقاومتهما بقبيلة كندة التى كانت قد هاجرت إلى شمال اليمن ، واستقرت هناك ، وظلت بعد هجرتها موالية لملوك اليمن ، وشبه تابعة لهم .

وبعد هجوم امرئ القيس بنحو قرن زحف تبع على الشمال وعلى الحيرة .

آخر ملوك التبابعة ، وعقد معاهدة مع المنذر الثالث ملك الحيرة وحليف الفرس

٣ ـ فلما احتل الحبش بلاد اليمن سنة ٥٢٢م لجأ سيف بن ذى يزن إلى الفرس ، ليستنجد بهم . وليس بين المؤرخين خلاف فى هذا الاستنجاد ، فهم متفقون على أنه استنجد أولا بقيصر ، فلم ينجده ، لرغبته فى أن تبقى اليمن خاضعة لأحلافه الحبش ، فتكون طريقا إلى متاجر الروم ، وليناوىء النفوذ الفارسى والمتاجر الفارسية باليمن ، ولأن الدين المسيحى مشترك بين بيزنطة والحبشة .

فاتجه سيف إلى كسرى أنوشروان (٥٣١ ـ ٥٧٨م) فأنجده بجيش خلّص اليمن من حكم الحبش ، وأخضعها لحماية الفرس (١).

ولقد ابتهج العرب بخلاص اليمن ، فوفدت على سيف وفودهم تهنئه بطردهم ، وسجّل أبو الصَّلْت والد أميّة هذا الابتهاج بقوله :

لايطلبُ الثأرَ إلاّ كابن ذى يَزَنٍ	فى البحر خيَّم للأعداء أهوالا
أتى هِرَقْلَ وقد شالت نعامتُه	فلم يجد عنده النصر الذى سالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد عاشرة	من السنين يُهينُ النفسَ والمالا
حتى أتى ببنى الأحرار يَقْدُمُهُم	تخالهم فوق متن الأرض أجبالا
مَنْ مثْلُ كسرى شهنشاه الملوك له	أومِثْلُ وهْرزَ يوم الجيش إذ صالا؟
لله دَرُّهُمُ من فتية صبروا	ما إن رأيتُ لهم فى الناس أمثالا
بيضٌ مرازبَةٌ غُلْبٌ أساورةٌ	أُسْدٌ تُرَبِّبُ فى الغَيْضات أشبالا
أرسَلْتَ أُسْدا على سود الكلاب فقد	أضحى شريدهُم فى الأرض فُلاَّلا

---

(١) الطبرى ٢/١١٥ — ١٢٤ وسيرة ابن هشام ١/٦٥ — ٧٣ .

فاشرب هنيئا عليك التاج مُرْتَفِقاً   فى رأس غُمْدان دارا منك مِحلالا
وأَطْلِ بالمسك إذ شالت نعامتهم   واسْبِل اليوم فى بُرْدَيْك إسبالا (١)

وبنو الأحرار الذين عناهم أمية فى شعره هم الفرس الذين قدموا مع سيف بن ذى يزن ، وبقى أبناؤهم إلى القرن الرابع الهجرى يسمون بنى الأحرار بصنعاء ، ويسمون الأبناء باليمن ، والأحامرَة بالكوفة ، والأساورةَ بالبصرة ، والحضارمةَ بالجزيرة ، والجراجمةَ بالشام (٢).

ومن قصيدة لعدِىّ بن زَيد العبادىّ فى الإشادة بالفرس الذين خَلَّصوا اليمن من الحبش قوله (٣) .

ما بَعْدَ صَنْعاء كان يَعْمُرها   ولاةُ مُلْكٍ جَزْلٍ مواهبها
محفوفةٌ بالجبال دُونَ عُرَى الـ   ـكائد ماتُرْتَقَى غواربُها (٤)
يأنس فيها صوتُ النُّهام إذا   جاوبها بالعشىِّ قاصبُها (٥)
ساقتْ إليه الأسبابُ جند بنى الـ   أحرار فرسانُها مواكبُها

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٦٩ والأغانى ١٦/٧٣ والمعارف لابن قتيبة ١٧٧ وطبقات الشعراء ١٠٢ وأخبار مكة للأزرقى ١/٩٣ والطبرى ٢/١٢٥ وفى الأغانى أن الشعر لأمية لا لأبيه .

سأل : مخفف سأل . مرازبة : جمع مرزبان وأصل معناها وزير الفرس ، والمراد أنهم ذوو رأى ومكانة . غلب : جمع أغلب وهو القوى الشديد . أساورة : جمع أسوار بضم الهمزة وكسرها وهو قائد الفرس أو فارسهم أو مجيد الرمى بالسهام . تربب : تربى . الغيضات : جمع غيضة وهى المكان الملتف بالشجر ويكون مأوى للسباع . فلال : جمع فل وهو المهزوم . غمدان : قصر عجيب الصنعة بين صنعاء وطيوة . شالت نعامتهم : هلكوا . أسبل : أرخ ثوبك مختالا .

(٢) الأغانى ١٦/٧٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ١/٧١ .

(٤) غواربها : أعاليها .

(٥) النهام : الذكر من البوم . القاصب : الزامر فى القصب .

وفَوَّزَتْ بالبغال توسّق بالـ ... حَتْف وتسعى بها توالبها (١)

حتى رآها الأقوالُ من طرف الـ ... مَنْقَل مخضرةً كتائبها (٢)

يوم ينادون آل بَرْبَرَ والـ ... يَكسومَ لا يُفلحنَّ هَاربها

وكان يومٌ باقى الحديث وزا ... لت إمةٌ ثابتٌ مراتبها (٣)

وبُدِّل الفيْجُ بالزرافة والأيّامُ جونٌ جَمٌّ عجائبها (٤)

بعد بنى تُبّعٍ نَخَاورةٍ ... قد اطمأنت بها مرازبها (٥)

ولكن لماذا ابتهج العرب بالخلاص من الحبش إلى الفرس ؟

لاشك أن اليمنيين والعرب عامة كانوا موتورين من سوء الحكم الحبشى ، ومحاولة الحبش استعمار الحجاز ، وهدم البيت الحرام ، ثم إنهم — وإن لم يكن استقلالهم تاما فى عهد الحكم الفارسى — كان النفوذ لهم والسلطان ؛ لأن سيف بن ذى يزن كان يحكم اليمن ، ويدفع الجزية لكسرى فى كل عام (٦) .

وما من شك فى أن العرب كانوا يأنفون من أن يحكمهم الحبش ، وإنا لنتبيّن ذلك فى قول سيف لكسرى : « أيها الملك ، غلبتنا على بلادنا الأغْرِبة ، فجئتك لتنصرنى عليهم ، وتخرجهم عنى ، ويكون ملك بلادى لك ، فأنت أحب إلينا منهم » (٧)

---

(١) فوزت : قطعت المفازة وهى الصحراء . التوالب : جمع تولب وهو ولد الحمار وأطلقه هنا على ولد البغل.

(٢) الأقوال : هم الملوك ومثله الأقيال . المنقل : الأرض التى يكثر فيها النقل وهى الحجارة .

(٣) الإمة بكسر الهمزة النعمة .

(٤) الفيج : الذى يسعى للسلطان بالكتب على رجليه . الزرافة : الجمع من الناس ، وهى أيضا حيوان معروف . جون : سود ، ويروى خون بالخاء جمع خائنة .

(٥) بنوتبع : اليمن . النخاورة : القوم الكرام المفرد نخوار . المرازبة : جمع مرزبان وهو الوزير والقائد .

(٦) الطبرى ٢/١١٧ .

(٧) الطبرى ٢/١١٦ .

فهو يعبر عنهم بالغربان ، ويؤثر أن يحكمهم الفرس على أن يحكمهم هؤلاء الغربان .

ونتبيّنه فى قول أبي الصلت فى قصيدته السابقة (أرسلت أُسدا على سود الكلاب) ، وهو يعنى بالأُسد الفرس ، ويعنى بالكلاب السود الحبش .

وقد نكل سيف بن ذى يزن بالحبش الباقين فى بلاده ، ثم اغتالوه ، فوثب إلى الحكم رجل من الحبشة ، فأخذ يقتل ويفسد ، فأرسل كسرى جيشاً يقوده وِهْرِز ، وأمره أن يقتل كل من باليمن من الحبش ففعل ، وأمّره كسرى على اليمن ، فكان يتولى حكمها ، ويجبى إلى كسرى مالها .

ولما مات ولّى كسرى ابنه المَرْزُبان ، ثم مات فولى التَّيْنُجان ابن المرزبان ، فمات هذا أيضا فعين كسرى خُرَّ خُسْره بن التينجان ، ثم عزله وولى بعده باذان ، ولم يزل باذان على اليمن ، حتّى بعث الله النبى عليه الصلاة والسلام (١) .

---

(١) الطبرى ٢/١٢٠ — ١٢١ سيرة ابن هشام ١/٧٣ .

رابعا ــ التجــارة

منذ زمن قديم اتصل العرب والفرس اتصالا تجاريا ، كانت له عدة وسائل .

١ ــ فقد كان السبئيون حلقة اتصال بين الهند والحبشة وشرقى إفريقية وبين شمالى آسيا وشمالى إفريقية ، وكانت عُمان الإقليم الشرقى لهذه المتاجر .

٢ ــ فلما ضعفت حِمْيَر ــ التى خلفت سبأ ــ انتقلت المكانة التجارية إلى مكة ، وعقدت مكة معاهدات تجارية مع الأُمم المجاورة ، إذ أخذ بنو عبد مناف العِصَمَ لقريش ، وكانت إحدى هذه العصم أو المعاهدات معاهدة أخذها نوفل من ملك فارس ، فتردد العرب على العراق وعلى فارس ، وبهذه المعاهدات التى عقدها أبناء عبد مناف مع حكام الشام من روم وعرب ، ومع الفرس والحبش وحِمْيَر جَبَّر الله قريشا ، وأصلح أحوالها ، وأفاء عليها كثيرا من الخيرات ، فسمى الأربعة الذين عقدوا المعاهات المجبِّرين (١) .

٣ ــ على أن العرب كانوا منذ زمن قديم يقدمون على الفرس بمتاجرهم وسلعهم ، ويمتارون من عندهم الحب والتمر والثياب وغيرها (٢) وكانوا إذا أجدبوا قصدوا العراق وفارس فيشترون التمر والشعير ، ثم يعودون إلى بلادهم ، خوفا من الذلة فى سلطان دولة أعجمية (٣) .

---

(١) الطبرى ٢/١٨٠ ومجمع الأمثال ٢/٦٦ ـ والنوادر القالى ١٩٩ .
(٢) الطبرى ١/٢٩١ .
(٣) ابن الأثير ٢/٢٢٨ .

٤ ـ والذى يتتبع طرق القوافل ومسالك المتاجر يجد بينها طريقا من مأرب إلى جَرّة ، وجَرّة مدينة على الخليج العربى ـ الفارسى ـ يرجّح أنها أسست فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وكان سكانها أصحاب نشاط تجارى ، وهى ممتازة الموقع ، لأنها تواجه الهند ، وتقع داخل خليج البحرين بمأمن من الأمواج ، وعلى مقربة من واحات الحَسَا التى تعد مفتاحا لقلب الجزيرة العربية ، والراجح أن موضعها كان قريبا من العُقَيْر الحالية ، ومازال هذا الطريق مسلوكا إلى يومنا هذا .

ثم يجد طريقا آخر من جَرّة إلى بَطْرا ، إذ كانت بعض السلع تحمل فى قوارب إلى الخليج ، ثم تحمل فى الفرات ، ثم ترسل إلى الشام برا عن طريق تدمر .

وهنالك طريق ثالث من جَرّة إلى الحسَا واليمامة وغيرها من مناطق نجد (١) .

٥ ـ وكان الفرس يبعثون متاجرهم إلى أسواق العرب مثل عكاظ والمشَقَّر ، وكذلك يبعثونها إلى اليمن وقلب الجزيرة العربية ، وإذ كانوا لايستطيعون حمايتها استعانوا بعرب الحيرة على خفارة القوافل التجارية ولاسيا المتجهة إلى سوق عكاظ ، لقاء جُعْل يقدمونه لأشراف القبائل الذين يحمون القوافل .

وكثيرا ماكان حماة القوافل يردون الجُعل إن اعتدى أحد على القافلة وعجزوا عن حمايتها .

ولقد كان الاعتداء على القافلة يشعل حربا ، كما حدث فى يوم

---

(١) الجغرافية التاريخية الإسلامية ١٢ محمد أحمد حسونه .

السِّلاّن ، إذ قامت حرب بين النعمان الثالث – أبي قابوس – بن المنذر الرابع (٥٨٥ – ٦١٣ م) وبين بنى عامر بن صَعْصَعَة ، لأن بنى عامر اعتدوا على قافلة كسرى أبرويز المتجهة إلى عكاظ ، فغضب النعمان ، واستنصر أخاه لأمه وَبْرَةَ الكلبي ، وجمع بنى تميم ، والتقى الجيشان بالسِّلاّن ، واقتتلا أحر قتال ، ثم انتصر العامريون على جيش النعمان (١) .

كذلك تحارب العرب والفرس فى يوم الصَفْقَة ، لأن العرب اعتدوا على قافلة كسرى المرسلة إلى اليمن ، أو على قافلة أرسلها إلى كسرى باذان عامله على اليمن ، واحتال كسرى وأعوانه من العرب على التنكيل بالمعتدين (٢) .

٦ – وقد تميزت مكة – كحالها الآن – بأنها سوق عالمية ، ترد إليها المتاجر من بلاد ومن أصقاع شتى ، حتى إن بعض مؤرخى الإفرنج يرجحون أنه كان بها بيوت رومانية تشرف على الشئون التجارية للروم ، وكان فيها حبش يرعون مصالح قومهم التجارية (٣) . ويؤكد لامانس ماذكره الواقدى أن بعض الدول كبيزنطة وفارس كان لها ممثلون فى مكة نفسها (٤) .

ومن هنا صارت مكة مركزا للصيرفة ، وسوقا للتبادل ، وتداول

---

(١) ابن الأثير ١/٢٣٤ .

(٢) الطبرى ٢/١٣٤ والأغانى ١٦/٧٥ والعقد الفريد ٣/١٠٤ .

(٣) فجر الإسلام ١٥ و Arabia Before Mohammed.

(٤) عصر ما قبل الإسلام ١٧١ مبروك نافع .

الناس فيها دراهم الفرس البغلية (١) ، وكان التجار يستطيعون أن يدفعوا فيها أثمان السلع التى ترسل إلى بلاد بعيدة ، ويستطيعون أن يؤمنوا على متاجرهم التى تجتاز طرقا محفوفة بالمخاطر ، لهذا سماها بعض المستشرقين بندقية بلاد العرب .

---

(١) فتوح البلدان ٤٧١ – الدرهم البغلى أو الطبرى ٨ دوانق والمغربى ٤ واليمنى ٣ والإسلامى ٦ لأن عمر قال : انظروا الأغلب مما يتعامل به الناس من أعلاها وأدناها ، فكان الدرهم البغلى والدرهم الطبرى ، فجمع بينهما فكان مجموعها اثنى عشر دانقا ، فأخذ نصفها فكان ستة . فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل ، وكل عشرة مثاقيل أربعة عشرة درهما وسبعان . (الأحكام السلطانية للماوردى ١٤٧) .

والدرهم البغلية نسبة إلى بغل وهو يهودى ضرب تلك الدراهم ، وكان يعرف برأس البغل (النقود العربية ١/٢٢ للأب أنستاس الكرملى) .

خامسا — صلات أخر

اتصل العرب بالفرس بوسائل أخرى ، كانت لها آثار ونتائج :

١ — فقد حكم الفرس البَحْرَيْن وهَجَر ، وبقى حكمهم إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه بعث إلى أتباع كسرى بهَجَر يدعوهم إلى الإسلام ، فلما أبوا وضع عليهم الجزية دينارا على كل رجل (١) .

وقد نقل الفرس إلى هَجَر طائفة من الفَعَلة لبناء حصن المشَقَّر ، ومعهم نساء من ناحية السَّواد والأهواز ، فتناكحوا وتوالدوا ، وصاروا أكثر السكان بمدينة هجر ، وتكلموا العربية ، وانتسبوا إلى عبد القيس .

فلما جاء الإسلام قالوا لعبد القيس : قد علمتم عَددنا وعُدَّتنا وعظيم غَنائنا ، فأدخلونا فيكم ، وزوجونا ، فرفضت عبد القيس ، أنفة من أن تلحقهم بها ، فتفرقوا فى العرب ، وبقيت فى عبد القيس منهم بقية ، فانتمت إلى عبد القيس ، ولم تردها عن هذا الانتماء (٢) .

٢ — وكان الفرس يستخدمون بعض العرب فى دواوينهم فكتب لَقيط ابن يَعْمَر الإيادى لكسرى وترجم له (٣) . وكان عَدِىّ بن زيد من تراجمة كسرى أبرويز (٥٩٠ — ٦٢٨ م) ثم خلفه ابنه فى وظيفته ، وكان زيد والدَ عدِىّ يقرأ العربية والفارسية (٤) .

٣ — على أن بعض العرب رحلوا إلى فارس ليتعلموا ، كالحارث ابن كَلَدة الثقفى ، رحل من الطائف إلى جُنْدَيْسابور وغيرها من فارس ، فتعلم الطب والعزف على العود ، ويذكرون أنه قابل كسرى أنو شروان ،

---

(١) المغازى للواقدى ٨٥، ٨٨ (٢) تاريخ الطبرى ٢/١٣٣

(٣) الأغانى ٢/١٠١ ومعجم ما استعجم للبكرى ١/٧٥ .

(٤) الأغانى ٢/١٠١ — ١٠٦

ودار بينهما حديث طويل . ومحاورة فى الطب (١) .

كذلك رحل ابنه النَّضْر إلى الحيرة وإلى فارس ، فأتقنَ الفارسية ، وكلف بها ، وكان يقتنى بعض كتبها ويعاند الدعوة الإسلامية (٢) بها ، فإذا تحلق الناس حول النبى علية الصلاة والسلام ليسمعوا منه ، خلفه فى مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يامعشر قريش أَحْسَنُ حديثا من محمد ، فهلم إلىّ ، فأنا أُحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفندياذ ، والنضر هذا هو الذى قال : سأنزل مثل ماأنزل الله ، وفيه نزلت ثمانى آيات من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : « إذا تُتْلَىَ عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأولين » (٣) ويرى بعض المفسرين أنه المقصود فى الآية الكريمة « ومن الناس من يَشْتَرِى لَهْوَ الحديث ليُضِلَّ عن سبيل الله بغير علمٍ ، ويتخذها هُزُوًا ، أُولئك لهم عذاب مهين » (٤) .

ورحل الأعشى الكبير إلى فارس وقيل إنه مدح كسرى ، وعرف كلمات فارسية كثيرة استخدم بعضها فى شعره وقد سجل رحلاته فى قوله(٥) :

وطَوَّفْتُ للشعر آفاقَهُ عُمانَ وحِمْصَ وأُورِيْشَلم
أتيتُ النجاشىَّ فى أرضه وأرضَ النبيط وأرضَ العَجَمْ

وفى قوله :

قد سرت مابين بانقيا إلى عدن وطال فى العجم ترحالى وتَسْيارى

ووفد عبد الله بن جُدْعان على كسرى (٦) .

---

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ١/١٠٩ — ١١٣ وأخبار الحكماء للقفطى
(٢) سيرة ابن هشام ١/٣٢٠ وعيون الأنباء ١/١١٣
(٣) سورة القلم ١٥ .
(٤) سورة لقمان ٦ .
(٥) معجم البلدان ٢/٥١ والديوان ٤١ ، ١٧٩ .
(٦) الأغانى ٨/٤ .

الفصل الثاني

آثار الفرس في العرب

(١) أثر الديانة الفارسية فى بعض العرب

من الطبيعى أن كانت للصلات التى أسلفناها آثار شتى فى العرب ، تتناول ألوانا من الحياة ، لكن الذى يعنينا فى هذه الدراسة هو الآثار التى تتصل باللغة والأدب والثقافة والعقائد اتصالا مباشرا ، أو اتصالا يمت إليها بسبب .

وقبل الحديث عن تأثير الفرس فى عقائد بعض العرب لابد من إلمامة مجملة بأصول دينهم الذى دانوا به .

١ – كان الفرس القدماء يعبدون (مِثْرا) إله الشمس ، و (أناهَيتا) إلهة الخصب والأرض ، وآلهة أخرى .

فلما ظهر زرادشت(١) بدينه الجديد اعتبره قدماء الإيرانيين نبيا أوْحَىٰ إليه (أهوار مازادا) وأمره أن يبلغ الناس رسالته .

أما الأصل الذى قامت عليه الزرادشتية فهو الاعتقاد بوجود قوة عالية هى قوة الخير والنور ، وتسمى (أهورا مازدا) أى النور العظيم ،

---

(١) يذكر ول ديورانت أن العلماء مختلفون فى مولده بين القرن العاشر والسادس قبل الميلاد (قصة الحضارة الفارسية ٣٨) ويرجح برستد أنه ولد حوالى ٥٧٩ قبل الميلاد ، ويعلق الدكتور أحمد فخرى مترجم كتاب برستد بأن الباحثين قد انتهوا إلى أنه عاش فى القرن السادس (انتصار الحضارة ٢٥٩) ثم يذكر برستد فى موضع آخر أن قورش (قتل ٦٢٥ قبل الميلاد) أقام فى عاصمته التى أسسها معبدا للديانة الزرادشتية فى الوقت الذى كان فيه زرادشت مازال حيا (انتصار الحضارة ٢٦٤) وهذا يثبت وجود زرادشت فى القرن السادس .

وبجانب هذه القوة سبعة من الملائكة يمثلون الفضائل السبع العليا ، وهي : الحكمة والشجاعة والعفّة والعدل والإخلاص والأمانة والكرم .

وإذا كان الخير لايتحقق إلاّ بمقاومة الشر وقهره فإن الزرادشتية تفترض وجود شخصية شريرة تسمى (أهْريمان) أي قوة الشر والظلام يعاونها سبع من القوى الشيطانية الخبيثة المتمردة ، تمثل الرذائل الإنسانية ، وهي : النفاق ، والخديعة ، والخيانة ، والجبن ، والبخل وإزهاق الأرواح .

وبين قوى الخير وقوى الشر صراع دائم وحرب لا تنقطع ، لأن كلا منها تريد السيطرة على الإنسان .

لهذا دعا زرادشت إلى مجاهدة قوى الشر وصراعها والتغلب عليها تحت لواء من قوى الخير ، وبيَّنَ لأتباعه أن التهاون في مؤازرة قوى الخير إنما هو استسلام لقوى الشر ، فعلى من يختار طريق الخير أن يخضع (لأهورا مازدا) إله النور الأعلى ، الذى لا أول لوجوده ، ولا نقص يعترى ذاته ، خالق جميع الكائنات ، وعلى رأسها الإنسان .

وإذْ كان (أهورا مازدا) قوة روحانية عالية منزهة عن أى نوع من النقص ، لا يستطيع العقل أن يدرك حقيقتها ، ولا يستطيع الخيال أن يتصورها رمز زرادشت إلى هذه القوة الغيبية العليا التى لا تدركها الأبصار ، ولا تحيط بكنهها العقول ، برمزين حسيين تستطيع العقول إدراكهما ، ويستطيع أتباعه أن يفكروا فيهما فيتصوروا صفات (أهورا مازدا) على وجه التقريب .

هذان الرمزان هما الشمس والنار .

فالشمس تمثل بعض صفات أهورا مازدا ؛ لأنها كائن مشرق مضيء فياض بالخيرات ، وهي قوة لا تُقَاوَم ، ولا تَقْوَى نزعات الشر على الاقتراب منها والانتقاص من قدرها وطهرها .

والنار عنصر أزلي أبدى ، وقوة مطهِّرة مهلكة .

لهذا يبدو أن الزرادشتية لا تدعو إلى عبادة النار بدعوى أنها كائن حي ، وإنما تدعو إلى تقديسها وتقديس الشمس لأنهما رمزان عظيمان لأهورا مازدا .

وقد حمَّل زرادشت أتباعه واجب الاحتفاظ بالشعلة النارية مضطرمة ، وكان يجول فى البلاد ليقيم معابد النار ، ثم أسبغ المجوس على نار المعبد قدسية عظيمة ؛ حتى كان كاهن النار يتلثم عند اقترابه منها ، خشية أن يصل نَفَسُه إليها فيلوثها .

وكانت لزرادشت تعاليم خلقية ؛ منها أنه كان يحض على العمل والجد ، ويعده أفضل وسيلة للتقرب إلى الخالق ونيل رضاه ، وطالما حث أتباعه على استغلال الأرض والانتفاع بخيراتها ، وبيَّن لهم أن العمل والإنتاج وتثمير الأرض خير من صوم وصلاة فى كسل وخمول ، كذلك أمرهم باجتناب الكذب ، وبالوفاء بالعهد .

ولم يحل عام ٥٠٠ قبل الميلاد حتى كانت الزرادشتية هى الدين الأول للإيرانيين ، إذ اعتنقها ملوك الفرس ، وناصرها دارا الأول (٥٢٢ — ٤٨٦ ق . م) وجعلها الدين الرسمي للدولة (١) .

---

(١) قصة الأدب الفارسى ٣٠ حامد عبد القادر وقصة الحضارة الفارسية ٣٩ ول ديورانت.

لكن الناس انحرفوا فيما بعد عن الزرادشتية ، فعبدوا النار ، وعدوها من آلهتهم ، وسموها (آنز) وجعلوها ابنا للإله الأعظم إله النور والضياء ، وجعلوا يقدمون للشمس وللنار ولأهورامازدا قرابين من الأزهار والخبز والفاكهة والحيوان ، وأحيانا من البشر (١) .

٢ – ثم ظهر (مانى) بإيران سنة ٢٤٢ م فى زمن سابور بن أردشير وادعى النبوة ، وصدقه خلق كثير ، هم الذين سُموا المانوية .

قام مذهب مانى على أن العالم يسيطر عليه النور منشأُ الخير ، والظلام منشأُ الشر ، فكل ماهو خير وجميل ونافع فالنور مصدره ، وكل ماهو شر وقبيح وضار فالظلام مصدره .

وقد فرض مانى على أتباعه عدة فروض ، منها الشك فى الدين ، والتوانى فى العمل ، وتعلم العلل والسحر ، ومنها الامتناع عن الكذب والبخل والقتل والزنا والسرقة والكف عن ذبح الحيوان حماية له من الألم .

ولم يجحد مانى نبوة زرادشت وبوذا والمسيح .

ومن الموازنة بين الزرادشتية والمانوية يتبين أن الزرادشتية كانت تشجع على التناسل والتعمير والتثمير والإنتاج وفَلْح الأرض ، أما المانوية فكانت تدعو إلى الخمول والكسل وترك الزواج والتناسل وإيثار العزلة والرهبنة ، حتى يفنى العالم المادى ويعود النور إلى موطنه الأصيل ، وهذا هو معنى قول هُرْمز بن سابور : إن مانى جاء ليدعو الناس إلى تدمير العالم (٢) .

(١) قصة الحضارة الفارسية ٤٧ ول ديورانت .

(٢) قصة الأدب الفارسى ٥٤ حامد عبد القادر .

لهذا كانت الديانتان متعارضتين وإن تراءى بينهما بعض الشبه الظاهرى ، فكان أتباع زرادشت يطلقون على المانوية كلمة ملاحدة .

٣ ـ ثم ظهر مَزْدَك فى عهد قُباذ والد كسرى أنوشروان (أوائل القرن السادس) فوافق زرادشت فى بعض مادعا إليه ، وزاد ونقص ، لكنه حاول أنْ يفلسف مذهبه الهدّام ، ويصبغه بصبغة فيها خير للمجتمع ، فزعم أنه ينهى عن التباغض والتقاتل ، وأن أكثر مابين الناس من شحناء وبغضاء وسفك للدماء إنما سببه أمران : الأموال والنساء ، ولاسبيل إلى السلام والمحبة إلا بالتسوية بين الناس فى الأموال والأملاك والعبيد والإماء والنساء ، وبهذا أحل مزدك الشيوع فى النساء وفى الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كالماء والنار والكلأ .

ونجم عن ذلك كثرة أتباعه من السِّفْلة والطَّغام ، وصاروا عشرات الألوف ، فعظم شأنه ، وتبعه الملك قُباذ ، فاشتدت البلايا على الناس ، وصار الرجل لايعرف ولده ، والوالد لايعرف أباه(١) .

ويتحدث نظام الملك فى تفصيل عن المزدكية ، فيبين أن كبراء الدولة لما أقروا مزدك على شيوعية الأموال قال لهم : وكذلك الشأن فى نسائكم ، فهى كالأموال بينكم ، فمن يرغب فى امرأة فليجتمع بها ، فليس فى ديننا غيرة ولاحمِية ، وبهذا لاتحيا النساء بغير نصيب من لذة الدنيا وشهواتها . ومن نظمه التى وضعها أنه لو دعا شخص عشرين رجلا إلى داره فعليه أن يمدهم بالطعام والطرب ، ويبيح لهم مباشرة نسائه ...

---

(١) الملل والنحل ٢٢٩/١ وصبح الأعشى ٢٩٧/١٣ والكامل لابن الأثير ١٤٤/١ والأغانى ٦١/٨ والتنبيه والإشراف ٨٩ .

ثم يقول نظام الملك إن كسرى أنوشروان ألّب رجال الدين على مزدك وعلى الدولة ، وأوعز إليهم أن ينصحوا أباه ، وأن يناظروا مزدك ، وأسرّ إلى كبراء الدولة أن عقل أبيه قد اختل ، فاستمعوا إلى نصحه وخلعوا قباذ ، ثم أعادوه بعد أن قتلوا مزدك وكثيرا من أتباعه (١) .

وربما كانت دعوة الشيوعية فى فارس أقدم من مزدك هذا ؛ لأن الطبرى يذكر أن مبتدع هذه الدعوة رجل منافق من أهل (فَسا) يقال له زرادشت ابن خركان ، وتابعه الناس على بدعته ، ثم دعا العامة إليها بَعْدُ رجل يقال له مزْدَق (٢) ؛ وبهذا الرأى أخذ براون (٣)

وكذلك ذكر ابن النديم أن اثنين دعَوَا إلى هذا المذهب ، كل منهما اسمه مزدك ، أحدهما قديم ، والآخر ظهر فى أيام قباذ ، وقتله أنوشروان وفتك بأتباعه (٤) .

وأيّاما كان الأمر فقد قضى أنوشروان على مزدك وأتباعه بعد سنوات من ذيوع المذهب فى الناس ، لكن الطائفة لم تنقرض ؛ بل بقى عدد منهم تعقبهم أنوشروان بعد استوائه على العرش (٥٣١ م) .

ومن المرجح أن بعضهم ظلوا متمسكين بدينهم خِفْيةً حتى جاء الإسلام ، فانتقلت بعض عقائدهم إلى بعض الفرق الهدامة التى ظهرت فى الدولة الإسلامية .

وإذاً فالسمة الغالبة على الفرس أنهم عبدة للنار وللشمس .

---

(١) سياسة نامه ٢٤ .

(٢) الطبرى ٣/ ٩١ .

(٣) Liteary History of Bersia p. 170

(٤) الفهرست ٣٧٢ .

وكانت بيوت النار منبثة فى العراق وفارس ، حتى ليصعب إحصاؤها ، وظل بعضها فى جهات شتى من العراق وفارس إلى مابعد الفتح الإسلامى بثلاثة قرون (١) .

ولقد كان لهذه العقيدة تأثير فى العرب :

١ ـ فقد عرف بعضهم المجوسية ، ودان بها آخرون فى بقاع شتى من الجزيرة ، فلما ظهر الإسلام دفعوا الجزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . منهم مجوس نجران (٢) ومجوس اليمن ، ومجوس هَجَر (٣) وعُمان (٤) والبحرين (٥) ، وكان بالقَطِيف وبالزّارة وبالغابة ودارين مجوس أيضاً (٦) ، وكان بتميم مجوس منهم زُرارة بن عُدُس وابنه حاجب ، والأقرع بن حابس ، وأبو سُود جد وكيع بن حسان ، وغيرهم (٧) ، وكان سَلْمان الفارسى مجوسياً ثم أسلم (٨) .

على أن بعض العرب مازالوا على المجوسية إلى عهد عمر بن الخطاب ، فقد ذُكر له فى خلافته قوم يعبدون النار ، ليسوا يهودا ولانصارى ولاأهل كتاب ، فقال : ماأرى ماأصنع بهم ، فقال عبد الرحمن بن

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ١/٢٦٨ و ٤/٨٦ والمسالك والممالك لابن حوقل ٨٩ ، ١٨٩ والمسالك والممالك للإصطخرى ١٠٠ ، ١١٨ .

(٢) فتوح البلدان ٧٥

(٣) فتوح البلدان ٧٥ ، ٧٨ والخراج لأبى يوسف ٧٤ .

(٤) فتوح البلدان ٨٤ .

(٥) فتوح البلدان ٨٦ .

(٦) فتوح البلدان ٩٢ ، ٩٣ .

(٧) الـكامل لابن الأثير ١/٢١٣ والمعارف لابن قتيبة ٢٠٥ وطبقات الأمم لصاعد ٤٣ والاعلاق النفسية لابن رسته ٧/٢١٧ .

(٨) أسد الغابة ٣/٣٢٩ .

عوف : أشهد أن رسول الله قال سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب (١) .

لذلك لاعجب فى أن تزوج كثير من العرب مجوسيات ، أفرد لهم أبو الحسن المدائنى كتابا سماه (كتاب فيمن تزوج مجوسية (٢)) . والراجح أن هذا الزواج لم يكن فى الإسلام ، لأن الإسلام لا يبيح زواج المجوسية ، إذ أن المجوس مصدقون بنبوة زرادشت ، مكذبون بسائر الأنبياء (٣) .

٢ ـ أما المزدكية فقد اعتنقها بعض العرب ، منهم ملك كندة الحارث بن عمرو بن حُجْر ، وكان معاصرا لقباذ بن فيروز نصير المزدكية ، وكان قباذ قد دعا المنذر بن ماء السماء والى الحيرة إلى الدخول معه فى المزدكية فأبى ، فدعا الحارث فلبى ، فولاه الحيرة مكانه ، فلما تولى كسرى أنوشروان (٥٣١ م) عزل الحارث ، وأعاد المنذر (٤) .

٣ ـ وأما تقديس العرب للنار فقد تجلى فى مظاهر شتى ، فحلفوا بها ، إذ كانت نار اليمن لها سَدَنة ، وسموها الهُولَة والمَهُولة ، وكان سادنها إذا أتى برجل هيّبه الحلف بها بأن يَطْرَحَ فيها الملح والكبريت لتستشيط وتنتفض ، فيهوِّل على الحالف ليَنْكل إن كان مذنبا ، وليجرؤ على الحلف إن كان بريئا ، قال أوس ابن حَجَر :

إذا استقبلَتْه الشمس صدَّ بوجهه ... كما صدَّ عن نار المهوِّل حالف(٥)

---

(١) الخراج لأبى يوسف ٧٤ والرسالة ٤٣٠ للشافعى .

(٢) الفهرست لا بن النديم ١٠٢ .

(٣) الفصل للشهر ستانى ١٦٣/١ .

(٤) الأغانى ٦١/٨ وتاريخ اليعقوبى ٢٩٩/١ و Original Sources of the curan. p.p. 212-275.

(٥) ديوان أوس بن حجر ١٦ والبيان والتبيين للجاحظ ٧/٣ وأساس البلاغة مادة هـول والحيوان للجاحظ ٤٧١/٤ .

وذكرها غيره من الشعراء كالأعشى (١) وأفنون التغلبي (٢) .
ثم ذكرها الكُمَيْت فى العصر الإسلامى فى قوله (٣) :

كَهُولَةِ ماأَوْقَدَ المُحْلِفُون لدى الحالفين وما هَوَّلوا

ومن القسم بها قول الشاعر :

حلفت بالملح والرَّماد وبالنـا ر وبا لله نُسْلِمُ الحلقَـه
حتى يظل الجـواد مُنْعَفِرًا ويَخْضِبَ النَّبْلُ غُرَّةَ الدّرقَه (٤)

وقول الأعشى (٥) .

حلفت بالملـح والرماد وبالشِّعـــرى وباللات نُسْلِمُ الحلقـهْ
حتى يظـل الهمام مُنْجدلا ويَقْرعَ النَّبل طُرَّةَ الدَّرقهْ

وأغلب الظن أن الشعر لشاعر واحد ، مع تغيير يسير فى الرواية .

وكانوا يتحالفون على النار ، وربما دنوا منها حتى تـكاد تحرقهم (٦) ، وكانوا يستمطرون بها ، بأن يعقدوا فى أذناب البقر السَّلَع والعُشَر — نوعان من النبات — ثم يصعدوا بها فى جبل وعر ، ويشعلوا فيها النيران ، ويضجوا بالدعاء والتضرع (٧) . وفى شعر أمية بن أبى الصلت تسجيل لهذا الاستمطار ، منه قوله :

---

(١) الأغانى ٢٠/١٣٩ .
(٢) المفضليات ٢/٦٢ .
(٣) البيان والتبيين ٣/٨ وأساس البلاغة مادة هول .
(٤) البيان والتبيين ٣/٨ الحلقة : بسكون اللام وفتحها جماعة القوم ، والقسم هنـا معناه لا نسلم الحلقة . منعفر : ملقى فى التراب . النبل : السهام . الدرقة : ضرب من التروس من الجلد جمعها درق . غرة : وجه .
(٥) الأغانى ٢٠/١٣٩ والبيتان ليسا بديوان الأعشى .
(٦) الحيوان للجاحظ ٤/١٥٠ وأيمان العرب للنجيرمى الكاتب . مخطوط .
(٧) الحيوان ٤/١٥٠ .

سنةٌ أزمةٌ تُخَيِّل بالنـا ... س ترى لِلعضاهِ فيها صريرا
إذ يُسَقّونَ بالدقيق وكانوا ... قبلُ لايأكلون شيئاً فطيرا
ويسوقون باقرَ السهل للطَّوْ ... د مهازيل خشيةً أن يبوروا
عاقدين النيرانَ فى شُكَرِ الأذ ... نابِ عقدا كيما تهيج البحورا
فاشتوتْ كلها فهاج عليهم ... ثم هاجت إلى صَبير صَبيرا
فرآها الإله تُرْشَم بالقَطْر ... وأمسى جنابهم ممطورا
سلَعٌ مّا ومثله عُشَرٌ مّا ... عائلٌ مّا وعالت البَيْقُورا (١)

٤ — وبعض العرب عبدوا الشمس ، يسجدون لها إذا أشرقت ، وإذا توسطت السماء ، وإذا غربت ، من هؤلاء تميم (٢) ، وكثير من حِمْير قبل أن يتهودوا ، وقد ذكر القرآن الكريم أن ملكة سبأ كانت تعبد الشمس هى وقومها « وجدتُها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » (٣) .

وفى الشعر مايدل على ذلك ، فقد سماها عُتْبة بن الحارث اليربوعى إلهة :

تَروَّحْنا من اللَّعْباء عَصْرا ... وأعجَلْنا الإلهةَ أن تَؤوبا (٤)

وكان الغلام إذا سقطت سنه قذفها إلى الشمس قائلا : أبدليني

---

(١) ديوان أمية ٤٥ والحيوان ٤/١٥٠ تخيل بالناس : تفزعهم . العضاه : جمع عضاهة : أعظم الشجر أو الخمط أو كل ذات شوك . باقر : بقر . شكر الأذناب : جمع شكير وهو شعر الذيل . الصبير : السحابة البيضاء أو الكثيفة . عائل : نافع وكاف . عالت : أهلكت .
(٢) العرب والإمبراطورية العربية ٢٧ بروكلمان .
(٣) سورة النمل ٢٤ .
(٤) لسان العرب مادة أوب . اللعباء : اسم مكان . تروحنا : رجعنا . أعجلنا : سبقنا تؤوب : تغرب .

بها سنا أحسن منها ، ولتجرِ فى ظلَمْها إياتك (١) وزعموا أنه إن فعل ذلك أمن على أسنانه العوَج ، وإلى هذا يشير طرفة بقوله فى وصف أسنان محبوبته :

سقَتْه إياةُ الشمسِ إلا لثاتِه — أُسِفَّ ولم تَكْدِمْ عليه بإثْمِدِ (٢)

وقوله :

بدّلَتْه الشمس من مَنْبِتِه — بَرَدًا أبيض مصقول الأُشُرْ (٣)

٥ — على أن العرب والفرس تشابهوا — فى غير تأثر ولا تأثير — فى بعض النظم المتصلة بالمرأة ، فقد كان الفرس يبيحون الجمع بين الأختين (٤) ، لأن الزرادشتية تبيحه (٥) .

وكان تعدد الزوجات مباحا ، أقرته شريعة زرادشت ، كما أباحت التسرى واتخاذ الحظايا والخليلات (٦) .

وكان الفرس يتشوقون إلى ولادة الذكور ، ويغالون فى تقديرهم ، ويعدونهم ثروة اقتصادية لآبائهم ، وعدة حربية لملوكهم ، أما البنات فكانت ولادتهن تجلب اللوعة والحسرة ، لأن الغرض من تربيتهن إعدادهن لرجل آخر يجنى فائدتهن ، ومما قاله الفرس إن الرجال لايبتهلون إلى الله من أجل البنات ، وكذلك الملائكة لا تعد البنات خيرا يجوز منحه للبشر (٧) .

(١) ظلمها : ماؤها . إياتك : شعاعك .

(٢) ديوان طرفه ٢٥ ، إياة الشمس : شعاعها . لم تكدم عليه : لم تعض بأسنانها شيئا يذهب تحزيزها ، كناية عن النعمة . أسف بإثمد : ذر عليه حجر الكحل .

(٣) الديوان ٦٥ الأشر : تحزيز الأسنان .

(٤) صبح الأعشى ١٣/٢٩٥ .

(٥) قصة الحضارة الفارسية ٥٩ ديورانت وتاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢ بارتولد .

(٦) قصة الحضارة الفارسية ٥٨ . (٧) قصة الحضارة الفارسية ٦١ .

٦ - لكن العرب خالفوهم فى نظم أخرى ، منها أن بعض الفرس الذين دانوا بالزرادشتية كانوا يبيحون للرجل أن يتزوج بنته وأخته الشقيقة وغير الشقيقة (١) ، لأن الزرداشتية تبيح ذلك (٢) وكانت بعض الأمم القديمة تشبههم فى هذا ، مثل الأشوريين والبطالسة والإسبرطيين والمصريين.

وكان الحجاب شديدا على نساء الطبقة الراقية فى فارس ، حتى كن لايخرجن إلا فى هوادج مرخاة عليها السدول ، وكان محظورا عليهن أن يخالطن الرجال فى مجتمع عام أو خاص ، حتى لقد حيل بين المتزوجات ورؤية آبائهن وإخوتهن ، أما الفقيرات فكن حرات فى التنقل ؛ لأنهن مضطرات إلى العمل والكد (٣) .

أما العرب فقد حرموا على أنفسهم أنواعا من القريبات ، وجاء الإسلام فأقر هذا التحريم .

كانوا لايتزوجون الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات (٤) وذهب ابن عباس إلى أنهم كانوا يتجافون عما حرمه الله بعد ، إلا امرأة الأب ، والجمع بين الأختين (٥) . وتباعد أهل مكة فى مناكحهم عن البنت وبنت البنت والأخت وبنت الأخت غيرة ونفورا من المجوسية ، ثم نزل القرآن الكريم بتوكيد صنيعهم وحسن اختيارهم (٦) .

ولم يكن العرب يمارسون ذلك التضييق فى الحجاب ، أو ذلك

(١) الأسرة والمجتمع ٤٨ الدكتور على عبد الواحد وصبح الأعشى ٢٩٥/١٣ . وقصة الحضارة الفارسية ٧٣ والنظم الاجتماعية والسياسية ٨٥

(٢) ول ديوارنت ٥٩ وبارتولد ٦٢ . (٣) ول ديوارنت ٦٠ .

(٤) الملل والنحل وبلوغ الأرب للعطار ٣١ والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ٩٩/١

(٥) تفسير الطبرى ٢١٧/٤ - ٢١٩ وروح المعانى للالوسى ٢٦١/٤ .

(٦) معجم البلدان ١٣٧/٨ .

التغنت فى عزل النساء عن المجتمع (١) .

على أن قلة من العرب كانوا يخلفون آباءهم على نسائهم ، بدليل قوله تعالى : « ولا تنكحوا مانكح آباؤهم من النساء إلا ماقد سلف (٢) » والآية الكريمة تعنى رجالا خلفوا آباءهم على أزواجهم (٣) ، وقد سجل ذلك عمرو بن معديكرب فى قوله ازوجته التى خلف أباه عليها (٤) :

فلولا إخوتى وبَنِىَّ منها ملأتُ لها بذى شُطُب يمينى
لَصَلْصَلَةُ اللجام برأس طِرْفٍ أحبُّ إلىّ من أن تنكحينى

ولما جاء الإسلام نسخ أربع زيجات من هذا كانت قائمة (٥) .

والدليل على أن الذين مارسوا ذلك كانوا قلة أن الإسلام لم يجد من هذا النوع غير هذه الزيجات ، وأن العرب كانوا يمقتونه ، ويسمون المولود عليه المَقْتِىّ ، ومن ثم قال الله تعالى : « إنه كان فاحشة وَمَقْتاً وساء سبيلا » كأنه قال هو فاحشة فى دين الله بالغة فى القبح ، قبيح ممقوت فى المروءة (٦) ، وكانوا يسمون من يخلف أباه على امرأته الضَّيْزَن ، ويتهمونه بأنه يدين بالمجوسية ، قال أوس ابن حَجَر فى هجاء بعض العرب :

(١) راجع المرأة فى الشعر الجاهلى والغزل فى العصر الجاهلى للمؤلف .
(٢) سورة النساء ٢٢ .
(٣) تفسير الطبرى ٥/٢١٧ .
(٤) لسان العرب مادة نكح .
(٥) الإصابة ٨/٥٤ والمعارف ٣٧ و ٥٠ والأغانى ٣/١٢٣ و ١/١٧ والملل والنحل ٣/٢٣٢ وأسد الغابة ٢/١٣٨ والروض الأنف ١/١٤٦ والمحبر ٣٢٥ والكشاف ١/١٩٧ والمبسوط ٤/١٩٧ ومعجم البلدان ٨/١٣٧ .
(٦) سورة النساء ٢٢ والكشاف ١/١٩٧ .

الفارسية فيكم غير مُنكَرَةٍ فكلكم لأبيه ضَيْزَنٌ سَلَفَ (١)

وقال المتلمس يهجو عمرو بن هند ملك الحيرة ويلصق به نقيصة مدّعاة هى أنه يغازل أمه ويلاعبها ، على عادة الفرس :

ملكٌ يلاعب أمه وقطينَها رخو المفاصل (...) كالمِبْرَد (٢)

وقد بقيت زيجة من هذا النوع إلى عهد عمر ، لأن منظور بن زبّان كان قد تزوج امرأة أبيه ، ولم تزل معه إلى خلافة عمر ، ففرق بينهما وقال منظور :

لَعمرُ أبى دينٌ يفرِّق بيننا وبينك قسْراً إنه لعظيم

وقد هجاه حُجْر بن معاوية بقوله :

لبئس ماخلف الآباء بعدهُم فى الأُمهات عِجانُ الكلب منظور

قد كنتَ تغمِزُها والشيخُ حاضِرها فالآن أنت بطول الغمز مَعْذُورُ (٣)

وكان بعض العرب يجمعون بين الأُختين ، ذكرهم أبو الحسن المدائنى فى مؤلفه (كتاب فيمن جمع بين أُختين) (٤) . لكن أكثرهم أبغضوا هذا النوع كما أبغضوا سابقه ، ثم حرمه الإسلام (٥) . على أن أثرا منه بقى إلى عهد عمر ؛ فقد فرق بين أُختين عند رجل من جُذام حلف أنه لايعلم أن الإسلام حَرَّم الجمع بين الأُختين (٦) .

(١) ديوان أوس ١٧ ولسان العرب ١٢٢/٢٧ والمعانى الكبير لابن قتيبة ٢١/١

(٢) ديوان المتلمس ٦ مخطوط .

(٣) الأغانى ٥٣/١١ .

(٤) معجم الأدباء ١٣٣/١٤ والفهرست ١٠٢ .

(٥) الملل والنحل ٢٣١/٣ والمحبر ٣٢٨ وإنسان العيون ٤٤/١ وروح المعانى ٢٦١/٤ .

(٦) فتوح الشام للبصرى ٢٣٧ .

وأما زواج البنات فلم يحدث بين العرب ، وليس لدينا إلا حادثة واحدة تنسب إلى حاجب بن زرارة ، إذ قيل إنه تزوج ابنته دَختنوس ثم ندم (١) ، وقيل إن لقيط بن زُرارة هو الذى تزوج ابنته دَختنوس ، وهو الذى سماها بهذا الاسم الفارسى ، فلما قتل يوم شعْب جبلة وهى فى عصمته قال :

ياليتَ شعرى عنكِ دُخْتَنوسُ	إذا أتاها الخبرُ المرموسُ
أتحلقُ القرونَ أم تَميسُ	لا ، بل تميس إنها عروس (٢)

لكن هذا الاتهام فى حاجة إلى نظر ، لأن كثيرا من الثقاة يخالفون ماذكره ابن قتيبة أنها بنت حاجب ، ويوافقون ابن الأثير فى أنها بنت لقيط ، ويرون أنها كانت زوجا لابن عمها عمرو ، ثم تزوجها بعده معبد بن زرارة ، أو عمير ابنه ، ولم يشيروا إلى زواج أبيها لقيط بها (٣) .

وإذاً فلم تكن دختنوس زوجة لأبيها سواء أكان حاجبا أم لقيطا ، ولم يتزوج عربى ابنته كما تزوج بعض الفرس بناتهم .

---

(١) المعارف لابن قتيبة ٢٠٥ والأعلاق النفسية لابن رسته ٢١٧/٧ والزينة لأبى حاتم الرازى ٦٠ مخطوط والمعرب للجواليقى ١٤٢ شرح شاكر .

(٢) الكامل لابن الأثير ٢١٣/١ .

(٣) الأغانى ٣٨/١٠ وتاج العروس ١٤٧/٤ ومجمع الأمثال ١٣/٢ والشعر والشعراء ٢٧١

(٢) أثر الفرس فى الحرب

كثيراً ماكان العرب والفرس يشتبكون فى حرب ، إذ يغير العرب على حدود الفرس ، فيرد الفرس غارتهم ، وقد يتعقبونهم إلى أطراف الصحراء أو إلى أعماقها ، كما تبين فى عوامل الاتصال .

وقد عرف العرب الكتائب الفارسية ، والأسلحة الفارسية ، فالنعمان المعروف بالأعور (٤٠٣ — ٤٣١ م) كانت له كتيبتان إحداهما عربية يقال لها دَوْسَر ، والأخرى فارسية يقال لها الشَّهْباء ، وكان يغزو بهما بلاد الشام ومن لم يَدِنْ له من العرب (١) .

ونجد فى شعر الحارث بن حِلِّزة ذكراً لكتيبة فارسية فى قوله يعدد من انتصر قومه عليهم :

ثم حُجْرا أعنى ابنَ أم قَطامٍ ... وله فارسيةٌ خضراء (٢)

ونجدهم ينسبون إلى الفرس نوعا من الدروع ، جاء فى فخر عمرو ابن امرئ القيس أنهم لايرهبون الأسود ، ولا يخشون الأعداء ، لأنهم أبطال يمشون فى دروعهم الفارسية فى زهو واعتداد كأنهم فحول من الإبل :

والله لايَزْدَهِينى كتيبتنا ... أُسْدُ غَرِينٍ مَقِيلُها غُرَفُ

إذا مشينا فى الفارسىِّ كما ... تمشى جمال مصاعبٌ قُطُفُ

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/٧٣ .

(٢) شرح المعلقات العشر ٢٨٣ حجر : معطوف على الضمير فى بيت سابق . كان حجر قد غزا امرأ القيس أبا المنذرين ماء السماء فى جمع من كندة كثير ، وكانت بكر بن وائل مع امرىء القيس ، فخرجت وردّته وقتلت جنوده .

فارسية خضراء : كتيبة خضراء من كثرة سلاحها ، والمراد بالخضرة السواد .

نمشى إلى الموت من حفائظنا   مشيا ذريعـا وحكمنا نَصَف(١)

وجاء فى شعر دُرَيْد بن الصِّمَّة أنه نصح أخاه عارضا وأصحابه ، وأنذرهم أن يأخذوا حذرهم من أعدائهم المهاجمين فى دروع فارسية :

نصحت لعارض وأصحاب عارض   ورَهْط بنى السَّوداء والقومُ شُهَّدى
فقلت لهم : ظنوا بألَفْى مدَجَّج   سَراتُهم فى الفارسىِّ المسَرَّد (٢)

ولقد كانت هذه الحروب توحى إلى الشعراء والخطباء بالافتخار بالنصر ، وبحفز الهمم ، وبعث العزائم ، وبالتحذير من الغفلة والاستهانة وقد أسلفت طرفاً من هذا فى عوامل الاتصال .

وهذه لمحات أخر تكشف عما كان للحرب من أثر فى الأدب .

١ — فى عهد كسرى غزت إياد سَواد العراق ، واعتدت على ملوك آل نَصْر ، وعلى امرأة من شريفات العجم ، فغزاهم كسرى ، لكن العرب انتصروا أول الأمر انتصارا مبينا ، حتى قالوا إن جماجم الفرس وأجسادهم كانت كالتل العظيم ، ولم يستكن كسرى لهذه الهزيمة ، فبعث فى آثارهم مالك بن حارثة ومعه أربعة آلاف من الأساورة فبغَتَهم واقتتلوا قتالا شديدا حتى ظفر بهم وهزمهم ، واسترد منهم ما كانوا قد أصابوا من الأعاجم يوم الفُرات ، وكان لقيط بن يَعْمَر الإيادى(٣) قد حذر قومه إياد بعد نصرهم بقصيدة طويلة منها :

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٢٦٢ يزدهى : يستخف . غرف : المراد الغابات . الفارسى : الدرع . بصاحب . فحول المفرد مصعب . قطف : جمع قطوف أى بطيئة المشى المفرد قطوف .

(٢) الأصمعيات ١١٢ ، وجمهرة أشعار العرب ٢٢٥ بنو السوداء : أصحاب أخيه عبد الله الذى يرثيه . ظنوا : أيقنوا . الفارسى المسرد : الدرع المتينة النسج الضيقة الحلق .

(٣) كان كاتبا ومترجما عند كسرى . الأغانى ٢/١٠١ ، ومعجم ما استعجم ١/٧٥ .

ياقوم لا تأمنوا إن كنتم غيُـرا ... على نسائكمُ كسرى وما جمعا
هو القضاءُ الذى يجتثُّ أصلـكم ... فمن رأى مثل ذا يوما ومن سمعا؟
وقد بذلتُ لكم نصحى بلا دَخَلٍ ... فاستيقظوا إن خير العلم مانفعا(١)

وحذرهم مرة أخرى بقوله :

سـلامٌ فى الصحيفة من لَقِيطٍ ... على من بالجزيرة من إياد
فإن الليث آتيـكم دَليفـاً ... فـلا يَحْبسْـكم سَوْقُ النِّقـاد
أتاكم منهـمُ سـتون ألفـا ... يُزَجُّون الكتائب كالجراد(٢)

٢ — وتحارب العرب والفرس فى يوم الصَّفْقة (٣) ، وسببه فى رواية أن باذان عامل كسرى على اليمن أرسل إلى كسرى عِيراً تحمل ثيابا ومسكا وعنبرا ومناطق مُحَلَّاة ، وكان يخفرها بنو الجُعَيْد المراديون ، فلما كانت القافلة ببلاد بنى حنظلة بن يَرْبوع من تميم أغار عليها هؤلاء وغيرهم ، وقتلوا حماتها ومن معهم من الفرس ، واقتسموها ، وعلم الفرس الذين بهَجَر ، فساروا إلى بنى تميم ، وقاتلوهم قتالا شديدا انهزم فيه الفرس . فاستشاط كسرى ، فانتقم من العرب بضرب أعناقهم غيلة فى الحصن المسمى المشقَّر .

وفى رواية أخرى أن العير كانت تحمل رماحا أرسلها كسرى إلى اليمن ، وكان العرب يخفرون متاجره بالتناوب ، كل فى منطقته لقاء جُعْل . ولكن هَوْذَة بن على الحنفى تعهد بخفارة العير فى المناطق كلها

---

(١) الأغانى ٢٠/٢٣ .

(٢) المؤتلف والمختلف ١٧٥ ، والأغانى ٢٠/٢٥ النقاد : صغار الغنم او الغنم القصيرة الأرجل القبيحة الشكل ، أى لا يمنعكم حرصكم على غنمكم من الحذر .

(٣) الطبرى ٢/١٣٤ ، والأغانى ١٦/٧٥ ، والعقد الفريد ٣/١٥٤ .

على أن يأخذ وحده الجعل ، فغضب بنو سعد من تميم ، وهاجموا العير واقتسموها ، وقتلوا الأساورة ، وأسروا هَوْذة حتى افتدى نفسه . وفى هذا يقول شاعر بنى سعد :

ومنا رئيس القوم ليلة أدْلَجوا   بهَوْذَةَ مقرون اليدين إلى النَّحْرِ
وردنا به نخل اليمامة عانياً   عليه وثاق القِدِّ والحلق السُّمْرِ

ويقول المجدام التميمى :

وهن عَصَبْنَ هَوْذَةَ يوم حَجْرٍ   فظل ينازع المَسدَ المُغارا (١)

ثم سار هوذة إلى كسرى ، فأرسل معه جيشا ، ونزلوا المشَقَّر من أرض البحرين ، وبعث إلى العرب ليمتاروا مما معه ، وكان بنو سعد أكثر من جاء إليه ، فاحتال للثأر منهم بأن يدخلوا من باب المشقَّر رجلا رجلا ، وكلما دخل رجل ضُرب عنقه .

ثم كشف العرب الخديعة وثاروا ، فاضطر هوذة والأساورة إلى الحرب ، فتبعهم بنو سعد والرِّباب يقتلون من يلحقون به ، وقد افتخر كاشف الحيلة بقوله :

ألاهل أتى قومى على النأى أننى   حميتُ ذمارى يوم باب المشَقَّرِ
ضربت رِتاجَ الباب بالسيف ضربةً   تَفَرَّجَ منها كلُّ باب مُضَبَّر (٢)

وقد مدح الأعشى هوذة بن على الحنفى بقصيدة طويلة ، أشار فيها إلى مكرمة له يوم المشقَّر ، لأنه لما رأى ثورة القوم ، وأنهم قد نذروا به ، كلم قائد الفرس فى أن يعفو عن مئة من خيار بنى تميم ، فوهبهم له يوم الفصح ، فأعتقهم :

(١) معجم الشعراء ٤٧١ حجر : موضع الموقعة . المسد المغار : الحبال المتينة من ليف .
(٢) الطبرى ١٣٤/٢ مضبر : بمسامير متين .

بسابل تميما به أيام صفقتهم ... لما رآهم أسارى كلهم ضرعا
فقال للملك أطلق منهم مئة ... رِسْلاً من القول مخفوضا ومارفعا
فَفَكّ عن مئة منهمْ وثاقهم ... فأصبحوا كلهم من غُلّه خُلِعا
بهمْ تَقَرَّبَ يوم الفِصْح ضاحيةً ... يرجو الإله بما أسْدَى وماصنعا (١)

٣ ـ أما أكبر الوقائع بين العرب والفرس ، وأكثرها شهرة وتأثيرا في الأدب ، فهي موقعة ذي قار (٢) .

وذلك أن كسرى غضب على النعمان ، وحبسه بساباط أو بخانقين حتى مات ، وقيل إنه ألقاه تحت الفِيَلة فداسته ، انتقاما منه لقتل عَدِيّ بن زيد ، وقد سجل سلامة بن جَنْدل مافعله كسرى بالنعمان في قوله :

هو المدخِلُ النعمانَ بيتاً سماؤه ... صدورُ الفيول بعد بيت مُسَرْدَقِ
وبعد مصاب المزن كان يسوسُهُ ... ومالِ مَعَدٍّ بعد مال مُحَرِّق (٣)

حينئذ حنق كثير من العرب على كسرى ، وكان من مظاهر حنقهم أن جعلت بكر بن وائل تغير على السواد ، فوفد قيس بن مسعود بن قيس بن خالد على كسرى ، وسأله أن يجعل له أجرا على أن يضمن له

---

(١) ديوان الأعشى ١٠١ والطبرى ٢/١٣٤ . ضرع : ذليل . رسلا : لينا , ضاحية . ضحا .

(٢) الطبرى ٢/١٥٢ ، ومروج الذهب ١/١٣٤ ؛ والتنبيه والإشراف ٢٠٨ ، والأغانى ٢/٢٩ و ٢٩/١٣٢ — ١٤٠ وديوان الأعشى ٢٥٩ .

(٣) الأصمعيات ١٥٢ مسردق : مشدود أعلاه وأسفله . ومصاب المزن : إشارة إلى الأرض التى كان النعمان يحميها والمطر يصيبها . معد : المراد القبائل الشمالية التى كانت خاضعة له من نسل معد بن عدنان . محرق : يطلق على عمرو بن هند لأنه حرق مئة من بنى تميم ؛ وعلى الحارث بن عمرو ملك الشام لأنه أول من حرق العرب فى ديارهم ، فهم يدعون آل محرق ، وعلى امرئ القيس بن عمرو .

ألا تغير بكر على سواد العراق ، فأقطعه الأُبُلَّة وما والاها ، لكن البكريين أغاروا ، فغضب كسرى على بكر ، وسخط على قيس بن مسعود وحبسه ، وعبأ جيشا لقتال العرب ، فأنذر قيس قومه بقصيدة منها :

ألا ليتنى أرشو سلاحى وبَغْلتى   لمن يُخْبِرُ الأنباء بكرَ بنَ وائل (١)

واستدعى كسرى إياس بن قبيصة الطائى — عامله على عين التمر وما والاها إلى الحيرة — فأتاه بصنائعه من العرب الذين كانوا بالحيرة ، وبجيش من العرب فى ثلاثة آلاف ، ومن الفرس فى ألفين ، وجعل على الفرس قائدين هما الهامرز وخنابرين ، وبعث مع الجيش عِيرا فيها متاجر إلى اليمن ، وقال : إذا فرغتم من عدوكم فسيروا بالعير إلى اليمن.

بلغ الخبر هانىء بن قبيصة الشيبانى وقبيلة بكر ، فانتهوا إلى ذى قار ، ولما التقى الزحفان خطب هانىء فقال : « ياقوم مَهْلِكٌ مَقْدورٍ خيرٌ من نَجاء مَغْرور ، وإن الحذر لايدفع القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ، والطعن فى الثغر أكرم من الطعن فى الدُّبُر ، ياقوم جدوا فما من الموت بد » .

وتبارى العرب فى الإقدام وفى التحميس على الاستبسال ، وروى من تحميسهم كثير ، كقول عمرو بن جَبَلة اليشكرى :

ياقوم لا تغررْكمُ هذى الخِرَقْ   ولا وَمِيضُ البَيْض فى الشمس شرَق

من لم يقاتل منكم هذا العُنُــقْ   فجنِّبُوه الراحَ واسقوه المَرَقْ (٢)

---

(١) هذه رواية الأغانى ، ورواية معجم الشعراء ٣٢٥ (لأن تعلم الأنباء والعلم وائل) وهى بهذا لا إقواء فيها بالنسبة للقصيدة .

(٢) العنق : الجمع من الناس .

وقول حنظلة بن ثعلبة العِجْلى :

ياقوم طِيبُوا بالقتــال نفسا أجدر يوم أن تَغُلُّوا الفرْسا (١)

وقول يزيد بن المكَرِّ بن حنظلة بن ثعلبة بن سَيَّار :

من فرَّ منــكم فرّ عن حَـريمهْ وجـارِه وفــرَّ عن نديمــهْ
أنا ابن سَيَّـارٍ عَـلَى شـكيمه إن الشِّراك قُدَّ من أديمــه (٢)
وكلهم يَجْــرِى عَـلَى قديمه من قَارِح الهُجْنة أو صَميمه (٣)

وكانت النسوة يحرضن الرجال على الاستبسال ، ويلهبن بطولتهم بأناشيد حماسية ، كقولهن :

إن تَهْزِمــوا نُعَـانِقْ ونفْــرِش النَّمَـارِق (٤)
أو تَهْــرُبُوا نفــارق فراق غيرِ وامِقْ (٥)
عِرْسُ المولِّى طالق

واستمات العرب ، فقطعوا وُضُن رواحــل نسائهم ، حتى يَقتسروا أنفسهم على الثبات ، دفاعا عن الحرائر اللاتى لايستطعن الفرار على رواحل قد تقطعت أحزمة رحالها .

ثم انجلت المعركة عن هزيمة الفرس ، واقتفى البكريون آثارهم إلى السواد ، وغنموا ، وقسموا على نسائهم مافى العير من بَزٍّ وعطر وألطاف .

---

(١) تغلوا : تهزموا .

(٢) شكيمه : عهده وطبعه . الشراك : سير النعل . الأديم : الجلد ، يريد أنه صورة من أبيه .

(٣) قارح الهجنة : القارح الفرس المكتمل ، الهجين: أبوه خير من أمه والمراد بقارح الهجنة : العريق فى الخسة .

(٤) النمارق : جمع نمرقة وهى البساط .

(٥) وامق : محب .

ولقد أشاد الشعراء بقبائل بكر وشيبان وعجل بخاصة ، كقول الدهان ابن جنْدَل :

إن كنت ساقيـة يوما على كرم ... فاسقِى فوارس من ذُهْل بن شَيْبانا
واسقِ فوارس حامَوا عن ديارهـم ... واعْلِي مفـارقهم مِسْكا وريحانا

وكقول الأعشى (١) :

فدًى لبنى ذهل بن شيبان ناقتى ... وراكبهـا يوم اللقـاء وقَلَّت
هم ضربوا بالحِنْوِ حِنْوِ قُـرَاقِرٍ ... مُقَدِّمـة الهـامرز حتى تَوَلَّت
تناهت بنو الأحرار إذ صبرت لهم ... فوارس من شيبـان غُلْبٌ فولَّت
وَأَفْلَتَهُمْ قيـسٌ فقلت لعلـه ... يَبِلُّ لئن كانت به النعل(٢) زلَّت

كانت هذه الموقعة لتمام أربعين سنة من مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل كانت بعد الهجرة ، وقيل كانت بعد غزوة بدر بأشهر ، فهى حوالى سنة ٦١٠ م .

ولما علم الرسول بانتصار العرب قال : هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبى نُصروا .

وقد لاحظ الأستاذ أحمد أمين أن العرب لما انتصروا على الفرس فى موقعة ذى قار لم يتغنوا بنصرة العروبة عامة ، وإنما تغنوا بنصرة

---

(١) الأغانى ٢٩/٢ ،١٣٢/٢٠ ومروج الذهب ١٣٤/١ والتنبيه والإشراف ٢٠٨ .

(٢) راكبها : يريد نفسه . يوم اللقاء : يوم لقاء الفرس . حنو قراقر : حنو ذى قار : من المواضع التى كانت بها المعركة قرب الكوفة . الهامرز : أحد قواد الفرس فى ذلك اليوم ، وكانت شيبان على ميمنة بكر بإزاء كتيبة الهامرز . بنو الأحرار : الفرس . تناهت : كفت . غلب : جمع أغلب وهو الغليظ العنق ، ويوصف به الأسد . قيس : هو قيس بن مسعود . يبل : يذهب ويهلك . إن كانت به النعل زلت : إن كان أخطأ بمسيره مع جيوش كسرى . والظاهر أن كسرى شك فى أمره فطلبه فهرب منه .

القبائل التي اشتركت فى الحرب وهم الشَّيبانيون والعِجْليون واليشكريون ، فلم تتجل فى الغناء روح عربية عامة ؛ لأن العرب لم يكونوا يدركون أنهم أمة ، وإنما كانوا يعتمدون على الحياة القبلية (١) .

والحق أن الحياة القبلية كانت طاغية على شعور العرب بأنهم أمة ، لكن هذا لم يكن السبب الوحيد فى أنهم لم يتغنوا بانتصارهم على الفرس غناء يدل على الشعور بالقومية ، وذلك أن بعض القبائل العربية كانوا يحاربون إخوتهم العرب نصرة للفرس ، وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف كما يقول المؤرخون ، يتزعمهم إياس بن قبيصة الطائى ، وصنائع الفرس الذين كانوا بالحيرة وماحولها ، فكيف يتغنى الشعراء بروح عربية عامة ؟ لو أن العرب كلهم كانوا يحاربون الفرس لكان الفخر القبلى دليلا على فقدان الشعراء أن العرب أمة ، ولو أن الشعراء أشادوا بالعرب كلهم فى موقعة ذى قار لكانوا كاذبين على الواقع ، لأنهم يعلمون أن الجيش الذى حاربهم ثلاثة أخماسه من العرب ، وخمساه من الفرس .

(٣) أثر الفرس فى اللغة العربية

كان من الطبيعى بعد هذا الاتصال أن يستعمل العرب كلمات فارسية ، ورد بعضها فى الشعر ، ولعل أكثرهم ثراء بهذه الكلمات واستخداما لها فى شعره الأعشى ، لأنه كما قال عن نفسه :

وقد طفتُ للمال آفاقه عُمَانَ فحمص فأورِيشَلِم
أتيت النجاشيَّ فى أرضه وأرض النَّبيط وأرض العجم (٢)

---

(١) ضحى الإسلام ١/١٨ .
(٢) الديوان ٤١ .

وقال أيضاً :

قد سرت مابين بانِقْيا إلى عَدَنٍ وطال فى العُجْمْ تَرْحالى وتسيارى(١)

لهذا نجد فى شعره كلمات فارسية سواء أكان بعضها معروفا من قبله أم غير معروف ، منها هذه الأسماء الفارسية للأزهار وغيرها ، ذكرها فى وصفه لمجلس من مجلس الشراب واللهو :

ببابل لم تُعْصَر فجاءت سُلافةً تخالط قِنْدِيدا ومِسْكا مُخَتَّما
يطوف بها ساق علينا مُتَوَّمٌ خفيفٌ ذَفِيفٌ ما يزال مُقَدَّما
بكأسٍ وإبريقٍ كأن شرابه إذا صُبَّ فى المِصْحاة خالط بَقَّما
لنا جلَّسانٌ عندها وبَنَفْسَجٌ وسِيسَنْبَرٌ والمَرْزَجُوشُ مُنَمْنَما
وآسٌ وخِيرِىٌّ ومَرْوٌ وسَوْسَنٌ إذا كان هِنْزَمْنٌ ورحْتُ مُخَشَّما
وشاهَسْفِرمٌ والياسمينُ ونرجسٌ يُصَبِّحُنا فى كل دَجْنٍ تَغَيُّما
ومُسْتُقُ سينين وونٌ وبَرْبَطٌ يجاوبه صَنْجٌ إذا ماتَرَنَّما(٢)

ومنها كلمة سمسار الفارسية ، وردت فى شعر الأعشى بلفظها الفارسى فى قوله :

---

(١) الديوان ١٧٩ ومعجم البلدان ٢/٥١ .

(٢) الديوان ٢٩٣ . بابل : مدينة قديمة كانت تبعد عن بغداد نحو مئة كيلو ، ينسب العرب إليها الخمر والسحر . السلافة : ما سال قبل العصر وهى أجود الخمر . القند بفتح القاف والقنديد بكسرها : عسل قصب السكر فارسى معرب . مختم : مسدود بالطين ونحوه . متوم : مقرط بلؤلؤتين . ذفيف : مسرع . مقدم : يقدم الكئوس . المصحاة : قدح من فضة يشرب به . البقم : شجر كبير ورقه كورق اللوز وساقه أحمر يصطبغ بطبيخه . المرزجوش والجلسان والبنفسج والسيسنبر والآس والخيرى والياسمين والسوسن والمرو والشاهسفرم كلها أنواع من الورود والرياحين فارسية معربة . منمنم : مزخرف . الهنزمن : عيد من أعياد النصارى . مخشم : سكران شديد السكر . دجن : غيم ومطر . المستق والون والبربط أنواع من آلات الطرب ، كلها فارسية معربة . الصنج : دوائر من النحاس تثبت فى أطراف الأصابع ويضرب بها على نغمات الموسيقى معرب .

وأصبحت لا أستطيع الكلام سوى أن أراجع سمسارها (١)

وأصل الكلمة من السنسكريتية انتقلت إلى العرب عن طريق الفرس ، وقد نقل حديث عن قيس بن أبي غَرَزة الصحابي الغفارى قال فيه : كنا نسمىّ السماسرة ،فسمانا النبي صلى الله عليه وسلم بأحسن منه ، فقال يامعشر التجار (٢) ، على أن الكلمة عربت بكلمة سِفْسير (٣) ، قال النابغة :

وقارفَتْ وهى لم تَجْرَبْ وباع لها من الفصافص بالنُّمِّىِّ سِفْسِيرُ(٤)

وذكر ابن سلام أن الناس أصبحوا فرأوا على باب دار الندوة :

ألهى قريشاً عن المجد الأساطير ورشوةٌ مثل ماتُرشَى السَّفاسِير

فأنكروا ذلك ، وقالوا ماكتبها إلا ابن الزِّبَعْرَى (٥) .

ومن هذه الكلمات الفارسية البستان ، فارسى معرب ، قال الأعشى فى المدح :

يَهَبُ الْجِلَّةَ الجرَاجِرَ كالبستان تَحْنُو لدَرْدَقٍ أطفال (٦)

ومن هذه الكلمات الفارسية القَرَنْفُل والزَّنجبيل فى قول قيس بن الخطيم :

---

(١) الديوان ٣١٩ .

(٢) المعرب للجواليق ٢٠١ ، والإصابة ٥/٢٦٢ ومسند أحمد ٤/٦ ، ٢٨٠ .

(٣) اللسان والقاموس المحيط .

(٤) المعرب ١٨٥ قارفت : قاربت أن تجرب . باع لها : اشترى لها يعنى السمسار الفصافص : جمع فصفص بكسر الفاء وهو القت الرطب . النمى : فلوس كانت بالحيرة

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام ١٩٦، السفاسير : جمع سفسير .

(٦) المعرب ٥٢ واللسان ٥/٢٠٢ و١١/٣٨٥ الجلة : الضخام . الجراجر : جمع جرجور وهو البعير الكبير الصلب . كالبستان : المراد كالنخل : الدردق : الصغار من كل شىء .

كأن القَرَنْفُلَ والزَّنْجبيل وذاكى العبير بجلبابها (١)

والزَّنْبق فى قول امرئ القيس :

وفوق الحوايا غِزْلَةٌ وجآذر تَضَمَّخْنَ من مسك ذكى وزَنْبق(٢)

والأُقْحُوان فى قول طرفة :

بادنٌ تجلو إذا ماابتَسَمَتْ عن شَتيت كأقاحى الرمل غرّ (٣)

والأباريق فى قول عبيد بن الأبرص :

إذا ذقتَ فاها قلتَ طعمُ مُدامة مُشَعْشعةٍ ترْخِى الإزار قديح

بماء سحاب فى أباريق فضة لهـا ثمن فى البائعين ربيح (٤)

وفى قول عَدِى بن زيد :

فَدَعْوا بالصَّبوح يوما فجاءتْ قَينةٌ فى يمينهـا إبريق (٥)

وكذلك كلمة دَخْدار (ثوب أبيض بالفارسية معرب تخت دار)

جاءت فى قول عدى بن زيد :

أرقت لمكفهرٌ بات فيه بوارق يرتقِين رءوس شِيبِ

تلوح المشْرَفية فى ذراه ويجلو صفح دَخْدارٍ قشيب (٦)

والإستبرق غليظ الديباج فارسى معرب أو ضرب من الحرير

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم ٨٠ ولسان العرب ١٨/٣١٤ .

(٢) الديوان ٦١٧ غزلة : جماعة من الغزلان . جآذر جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية.

(٣) ديوان طرفة ٥١ .

(٤) ديوان عبيد ٢١ . مشعشعة : ممزوجة بغيرها . ترخى الإزار : تمد أسباب اللهو . قديح : مايبقى فى أسفل الدن ، أى أنها خمر مركزة ، أو قديح بمعنى مصبوبة فى القدح .

(٥) الأغانى ١/١٥٨ .

(٦) المعرب للجواليقى ١٤١ ، والأغانى ٢/٢٣ وفى ٢/٣٨ (ويجلو صفحة الذيل القشيب) المكفهر : السحاب المتراكم . الشيب : السحائب التى فيها سواد وبياض شبهها بالرءوس الشيب ، وقيل شيب جبل معروف شبه البرق فى السحب بلمعان السيوف .

أصله استفره أو استَرْوه (١) .

قال مالك بن نُوَيْرة :

ولا ثياب من الديباج تلبسها هى الجياد وما فى النفس من دَبَب (٢)

وقد اشتقوا من كلمة ديباج فقالوا : دَبَج المطر الأرض ودَبَّجها إذا زينها بالرياض ، وأصبحت الأرض مُدَبَّجة ، وطيلسان مدبَّج ، وهو الذى زينت أطرافه بالديباج ، وفلان يصون ديباجتيه أى خديه ، وللقصيدة ديباجة حسنة إذا كانت مُحَبَّرة (٣) .

والبَلاس : المِسْح ، وهو الكِساء من الشعر ، قال الراجز لامرأته :

إن لايكنْ شيخك ذا غِراس فهو عظيم الكيس والبَلاس

فى اللَّزبات مُطْعِم وكاسى (٤)

والإسوار بكسر الهمزة وضمها هو الرامى ، وقيل الفارس ، ويجمع على أساور وأساورة ، قال القُلاح :

ووتَّر الأساورُ القِياسا صُغْديَّةً تَنْتزع الأنفاسا (٥)

والإستار : الأربعة ، أصلها بالفارسية جهار ، فعربوه فقالوا إستار ، قال الأعشى :

تُوَفَّى ليوم وفى ليلة ثمانين نَحْسِبُ إسْتارها (٦)

---

(١) المعرب ١٥ .

(٢) المعرب ١٤٠ . الدبب : العيب .

(٣) أساس البلاغة مادة د ب ج .

(٤) المعرب ٤٦ وذكر ابن دريد فى الجمهرة ١/٢٨٨ أن العرب تكلمت به قديما . الزبات : جمع لزبة بسكون الزاى وهى الشدة .

(٥) اللسان مادة قوس والمعرب ٢١ . القياس : جمع قوس . الصغد : بلد أو جبل من العجم

(٦) المعرب ٤٢ ولسان العرب ٨/٦ توفى يعنى القارورة الكبيرة ، إذا شربوا بالصغير ثمانين يكون بالكبير أربعة ، كل عشرين واحد .

والتاج فارسية كانت فى البهلوية ثار ، قال عمرو بن كلثوم :

وسيد معشر قد توجوه بتاج الملك يحمي المُحجَرينا
تركنا الخيل عاكفة عليه مقلَّدةً أعنتَها صُفورنا (١)

والبُوصِيّ ضرب من السفن ، بالفارسية بوزى ، وقد تكلموا به قديما ، قال طرفة فى وصف عنق ناقته :

وأتلَعُ نَهَّاضٌ إذا صعَّدَتْ به كسكان بُوصِيٍّ بدَجلةَ مُصْعِدِ (٢)

وقال الأعشى :

مايَجْعل الجُدُّ الظَّنونُ الذى جُنِّب صَوْبَ اللَّجِبِ الماطر
مِثْلَ الفراتِيِّ إذا ماطمى يَقذفِ بالبُوصِيِّ والماهر(٣)

والأَرَنْدَج أصله بالفارسية رَنْده وهو جلد أسود ، قال الأعشى :

عليه دَيابوذٌ تَسَرْبَلَ تحته أَرَنْدج إسكافٍ يخالط عِظلِما (٤)

والبَرْبط من آلات الطرب ، أو هو العود ، معرب بَربَط أى صدر الإوز أو البط ، لأنه يشبهه ، قال الأعشى :

والنَّايَ نَرْم وبَرْبَطٍ ذى بُحَّة والصَّنجُ يبكى شَجْوَه أن يُوضَعا(٥)

والسنبك : طرف مقدم الحافر ، جاء فى حديث أبى هريرة :

(١) شرح المعلقات للزوزنى ١٣٢ .

(٢) المعرب ٥٤ واللسان ٢٧٤/٨ وشرح القصائد العشر ٧١ . أتلع : صفة لعنق ناقته ، أى أنه طويل ، نهاض : ينهض فى السير . السكان : الذى تقوم به السفينة . مصعد : سابح فى مقابلة التيار فهو يعالج الموج .

(٣) المعرب ٥٥ : الجد : البئر الجيدة الموضع . الظنون : القليلة الماء : التى لا يوثق بمائها . اللجب : الكثير الصوت . طمى : ارتفع . الماهر : السابح .

(٤) المعرب ١٦ ولسان العرب ١٠٨/٣ و ٢٤/٥ . الديابوذ ثوب ينسج على نيرين . العظلم : نوع من الشجر يختضب به .

(٥) المعرب ٧٢ والقاموس المحيط مادة بربط . الناى نرم والصنج من آلات الملاهى .

« تخرجكم الروم منها كفراً كفراً إلى سنبك(١) من الأرض » وقال العباس بن مرداس :

شهدن مع النبى مُسَوَّمات حُنَيْنا وهى دامية الحوامي
ووقعةَ خالدٍ شهدتْ وحكَّتْ سنابكها على البلد الحرام (٢)

والدِّرْياقة : الخمر ، قال حسان بن ثابت :

من خمر بَيْسانَ تَخَيَّرْتُها دِرْياقةً توشِكُ فَتْرَ العِظام(٣)

والطَّرْز والطِّراز النموذج ، قال حسان فى مدح بنى غسان :

بيض الوجوه كريمةٌ أحسابهم شُمُّ الأنوف من الطِّراز الأول(٤)

وتقول العرب : طَرْزُ فلانٍ طرزٌ حسن ، أى زيه وهيئته .

وقابوس اسم فارسى ، وكان النعمان بن المنذر قد سمى ابنا من أبنائه قابوس ، فكان يكنى أبا قابوس ، قال النابغة :

نبئتُ أن أبا قابوس أوعدنى ولا قَرارَ على زأر من الأسد (٥)

وقال أيضاً :

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والبلد الحرام (٦)

---

(١) المعرب ١٧٧ .
الكفر : الأرض البعيدة عن الناس ، والمراد القرية . سنبك من الأرض : شبه الأرض التى يخرجون إليها بسنبك الدابة فى الغلظ .

(٢) المعرب ١٧٨ .
مسومات : معلمات . وقعة خالد : المراد دخوله مكة يوم الفتح على الخيل ، أى أن الخيل وطئت أرض مكة .

(٣) المعرب ١٤٢ .

(٤) المعرب ٢٢٣ .

(٥) ديوان النابغة ٣٦ وشعراء النصرانية ٦٥٨ والمعرب ٢٥٩ .

(٦) المعرب ٢٥٩ وشرح الحماسة ١٨٥/٣ .
الكلمة بالفارسية كابوس وكاووس وكى كاوس ، ومعناها كلها الحسيب الشريف العادل

ودُخْتَنُوس كلمة فارسية معناها الجميلة اللطيفة أو بنت المناءة "،
وقد سَمَّى لقيط بن زُرارة التميمى بنته دختنوس ، وهى التى عناها
بقوله لمَّـا قتل :

يا ليت شعرى عنـك دُخْتَنُـوسْ إذا أتاها الخبـر المرمـوسْ
أتحلق القـرون أم تَمِيسْ لا بل تَمِيسُ إنها عروسُ (١)

قال الحارث بن الحلزة فى تذكير قبيلة بكر بما كان بينها وبين
قبيلته تغلب من معاهدة وكفلاء (٢) :

واذكروا حِلفَ ذى المجاز وما قُـدِّم فيـه العهـود والكفلاء
حَـذَرَ الجَـوْر والتعـدى ولـن يَنْقُضَ ما فى المهارق الأهواء (٣)



وبعـد :

فتلك طائفة من الكلمات الفارسية الكثيرة التى عربها العرب فى
العصر الجاهلى ، ثم ورد بعضها فى القرآن الكريم (٤) .

ولا شك أن ورود بعضها فى القرآن الكريم أعظم دليل على أن
العرب عرفوها وعربوها وألفوها قبل نزول القرآن ، فصارت من صميم
لغتهم .

على أن العرب فى نقلهم كلمات فارسية سلكوا عدة اتجاهات .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢١٣/١

(٢) جمع عمرو بن هند قبيلة بكر وتغلب وأصلح بينهما ، وأخذ من الحيين رهنا من كل حى
مئة غلام فكف بعضهم عن بعض (شرح القصائد العشر ٢٥١) .

(٣) شرح القصائد العشر ٢٦٩ ، والبيان والتبيين ٦/٣ المهارق : جمع مهرق وهو الصحيفة

(٤) الإتقان للسيوطى ١٣٥ – ١٤١ .

١ — نقلوا الكلمات على صورتها الفارسية كما نرى في بعض النصوص السابقة ، مثل مَرْزَجوس ، وسمسار ، وزنجبيل ومهرجان ودَيابوذ .

٢ — تصرفوا فيها بعض التصرف ، كما نرى في آذريون للدلالة على الورد الأحمر الورق أو الأصفر ، مع سواد الوسط فيه ، وأصلها الفارسي آذركون ، وكلمة نيروز معرب نوروز ، وإستار معرب جهار ، وتاج معرب تار ، وبُوصى معرب بُوزى ، وأرندج معرب رَنْدَه ، والوَنَج أصله وَنَهْ ، ومُشْتق صيني أصله مُشْتَه صيني .

٣ — تصرفوا في بعض الكلمات الفارسية نطقا ودلالة ، مثل بربَط أصله بالفارسية بَربَطْ أى صدر الإوز أو البط ، فدل العرب به على آلة الطرب التي تشبه العود لأنها مثل صدر البط

(٤) أثر الفرس في القصص والخيال

١ — عرف العرب بعض أخبار الفرس وقصصهم ، كقصة رستم وإسفنديار(١) ، وقد ذكر ابن هشام أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش ، وممن يؤذون النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان قد شخص إلى الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، وقصة رستم واسفنديار (٢) .

وذكر ابن أبي أُصَيْبعة أن النضر رحل إلى فارس وتعلم(٣) بها ،

(١) قصة فارسية قديمة ، أعادها الفردوسي في الشاهنامة ، تدور حول الحرب التي نشبت بين رستم بطل إيران القديم الذى كفل لها النصر على أعدائها أكثر من ثلاث مئة سنة وبين اسفنديار البطل الناشىء ، بطل دين وزادشت ، وقد دارت الحرب بينهما زمنا ، وأظهر اسفنديار بطولة تشبه بطولة رستم ، لكن المبارزة بينهما انتهت بمقتل اسفنديار .

(٢) سيرة ابن هشام ١/٣٢٠

(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١/١١٢ .

فكان الرسول إذا جلس مجلساً وذكّر فيه بالله ، وحذر قومه ماأصاب الطغاة من قبلهم خلفه النضر فى مجلسه إذا قام ، وقال يامعشر قريش أنا والله أحسن منه حديثا ، فهلم إلىّ ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس وعن رستم واسفنديار ، وهو الذى قال سأنزل مثل ماأنزل الله ، وفيه نزلت ثمانى آيات من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين (١) » وروى أنه اشترى كتب الفرس ليحدث منها ، وأنه المقصود بقوله تعالى : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين » (٢) .

٢ ـ وأثر اتصال العرب بالفرس فى خيال الشعراء ، فجاءوا بصور شتى من علاقتهم بالفرس .

فالمرقش الأكبر يشبه البقر الوحشى التى ترعى فى الأطلال متمهلة مطمئنة مختالة برجال من الفرس يمشون مختالين فى قلانسهم :

أمسَتْ خلاء بعد سكانها مقفرةً ما إن بها من أرَمْ
إلا من العِين تَرَعَّى بها كالفارسِيِّين مشوا فى الكُمَمْ (٣)

والخنساء تشبه أخاها صخراً بالرمح ، ثم تشبه اختياله فى مشيته بخيلاء قائد من قواد الفرس :

مثل الرُّدَيْنِىِّ لم تنفَدْ شبيبته كأنّه تحت طىِّ البُرْدِ أسْوار (٤)

(١) سورة القلم ١٥ وسيرة ابن هشام ١/٣٢٠ .
(٢) سورة لقمان ٦
(٣) المفضليات ٢/٤٩ . أرم : أحد . الكمم : القلانس .
(٤) ديوان الخنساء ٧٢ .

وقد ذكر شارح الديوان أنها شبهت أخاها بسوار من الذهب أو الفضة فى حسنه وضموره ، ولكنى أرى أن التشبيه بقائد الفرس أولى.

والمخبّل السّعْدى يشبه وجه حبيبته بالصحيفة ملامسة ولينا ، ويقول إنه ليس ضامرا ولا مكتنزا ، وهو كالدرة النادرة التى أضاء بها العجم صدر مجلس عزيزهم ، وقد اشتراها العزيز بثمن غال ، لأنها نادرة جهد الغواص فى العثور عليها ، إذ جاء بها من أعماق البحر الهائج المتماوج الواسع غواص دقيق العظام ، كأنه سهم فى سرعته ونحوله ، وقد دهن جسمه بالزيت ليقيه ملوحة البحر :

وتريك وجها كالصحيفة ، لا ظمـآنُ مختلَـجٌ ولا جهْم
كعَقيلة الـدُّر استضاء بهـا محرابَ عـرش عزيزها العُجُمُ
أغـلى بهـا ثمنـا وجاء بهـا شَخْتُ العظـام كأنه سَهْم
بلَبـانه زيْتٌ وأخـرجهـا من ذى غَوارِبَ وَسْطه اللّخْم(١)

والمثقّب العَبْدى يصف ناقته بعد إجهادها بأنها ضخمة الهيكل ، تشبه دكة البواب :

فأبقَى باطـلى والجِـدُّ منها كدُكّان الدَّرابِنة المَطين (٢)

وعلقمة بن عبدة شبه ناقته الصلبة الضامرة بغمد السيف الفارسى المحكم :

---

(١) المفضليات ١/٣ . مختلج . هزيل . جهم : كثير اللحم . أغلى بها ثمنا : اشتراها بثمن غال . شخت : دقيق . لبانه : صدره . غوارب : أمواج . اللخم : السمك الكبير .

(٢) المعرب ١٤٠ ، ولسان العرب ١١/١٨ ، والمفضليات ٢/٩٢ . باطلى : ركوبى فى طلب اللهو والغزل . جدها : اجتهادها فى السير . الدكان : الدكة المبينة للجلوس عليها . الدرابنة : جمع دربان وهو البواب مثلثة الدال . والدكان والدربان كلمتان فارسيتان معربتان . مطين : مطلى بالطين .

وقد أقطع الخَرْقَ المخوفَ به الردى   بِعَنْسٍ كجفن الفارسىِّ المسَرَّدِ(١)

وخفاف بن نُدْبة يصف المرقبة التى راقب منها أعداءه بالارتفاع الشاهق ، ويقول إن جوارح الطير تبيت فى أعاليها فتبدو كناصية فى بيت فارسى على مرتفع :

ومرقبة طيرتُ عنهـا حَمامها   نعامتُهـا منها بضـاح مُزَلَّق
تبيت عتاقُ الطير فى رَقَباتهـا   كطُرَّة بيت الفارسى المعَلَّق(٢)
ربأت . . .

وقد شبه الحارث بن حلِّزة آثار الديار بالمهارق ، وهى الورق الفارسى الذى كانوا يكتبون فيه :

لمـن الديار عفـون بالْحِبسِ   آياتُهـا كمهارق الفُـرْس (٣)

وكذلك شبهها البُعَيْث بن حُرَيْث الحنفى :

لمن طللٌ بروضـات السَّخالِ   تَأَبَّد كالمهاريق البوالى (٤)

وشبه أوس بن حَجَر ممدوحه فُضالة بالمرزبان — حاكم إقليم من فارس — فى قوله :

ليثٌ عليه من البَرْدِىّ هِبْرِيَةٌ   كالمرزُبانىِّ عَيَّالٌ بأَوْصـال (٥)

(١) شعراء النصرانية ٥٠٦ الخرق : الخرقاء وهى الأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح . عنس : ناقة صلبة : الجفن : غمد السيف . الفارسى : المراد السيف . المسرد : المحكم ضم الطرفين .

(٢) الأصمعيات ١٣ . المرقبة : موضع المراقبة . النعامة : كل بناء على الجبل كالظلة . الضاحى : البارز للشمس . المزلق : الأملس لا تثبت عليه قدم . عتاق الطير : جوارحها رقباتها : أعاليها . الطرة : الناصية . ربأت : صارت ربيئة وطليعة وعينا .

(٣) المفضليات ١/١٣٠ .

(٤) معجم البلدان ٤/٣١٧ . السخال : موضع .

(٥) البردى : نبات ذو هبرية وزغب . عيال : متبختر . الأوصال : أعضاء الجسم .

(٥) أثر الفرس فى الملاهى والترف

١ – يتردد ذكر القيان كثيرا فى الشعر الجاهلى ، وفيما بعده ، ولا نجد ذكرا فى الشعر الجاهلى لرجل يتغنى .

وأغلب الظن أن مرجع هذا إلى أن النساء أليق باحتراف الغناء من الرجال ، لأنهن فى الغالب أندى صوتاً ، وأحلى ترجيعا ، وأرق نغما ، ولأن أنوثتهن وجمالهن ورقتهن تضاعف الطرب لهن . لهذا رأى الجاحظ أن « الغناء المطرب فى الشعر الغزلى من حقوق النساء ، وإنما ينبغى أن تغنى بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتى فيهن نطقت تلك الأشعار ، وبهن شبب الرجال ، ومن أجلهن تكلفوا القول فى التشبيب . وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهى أن تقبله ، وبين فم تشتهى أن تصرف وجهك عنه .

على أن الرجال دخلاء على النساء فى الغناء ، كما رأينا رجالا ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح .

وبعد فأيما أحسن وأملح وأشهى : أن يغنيك فحل ملتف اللحية كثيف العارضين ، أو شيخ منخلع الأسنان معضن الوجه ؟ أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها ياسمينة ، أو كأنها خرطت من ياقوته أو من فضة مجلوة (١) ؟ » .

وإذا كان الجاحظ قد عقد موازنة بين الجارية الحسناء والرجل القبيح لينتهى إلى إيثار الجارية ، فإن النتيجة لاتختلف كثيرا إذا عقدنا مثل هذه الموازنة بين مغنية جميلة ومغن جميل :

---

(١) رسالة العشق والنساء للجاحظ ١٦٥ .

وشبيه بهذا ماحدث به ثمامة بن أشرس فى قوله : كنت عند المأمون يوماً ، فاستأذن المغنى عُمَيْر ليدخل ، فكرهت ذلك ، فقال المأمون : مابك ياثمامة ؟ قلت : ياأمير المؤمنين ، إذا غنى عمير ذكرت مواطن الإبل وكثبان الرمل ، وإذا غنتنا فلانة انبسط أملى ، وقوى جَلَدى ، وانشرح صدرى ، وذكرت الجنان والوالدين ، كم بين أن تغنيك غادة كأنها غصن بان ، ترنو بمقلة وسنان ، كأنما خُلقتْ من ياقوتة ، أو قُرطت من فضة ، وبين أن يغنيك رجل كث اللحية ، غليظ الأصابع ، خشن الكف ؟

فتبسم المأمون ، وقال : الفرق بينهما واضح ، ياغلام لاتأذن لعُمَيْر ، وأمر بأن تحضر أطيب قيناته (١) .

أما القينة فهى الأمة المغنية ، من التقين وهو التزين ، ومنه قيل للمرأة مقينة إذا كانت تزين النساء ، وقيل القينة هى الأمة مغنية أو غير مغنية ، والمغنية تسمى قينة إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر (٢) .

٢ — ولقد عرف العرب القيان منذ زمن بعيد ، وإن أخبارهن لتردد كثيرا فى الفترة الأخيرة من العصر الجاهلى .

وكان من الطبيعى أن يكن فى الحواضر أكثر منهن فى البوادى ، وأن يكن من أجناس شتى .

وحسبنا أن نسوق بضعة أمثلة للدلالة على ذلك .

فهن فى قصور الحيرة كثيرات العدد ، يدل على هذا أن بهرام

---

(١) زهر الآداب ٣/٢٧ .

(٢) اللسان مادة قين .

جور أرسله أبوه يزدجرد الأول (٣٩٩ – ٤٢٠م) الملقب بالأثيم ليعيش زمنا فى الحيرة عند ملكها النعمان الأعور (٤٠٣ – ٤٣١ م) وليتربى تربية عربية ، فاقترح على النعمان أن يكمل مسراته ، فيقسم له حظا من الجوارى والقيان ليكتمل له بهن طيب المقام ، فكانت أيامه بين لهو وطرب وصيد ولعب ، وأراد يوما أن يجمع لذات الصيد والسماع والشراب والعشق ؛ فامتطى ناقة كريمة ، وأردف جاريته آذازورا ومعها صنجها ، واصطحب دَنًّا من الخمر وكأسا من الذهب ، وخرج إلى الصيد (١) .

وجاء فى رواية أخرى أن الملك العربى كان المنذر بن النعمان (٢)، ولكن هذه الرواية لاتتفق مع سنوات حكم يزدجرد وسنوات حكم المنذر بن النعمان ، إذ أن المنذر حكم من سنة ٤١٢ إلى ٤٧٣م ، وكان يزدجرد قد توفى قبل ولاية المنذر .

ويقال إن الغَرِيَّين (٣) بناهما المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة على قينتين كانتا جاريتين له ، فماتتا ، فأمر بدفنها ، وبنى عليهما الغريين تكريما لهما (٤) .

وكن كذلك فى قصور الشام ، فإن حسان بن ثابت وصف مجلسا من مجالسه فى قصر جبلة بن الأيهم ، وجاء فى وصفه أنه رأى عشر قيان ، منهن خمس روميات يغنين بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة أهداهن إلى جبلة إياس بن قبيصة ، وهؤلاء سوى من

(١) الأغانى ٥/١٥٧ والطبرى ٢/٧٢

(٢) الطبرى ٢/٧٤

(٣) بناءان أسطوانيان بظاهر الحيرة .

(٤) نهاية الأرب ١/٣٨٧ .

كان يفد إلى جبلة من مكة وغيرها للغناء (١) .

ولم يكن عددهن قليلا بمكة ، فإن كثيرا من قريش وغيرها كان لهن قيان ملك أيمانهم ، فمثلا كان لعبد الله بن خَطَل قينتان هما فَرْتَنَى وصاحبتها (٢) ، وكان لعبد الله بن جُدْعان قينتان (٣) ، وكان لحمزة ابن عبد المطلب قينة تغنيه(٤) ، وكانت قريش قد اعتادت أن تغنيها قيانها فى الأعياد والمواسم ، ولهذا أبى أبو جهل أن يرجع ومن معه من النَّفير إلى مكة بعد أن أرسل إليهم أبو سفيان أن العير قد نجت — فى غزوة بدر — قبل أن تبلغ قريش بدرا ، فتقيم به ثلاثا ، تنحر الجزُر ، وتطعم الطعام ، وتسقى الخمر ، وتعزف عليها قيانها ، وتسمع العرب بقريش ، فتهابها أبد الدهر (٥) .

وعلى هذه الشاكلة كانت القيان فى يثرب — المدينة — يدل على هذا قول حسان بن ثابت فى وصف مجلس شراب عند صالح بن علاط :

رُبَّ لهو شهدتُه أمَّ عمرو ... بين بيضٍ نواعم فى الرِّياط
مع ندامَى بيض الوجوه كرام ... نُبِّهوا بعد خَفْقة الأشراط
وكُمَيْتٍ كأنها دم جَوف ... عُتِّقَتْ من سُلافة الأنباط
فأضواها فتى يُهين لها الما ... لَ ونَادمتُ صالح بن علاط
ظل حولى قيانُه عازفات ... مِثْلَ أُدْمٍ كوانسٍ وعَوَاطِ

(١) الأغانى ١٦/١٤
(٢) سيرة ابن هشام ٤/٥٢ تحقيق الأستاذ السقا وزميليه .
(٣) الأغانى ٨/٢
(٤) الفائق للزمخشرى ١/٦٥٠
(٥) سيرة ابن هشام ٢/٢٧٠

طفن بالكاس بين شرْب كرام ... مَهدوا حُر صالح الأنماط(١)

ويدل عليه أيضا أن أهل يثرب أرادوا أن ينبهوا النابغة الذبيانى على الإقواء فى قوله :

أمن آل مية رائحٌ أو مُغْتَدِ ... عَجْلانَ ذا زاد وغير مزود

زعم البوارح أن رحلتنا غدا ... وبذاك خبَّرَنا الغرابُ الأسودُ

وفى قوله :

سقط النصيف ولم تُرِدْ إسقاطه ... فتناولَتْهُ واتَّقتنا باليد

بمخضَّب رَخْصٍ كأنَّ بنانه ... عَنَمٌ يكاد من اللطافة يُعْقَدُ

فدعوا قينة وأوعزوا إليها أن تغنى بهذا الشعر ، فلما سمعها النابغة أدرك مافى قوله من إقواء ، فلم يعد إليه ، وقال قدمت الحجاز وفى شعرى ضَعة ، ورحلتُ عنه وأنا أشعر الناس (٢) .

فإذا ماعدونا شرقا إلى اليمامة وجدنا الإماء كثيرات ، وحسبنا أن بشر بن عمرو بن مِرْثَد وصف مجلسا من مجالس الخمر والغناء ، وجاء فى وصفه أن القينة كانت تجاوب قينة أخرى بغنائها :

وتَبيتُ داجنةٌ تجاوب مِثْلَها ... خَوْداً منعمةً وتضرب مُعْتِبا

فى إخوة جمعوا ندًى وسماحةً ... هُضُم إذا أَزْمُ الشتاء تَزَعَّبا (٣)

ولم تكن البوادى مقفرة من القيان ، فإن الشعراء البادين كثيرا ماتحدثوا عنهن ، وكثيرا ما وصفوهن ، فهذا لقيط بن زُرارة يقول فى يوم شِعْب جَبَلة ، وكان لقيط زعيم قومه الرِّباب فى ذلك اليوم :

(١) ديوان حسان بن ثابت ٤١

(٢) الموشح ٣٨ وطبقات الشعراء ٥٥ والأغانى ٩/١٥٧

(٣) المفضليات ٢/٧٦ داجنة : قينة . معتب : عود . هضم : ضامرون . تزعب : اتسع وكثر

إن النَّشيل والشِّواء والرُّغُف والقينةَ الحسناء والكأسَ الأنف
وصَفْوةَ القِدْر وتعجيلَ اللَّقَفْ للطاعنين الخيلَ والخيلُ قُطُف(١)

وهذا عبد يغوث بن وقَّاص الحارثى يقول فى أسره :

وقد كنت نحَّار الجزور ومعمِلَ الـ مَطىِّ وأمضى حيث لا حىَّ ماضيا
وأنحر للشَّرْب الكرام مطيّتى وأصْدَعُ بين القَيْنَتَيْن ردائيا(٢)

على أن بعض الشعراء كان لهم قيان يتغنين بشعرهم خاصة ، فكان لعبد الله بن جُدْعان قينتان(٣) ، ولبشر بن عمرو بن مِرْثَد قينتان (٤) ، ولسلامة بن جَنْدل قينة (٥) ، ولطرفة بن العبد قينة (٦) ، وكذلك لعمرو بن الإطنابة (٧) ، ولعَبَدة بن الطبيب (٨) ، ولعبد يغوث (٩) ، وكان لامرئ القيس قيان يغنينه فى رحلاته ولهوه (١٠) .

وكان كثير من الشعراء الحاضرين والبادين يعجبون بالقيان أيما إعجاب ، وكان بعضهم يَكْلَفُ بهن ويتعشقهن ، فكن ينبوع حب وغزل ووصف جميل . من هؤلاء الشعراء أُحَيْحة بن الجُلاح ، فهو يتغزل بقينته مُلَيْكة ، ويشتاق إليها فى قوله :

---

(١) الأغانى ١٠/٣٧
(٢) الأغانى ١٥/٧٢
(٣) أوائل الأوائل ٢١٩ مخطوط ورسالة القيان ٦٢ والأغانى ٨/٣
(٤) الأغانى ٨/٧٧
(٥) المفضليات ١/١١٨
(٦) ديوان طرفة ٢٨
(٧) الأغانى ٩/١٦٤
(٨) المفضليات ١/١٤٣
(٩) المقضليات ١/١٥٦
(١٠) الأغانى ٨/٦٥ والديوان ١٨٧

يشتاق قلبى إلى مُلَيْكة لو أمسَتْ قريبا ممن يطالبها

ما أحسن الجيدَ من مليكة واللبّات إذ زانها ترائبها

ياليتنى ليلةً إذا هجع النـ ـاسُ ونام الكلاب صاحِبُها

فى ليلة لا يُرَى بها أحدٌ يَسْعَى علينا إلا كواكبها

ومنهم طرفة بن العبد ، فقد عرض للذات الشباب ، وفصل القول فى وصف القينة ، فقال :

ندامای بيض كالنجوم وقينةٌ تروح علينا بين بُرْدٍ ومُجْسَدِ

رحيبٌ قِطابُ الجيب منها رفيقة بجَسِّ الندامَى بَضَّة المتجرَّد

إذا نحن قلنا أسمعينا انبرتْ لنا على رِسْلها مطروفةً لم تَشَدَّد

إذا رجَّعَتْ فى صوتها خلتَ صوتها تجاوب أظآرٍ على ربَع رَدى (١)

والأعشى يبدأ مطولته بذكر القينة هُرَيْرة فيقول :

وَدِّع هريرة إن الركب مُرْتحلٌ وهل تطيق وداعا أيها الرجل

غراء فرعاء مصقولٌ عوارضها تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوجل

ويقول فى غزله بالقينة قُتَيْلة :

ألمَّ خيال من قُتَيْلة بعدما وهَى حبلها من حبلنا فتصرَّما(٣)

وله فيهما شعر كثير ، وأخبار شتى .

ويقول عمرو بن الإطنابة :

إن فينا القيان يعزفن بالدف لفتياننا وعيشا رخيا

---

(١) ديوان طرفة ٢٩ مجسد : ثوب مصبوغ بالجساد وهو الزعفران . بضة : رخصة . مطروفة : حبيبة . أظآر : مرضعات . ربع ردى : وليد صغير ضعيف .

(٢) ديوان الأعشى القصيدة ٦

(٣) الديوان القصيدة ٥٥

يتبـارين فى النعيم ويصببـ ـن خـلال القرون مسكا ذكيا
إنمـا. همهـن أن يتحليـ ـن سُموطا وسُنبلا فارسيـا
من سُموط المرجان فصِّل بالـد ر فأحسنْ بحَلْيهن حليا (١)

٣ـ فهل كان فى هؤلاء القيان فارسيات ؟

نعم كان كثير منهن فارسيات ، إذ كان اتصال العرب بالفرس فى العصر الجاهلى أسرع وأوسع وأعمق من اتصالهم بغير الفرس ، وكانت الحيرة جسرا بين العرب والفرس تعبره ألوان من المعارف والثقافات ، وكان العرب يترددون كثيرا على فارس ، والفرس يترددون كثيرا على بلاد العرب ، وكان الفرس قد حكموا حكما مباشرا حينا وغير مباشر حينا أجزاء من جزيرة العرب ، كاليمن والبحرين ، وكانت الحيرة نفسها كثيرا ماتخضع للفرس وتستظل بسلطانهم .

وقد مر بنا وصف حَسَّان لمجلس فى قصر الأمير الغسانى جبلة ابن الأيهم ، وأنه سمع فيه خمس قيان يتغنين بغناء أهل الحيرة .

ونزيد على هذا أن النضر بن الحارث كان يحدث قريشا بقصص الفرس ، وكان يشترى القيان الفارسيات ، فإذا ظفر بأحد يريد الإسلام أخذه إلى قينته وقال لها : أطعميه واسقيه وغنيه ، فإذا مافعلت ذلك قال له : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من صلاة وصيام وقتال (٢)

وكان عبد الله بن جُدْعان قد أتى كسرى ملك آل ساسان ، وسمع عنده غناء الحسان ، وشدا جانبا مما سمع ، وكانت لعبد الله بن جدعان قيان يغنين له ولأصدقائه ولمن يقصد داره ، وكان يتاجر فيهن ، وله نخاس يتولى هذا ، وهو صاحب القينتين اللتين سماهما بجرادتى عاد ،

(١) الأغانى ٩/١٦٤ (٢) الكشاف . سورة لقمان

ووهبهما لأمية بن الصَّلت الثقفى (١) .

وإننا لنجد فى الشعر الجاهلى نصوصا كثيرة تدل على أن بعض القيان كن من الفرس ، مثل قول عمرو بن الإطنابة فى وصفهن :

إنمـا همهن أن يتحـلَّيْـ ـن سُموطـا وسُنْبلا فارسيـا
من سموط المرجان فُصِّـل بالد رِّ فأحسِنْ بَحْليهن حُليا (٢)

وقول عبد المسيح بن عَسَلة :

وسماع مُدْجنة تُعَلِّلنـا حتى نَثوب تنـاوُمَ العَجَـم

وقول الأعشى يصف مجلس شراب ولهو وغناء :

ومُسْتُق سِينينٍ وَوَنٌّ وَبَرْبَطٌ يجاوبه صَنجٌ إذا ماتَرنَّمـا (٣)

وكثيرا ماتغزل الأعشى بُهَريرة وقُتَيْلة ، وهما أو هريرة وخُلَيدة كانتا قينتين فارسيتين لبشْر بن عمرو بن مِرْثَد قدم بهما إلى اليمامة لمـا هرب من النعمان ملك الحيرة (٤) .

لكن الذى أستبعده احتراف النساء العربيات بالغناء فى العصر الجاهلى ، لأنهن مكفولات الرزق برجالهن أو بأعمال غير الغناء ، إذ أن الغناء كان يقتضى المرأة المغنية أن تتزين للسامعين ، وأن تكشف عن بعض مفاتنهـا ، وأن تكون مناط أنظارهم ومجمع أشتهائهم — كما تحدث الشعراء — ولايرضى رجـل عربى أن تكون كذلك امرأة تصلهـا به قرابة ، ولا ترتضى امرأة عربية لنفسها أن تبلو بهذه

(١) الأغانى ٢/٨ والمحبر ١٣٨ والأغانى ١٠/٩
(٢) الأغانى ١٦٤/٩ سموط : قلائد . سنبل فارسى : نوع من الحلى .
(٣) ديوان الأعشى ٢٩٣
(٤) الاغانى ٧٧/٨

الصورة ، ولا تجرؤ على أن تشذ عن بنات جنسها ، فتحتل هذا الموضع المخصص للإماء .

ولهذا أرجح أن القيان كن غير عربيات ، فارسيات وروميات وحبشيات .

وقد ذهب إلى ذلك المستشرق ليّال ، فقال إن القيان كن فارسيات أو يونانيات من سورية ، وإنهن كن يغنين بالعربية ، وربما غنين بلهجة أجنبية (١) ، وهو فى هذا يتفق مع فون كريمر ، وإن ذهب فون كريمر إلى أنهن كن يغنين بلسانهن اليونانى (٢) أو الفارسى .

أما الأدلة على غناء بعضهن بالشعر العربى فكثيرة سبق بعضها ، ومنها قول عبدة بن الطبيب :

ثم اصطبَحْتُ كُمَيْتًا قَرْقَفًا أُنُفًا	من طَيِّب الراح ، واللذاتُ تعليلُ
صِرْفا مِزاجا ، وأحيانا يعلّلنـا	شِعْرٌ كمُـذْهَبَة السَّمان محمول
تَذْرِى حواشيه جَيْـداء آنسـةٌ	فى صوتهـا لسَماع الشَّرْب تَرْتيل
تغـدو علينـا تُلهِّينـا ونَصْفِدُها	تُلْقَى البرودُ عليها والسَّرابيل(٣)

كذلك كان بالمدينة قينة أوحى إليها أهل المدينة أن تغنى النابغة بقصيدة من شعره فيها إقواء فتيقظ له وأصلحه (٤) .

---

(١) الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية ٥٤

(٢) Farmer. A. History of Arabian Must. p. 17.

(٣) المفضليات ١ - ١٤٣ كيت : خمر فى لونها سواد وحمرة . قرقف : تصيب شاربها برعدة . أنف : لم يشرب منها أحد قبله . صرفا مزاجا : خالصة وكأنها ممزوجة بالمـاء لطيبها . يعللنا : يلهينا . السمان : وشى أو أصباغ . محمول : مروى ذائع لحسنه . تذرى : ترفع أو تسقط جواشى غنائها تطريباً وترجيعا . حواشيه : أطرافه . آنسة : منبسطة متحدثة . نصفدها تغطيها .

(٤) الأغانى ١٥٨/١٩

والأمثلة على غنائهن بالشعر العربى كثيرة جدا (١) .

على أنه لاعجب فى أن يتغنى بعضهن بغير اللغة العربية ، فيطرب سامعوهن ، لأنهم يطربون للصوت واللحن ويعجبون بالجمال ، فقد روى أن أبا تمام سمع بخراسان غناء بالفارسية ، فلم يدر ماهو ، غير أنه أشجاه ، فقال :

حمدتك ليلةً شرُفَتْ وطابَتْ ... أقام سُهادُها ومضى كرَاها
سمعتُ بها غناء كان أولى ... بأن يقتاد نفسى من عَناها
ومُسْمِعةٍ يحار السمع فيها ... ولم تُصْمِمْه لا يُصْمَمْ صَداها
مَرَتْ أوتارها فشجَتْ وشاقت ... فلو يَسْطيع سامعها فداها
ولم أفهم معانيها ولكن ... وَرَتْ كبدى فلم أجهل شجاها
فكنت كأننى أعْمَى مُعَنًّى ... يُحبُّ الغانيات ولا يراها(٢)

ويظهر أن عدد القيان والإماء الفارسيات كان كثيراً ، وأن العرب استولدوا بعضهن ، لأن على بن محمد المدائنى ألف كتاباً ذكر فيه أسماء الذين تزوجوا فارسيات سماه (كتاب فيمن تزوج مجوسية (٣)) وأرجح أن ذلك الزواج كان قبل الإسلام ، لأن الإسلام لايحل زواج المجوسية ، إذ أن المجوس يؤمنون بنبوة زرادشت ، ويكذبون سائر الأنبياء (٤) .

٤ ــ هذا الغناء كان يقتضى الموسيقى ، ولقد يعزز أن بعض القيان

---

(١) الأغانى ٨/٧٨ و٨/٣ و ١٠/٧ و١٦/١٤ وإنسان العيون ٣/٣٨ والطبرى ٣/١١٩ والإصابة ٨/١٦٦ و ٨/٤ والعقد الفريد ٤/٢٣١ .
(٢) الأغانى ٨/٦٥ والديوان .
(٣) معجم الأدباء ١٤/١٣٣
(٤) المفصل ١/١١٣

كن فارسيات أننا نحد فى الشعر العربى القديم أسماء فارسية لآلات الطرب والموسيقى .

من ذلك الطُّنبور كلمة فارسية معناها إلية الحمل (١) .

والبَرْبط هو العود ، فارسى معرب ، معناه صدر البط أو الإوز (٢) لأنه يشبهه .

والوَنَج هو المعزف أو المزهر أو العود ، وقيل نوع من الصنج فارسى معرب ، أصله وَنَهْ ، ونطقه العرب الونُّ (٣) .

ومُسْتُق صينى آلة يضرب عليها ، ذكر الضبى أن الكلمة فارسية أصلها ومُشْتَه صينى أى يؤخذ باليدين (٤) . وفى القاموس مُشْتُقة بضم التاء وفتحها آلة يضرب بها الصنج ونحوه معرى (٥) .

وبحسبنا أن نسوق من شعر الأعشى مايدل على معرفتهم بعض هذه الالات الفارسية قال الأعشى :

ويَرْبطنا داعماً مُعْمَلٌ   فأىُّ الثلاثة أُزْرَى بها ؟
ترى الصَّنجَ يبكى له شَجْوَه   مخافة أن سوف يُدْعى (٦) بها

وقال :

ومُسْتُقٌ صينى ووَنٌّ وبربطٌ   يجاوبه صَنْجٌ إذا ماترنما(٧)

(١) لسان العرب والقاموس المحيط مادة طنبور وفر هنك نفيس Steingass
(٢) اللسان والقاموس مادة بربط .
(٣) اللسان والقاموس مادة ونج .
(٤) الملاهى للضى ٢١ مخطوط .
(٥) مادة ستوق .
(٦) الديوان ١٧٣ والمعانى الكبير لأبن قتيبة ٤٦٨/١ واللسان مادة صنج .
(٧) الملاهى للضبى ٢١ مخطوط .

أما الدف والكران والعود والمزهر فعربية الأصل ، نقلها الفرس عن العرب فيما بعد (١) .

وقد بقيت هذه الآلات إلى العصر الأموى ، وعزفت القيان عليها مثل سيرين وسلمى وجميلة ورائقة وعزة المَيْلاء (٢) .

٥ — على أن الذى يتتبع أخبار ملوك الحيرة يجدهم يحاكون ملوك فارس فى كثير من ضروب الأُبهة ومظاهر الترف .

فقد حجبوا أنفسهم عن الشعراء بأستار كما كان يفعل ملوك الفرس ، نستدل على هذا من أن الحارث بن حِلِّزة أنشد عمرو بن هند قصيدته التى مطلعها :

آذنَتنا ببَيْنِها أسْماءُ   رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثواء

وكان ينشده من وراء سبعة ستور ، فأمر الملك برفع الستور ، استحسانا لما سمع ، وأدنى الشاعر وقربه (٣) .

٦ — وإذًا فقد كان العرب على صلة بالغناء الفارسى والرومى والحبشى منذ الجاهلية ، وليس أدل على ذلك من ذكر الشعراء ، لأسماء الآلات الموسيقية الأجنبية قبل أن يبزغ الإسلام ، ومن أن الغناء الفارسى والرومى كان معروفا لهم فى الشام كما سمعه حسان بن ثابت ، لهذا رجحت أن بعض القيان كن فارسيات .

على أن التاريخ يحدثنا بأن الحارث بن كَلَدة قد تعلم العزف على

---

(١) المعاجم العربيه و Steingass

(٢) الأغانى ١٦/٢

(٣) العمدة ١/٢١ والشعر والشعراء ٥٣

العود بفارس واليمن ، ثم قدم مكة وعلم أهلها(١) ، ثم سافر ابنه النضر إلى فارس كما سافر أبوه ، وتعلم هناك أشياء جليلة القدر (٢).

فمن حقنا إذًا أن نصحح ماذكره أبو الفرج ، أو نذهب فى فهمه مذهبا آخر ، ذلك أنه ذكر أن ابن مُحْرِز الفارسى الأصل شخص إلى فارس وإلى الشام ، وتعلم الألحان ، وألف منها الأغانى التى صنعها فى أشعار العرب ، وهو الذى ابتكر غناء الرَّمَل ، وكان العرب والفرس لايعرفونه قبله ، لأن ابن سَلْمَك أول من غنى رملا بالفارسية أيام الرشيد محاكيا لأستاذه ابن مُحْرِز (٣) .

ثم ذكر أن سعيد بن مِسْجح المكى الأسود أول من نقل غناء الفرس إلى العرب ، لأنه تعلم هناك الغناء والضرب ، وتعلم بالشام ألحان الروم ، ثم قدم الحجاز فعلم الناس محاسن تلك النغم (٤) .

وذكر فى رواية ثالثة أنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام فسمع غناءهم بالفارسية ، فقلبه فى شعر عربى ، وهو الذى علم ابن سُرَيْج والغريض(٥) .

وذكر فى رواية رابعة : أنه سمع بنائين من الفرس يغنون وهم يبنون دوراً لمعاوية ، فأخذ ألحانهم ونقلها إلى الشعر العربى ثم صاغ على نحوها (٦) .

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ١/١٠٩ وأخبار الحكماء ١١١
(٢) عيون الأنباء ١/١١٣
(٣) الأغانى ١/١٤٥
(٤) الأغانى ٣/١٨
(٥) الأغانى ٣/٨١
(٦) الأغانى ٣/٨٤

وهذه الروايات وإن اختلفت فى ظروف نقل ابن مسجح للغناء الفارسى تتفق على أنه أول من نقله إلى الغناء العربى .

ويذهب فى موضع آخر إلى أن سائب خاثر الفارسى الأصل أول من صنع مثل الغناء الفارسى فى العربية ، وأنه أستاذ ابن سُرَيج وجميلة ومعبد وعزة الميلاء وغيرهم (١) .

ثم يقفو بعض المؤرخين للحضارة الإسلامية أبا الفرج ، فيذهب خدا بخش إلى أن الموسيقى الفارسية دخلت بلاد العرب فى الإسلام مع أسرى الفرس الذين وفدوا إلى مكة أفواجا ، وعلموا العرب الغناء على نغمات الدف والناى والعود والطنبور (٢) .

لكننا نلاحظ أن روايات أبى الفرج لاتلتقى على شخص معين يصح أن ينسب إليه السبق فى إدخال الغناء الفارسى أو الرومى إلى العرب ، فهو مرة ابن مسْجَح ، ومرة ابن مُحْرِز ، وثالثة سائب خاثر ، ورابعة نُشَيْط ، وخامسة طُوَيْس (٣) .

ولست أنكر أثر الغناء الفارسى أو الرومى فى العربى ، وإنما أذهب إلى أن هؤلاء الذين ذكرهم أبو الفرج كان لهم الفضل فى تجديده ورلده بالغناء الأجنبى ، ولم يكن أى واحد منهم هو السابق ، لأن العرب — كما سبق — عرفوا الغناء الفارسى ، وعرفوا الغناء الرومى من قبل ، وأطربتهم به قيانهم ، ورددوا فى لغتهم وشعرهم أسماء آلات موسيقية وروميه وحبشية قبل أن يوجد واحد من هؤلاء المغنين .

---

(١) الأغانى ٧/١٧٩

(٢) مقدمة خدا بخش لكتاب الحضارة الإسلامية لفون كريمر ٢٥ .

(٣) الأغانى ٤/٣٨

٧ـ كانت الخمر المعتقة ترد إلى العرب من جهات شتى ، ومن أهمها بابل ، لهذا نسبوا الخمر إليها ، قال لبيد فى غزله :

كأنّ الشمول خالطَتْ فى كلامها جَنيًّا من الرُّمان لَدْنا وذابلا
للذيذًا ومَنْقُوفًا بصافِ مُخيلة من الناصع المختوم من خمربابلا (١)

وكانت تأتيهم من عانة ، قال زهير :

كأنّ ريقتها بعد الكرى اغْتَبَقَتْ من خمر عانَة لما يَعْدُ أن عَتقا(٢)

ونسبها مالك بن جريم (حريم) الهمدانى إلى فارس :

كأن جنا الكافور والمسك خالصاً وَبَرْدَ الندى والأقحوان المنّزعا
وَقَلْتاً قَرَتْ فيه السحابةُ ماءهـا بأنيابها والفارسِىّ المشعشعا (٣)

وكانت ترد من بَيْسان ، ذكر قيس بن عاصم التميمى أن تاجر الخمر كان يجيء بها من بَيْسان فيبيع له ، ومايزال الخمار فى جواره يبيع له حتى يستهلك ماله :

وتاجرٍ فاجر جاء الإلهُ به كأن عُثْنُونه أذناب أجْمال
جاء الخبيث بِبَيْسانية تركَتْ صَحْبى وأهلى بلا عَقل ولا مال (٤)

ونسبها الأعشى إلى الفرس فى قوله :

وطِلاءٌ خُسْرُوانىٌّ إذا ذاقه الشيخ تغنّى وارجحنّ (٥)

(١) ديوان لبيد ٢٦ الشمول : الخمر أو الباردة منها . منقوف : ممزوج مصفى . مخيلة : سحابة ممطرة .

(٢) اللسان ١٧/١٧٥ عانة : بلد على الفرات تنسب إليه الخمر العانية . اغتبقت : شربت الخمر بالعشى .

(٣) الأصمعيات ٥٨ الجنا : كل مايجنى . الأقحوان : نبت له نور أبيض . المنزع : المنزوع . القلت : النقرة فى الجبل تمسك المـاء . قرت : جمعت : الفارسى : المنسوب إلى فارس والمراد الخمر . المشعشعة : الممزوجة بالماء . بأنيابها : خبر كأن

(٤) الأغانى ١٢/١٤٥ والأشربة ٥٨ مخطوط ، والعقد الفريد ٣/٣١٣ . العثنون : اللحية

(٥) الديوان ٣٥٩ . طلاء: خمر. خسروانى : نسبة إلى خسروشاه . ارجحن : اهتز وتمايل .

ولهم فنون من الإبداع فى وصف الخمر ومجالسها ونداماها وسقاتها وأثرها فى النفس ، يهمنا منه قول الأسود بن يَعْفُر النَّهْشلى إن الخمر كان يسعى بها غلام مُقرَّط مُنَطَّق ، وإنهم كانوا يشترونها بدراهم فارسية :

ولقد لهوتُ — وللشباب لذاذةٌ   بسُلافةٍ مُزِجَتْ بماء غَوَادِى
من خمر ذى نَطَفٍ أغَنَّ مُنَطَّق   وافى بها لدراهم الإسجاد
يَسْعَى بها ذو تُومَتَيْن مُشَمِّرٌ   قَنأَتْ أنامله من الفِرْصاد (١)

٨ — وكان ملوك الحيرة ينافسون أكاسرة الفرس فى الترف ومظاهر النعمة والعظمة ، فقصورهم مؤثثة بأثمن الأثاث ، وحدائقها مستورة بأعز الأزهار ، وقواربهم الأنيقة الساطعة الأنوار تشق الفرات ليلا ، حاملة أغنى الأمراء وأمهر الموسيقيين ، لهذا أطلق العرب لأنفسهم عنان الخيال ، فقصوا علينا أنباء القصور الساحرة العجيبة التى أضحت أجمل مساكن الشرق وأطيبها (٢) .

وكان القصر الملكى فى الحيرة ينطق بالثراء والرفاهية ، كما كما يبدو فى مدائح الشعراء .

وقد بقى القصران العظيمان الخَوَرْنق والسَّدِير يستعملان بعض الاستعمال ، وكانت بقايا الخورنق مأوى الراحلين للصيد إلى أوائل

---

(١) المفضليات ١٨/٢ الغوادى : السحب الناشئة غدوة . نطف : جمع نطفة بفتحتين وهى القرط. منطق : غلام عليه نطاق . الإسجاد : السجود . ودراهم الإسجاد هى دراهم الأكاسرة كانت عليها صور يسجدون لها . تومتين . لؤلؤتين . قنأت : اشتدت حمرتها حتى مالت إلى السواد . الفرصاد : التوت .

(٢) حضارة العرب ١١٦ جوستاف لوبون .

العصر العباسى (١) .

ونسب العرب إلى الفرس أنواعاً من الملابس ووسائل التجمل والزينة ، كقول عمرو بن الإطنابة فى وصف قيانهم :

إنما همهن أن يتحليْـ ـن سموطا وسُنْبُلا فارسيا (٢)

وقول أبى دواد الإيادى :

لمن الظعن بالضحا واردات جدول الماء ثم رحن عشيه
مظهرات رَقْما تُهال له العَيْـ ـنُ وعَقْلا وعَقْمة فارسيه (٣)

وقوله أيضاً :

ويَصنَّ الوجوه فى الميسَنانى كما صان قَرْنَ شمس غمام (٤)

---

(١) مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ٢٨٤ أوليرى .

(٢) الأغانى ٩/١٦٤

(٣) معجم البلدان ٤/١٥٠ الرقم : ضرب من الخز أو من الوشى مخطط . العقل : ثوب أحمر يجلل به الهودج أو ضرب من الوشى . العقمة . بفتح العين وكسرها المرط الأحمر أو كل ثوب أحمر .

(٤) الأصمعيات ٢١٤ الميسنانى : نوع من الثياب منسوب على غير قياس إلى ميسان وهى كورة بين واسط والبصرة .

الفصل الثالث

أثر العرب في الفرس

ليس من الطبيعي أن تجتمع عوامل اتصال العرب بالفرس أحقاباً طوالا ، فيتأثر العرب بالفرس هذا التأثر الذى أسبقته ، ثم لا يتأثر الفرس بالعرب .

لكن مظاهر تأثير عرب الجاهلية فى الفرس لا يستطاع توضيحها ؛ لأن أدب الفرس قبل أن يسلموا مجهول ، وأدبهم بعد هو المدوّن المدروس .

لهذا يبدو عظيما تأثير العرب وآثار الاسلام فى لغة الفرس وآدابهم وثقافتهم ، كما سيتضح فى فصل خاص .

على أننا نجد أثارة تدلنا على أن العرب قبل الإسلام كان لهم فى الفرس بعض التأثير .

(١)

ذلك أننا نقرأ فى بعض كتب التاريخ العربية ما يدل على إعجاب الفرس بعرب الحيرة ، إذ يروون أن يزدجرد الأول (٣٩٩ – ٤٢٠ م) الملقب بالأثيم دفع ابنه بَهْرام جُور إلى النعمان الأعور(٤٠٣ – ٤٣١ م) ليربيه تربية عربية ، ويذكرون أن النعمان بنى الخَوَرْنَق مسكناً لبهرام ،

وأنه كان يخرج إلى البادية (١) . وفى رواية أخرى أن الذى تعهد تربية بهرام هو المنذر بن النعمان (٢) ، لكن هذه الرواية لا تتمشى مع سنوات حكم المنذر (٤٣١ — ٤٧٣ م) وحكم يزدجرد ؛ إذ كان قد توفى قبل ولاية المنذر .

ويزيد بعضهم الأمر تفصيلا ، فيذكر أن بهرام رضع من امرأتين عربيتين وامرأة فارسية ، وتعلم على أساتذة من الفرس والروم ومن العرب ، ويقولون إنه أجاد اللغة العربيـة ، وقرض الشعر العربى والفارسى (٣) . ثم يرتبون على هذه العلاقة الوثيقة نتيجتين تلائمانها :

أولاهما أن بهرام جور استعان بالعرب على أن يخلف أباه على عرشه فأعانوه ، إذ كان كثير من أشراف الفرس تعاقدوا — بعد وفاة يزدجرد — على ألّا يملّكوا أحداً من أشراف ذرية يزدجرد ، لسوء سيرته ، وقالوا إنه لم يخلّفْ ولداً غير بهرام ، وإن بهرام لم يتول ولاية يختبر بها ، ولم يتأدب بأدب العجم ، وإنما أدبه العرب فصار أشبه بهم فى أخلاقه ، واتفقوا على صرف الملك عنه إلى آخر (٤) .

ثانيتهما أن خصوم بهرام خشوا — بعد انتصاره عليهم ، وبعد توليه الملك — أن ينكل بهم ، فتوسطوا بالعرب ، ليتجاوز عن مساءتهم إليه ، فاستجاب بهرام ، وعفا عنهم (٥) .

ولقد يعزز ماذكره مؤرخو العرب ، ويدفع الشك عنه ، ما ذكره محمد عُوفى وشمس الدين محمد الرازى .

---

(١) الطبرى ٢/٧٢

(٢) الطبرى ٢/٧٤

(٣) مروج الذهب ١/١٢٦ والتنبيه والإشراف ٨٨

(٤) الطبرى ٢/٧٤ (٥) الطبرى ٢/٨٧

أما محمد عَوفى فقد ذكر فى (لباب الألباب) وهو أول كتاب فى تاريخ الأدب الفارسى أن بهرام جُور أول من أنشأ شعراً بالفارسية ، وأنه تعلّم الشعر من العرب ؛ إذ نشأ بينهم ، وعرف دقائق لغتهم ، وكان له شعر عربى بليغ .

ويضيف عوفى إلى ذلك أنه رأى ديوانه فى خزانة كتب فى بخارى ، وأنه قرأه ونقل بعضه ، وكانت به أبيات نظمها حينما رجع من الحيرة إلى فارس ، واستقر على سرير الملك بتأييد من العرب (١) .

وأما شمس الدين الرازى فيذكر فى كتابه (المُعْجَم فى معايير أشعار العجم) أن بهرام جور تربى فى الحيرة ، وتأدب بآداب العرب ، ويقول إن حماد بن أبى ليلى — الراوية — روى عن أهل الحيرة قطعاً من الشعر العربى لبهرام ، ثم يروى بيت بهرام الذى يزعم أن أول شعر فارسى ، ويقول : ورأيت فى بعض كتب الفرس أن علماء عصر بهرام لم ينكروا شيئاً من أخلاقه وأحواله إلّا قول الشعر ، فلما بلغت إليه نوبة الملك ، واستقر له الأمر ، وتقدم إليه الحكيم آذرباد ونصحه قائلا : أيها الملك اعلم أن قول الشعر من كبار معايب الملوك ، ودنىّ عاداتهم ؛ لأن أساسه على الكذب والزور ، وبناءه على المبالغة الفاحشة والغلو المفرط ، ولذلك أعرض عن الشعر العظماء من علماء الدين ، وذموه وعدّوا مهاجاة الشعراء من أسباب هلاك الممالك السالفة والأُمم الماضية ، فارعوى بهرام ، ولم يقل شعراً بعدُ ، ولا سمعه ، ونهى عنه أولاده وأقاربه (٢) .

---

(١) الأدب الفارسى الإسلامى للدكتور عبد الوهاب عزام . من قصة الأدب فى العالم ١/٤٤٨

(٢) المرجع السابق ١/٤٥٠

(٢)

وكان مؤرخو الفرس قد دوّنوا تاريخ العرب ، ثم استقى منه كثير ممن أرخوا للعرب ، فالطبرى مثلا يقول : « وكان أمر آل نصر بن ربيعة ومن كان من ولاة ملوك الفرس وعمالهم على ثغر العرب الذين هم ببادية العراق عند أهل الحيرة منبعاً لما كان مثبتاً عندهم فى كنائسهم وأشعارهم . وقد حُدِّثْتُ عن هشام بن محمد الكلبى أنه قال : إنى كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ، ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى ، وتاريخ سنيهم ، من بيع الحيرة ، وفيها ملكهم وأمورهم كلها (١) .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/٣٧

الباب الثانى

فى الإسلام

الفصل الأول

عوامل الاتصال

ما كادت أشعة الإسلام تنير جزيرة العرب حتى تخطتها إلى ما حولها ، فتعددت عوامل اتصال العرب بالفرس ، كما تعددت أسباب اتصالهم بغير الفرس .

وإذا كان العرب قد اتصلوا بالفرس قبل الإسلام وتأثروا بهم أكثر مما أثّروا فيهم ، فإن الصلات المتبادلة كانت فى الإسلام أكثر أسباباً ، وأعظم آثاراً ، وأبقى دلائل ومظاهر ، لأنها كانت فى العصر الجاهلى فردية وشبه فردية ، وكانت عاجلة وسطحية ، وكانت من جانب العرب وحدهم فى الأعم الأغلب ، أما فى الإسلام فإن الاتصال كان من العرب ومن الفرس معاً ، وكان الخلاط جماعياً لا فردياً ، وعميقاً لا سطحياً ، وثابتاً طويل الأجل لا عابراً ولا قصير الزمن ، وقد كان منبع هذا كله فتح العرب بلاد الفرس .

(١) فى مشرق النبوة

على أن الاتصال قد بدأ منذ عهد النبى عليه الصلاة والسلام ، فسلمان الصحابى الجليل كان فارسياً من مدينة بناحية أصبهان ، وكان

أبوه دِهْقان المدينة (١) ، وكان سلمان مجوسياً يوقد النار ، ثم ارتحل إلى المدينة وأسلم ، وآخى رسول الله بينه وبين أبي الدَّرْداء عُوَيْمر بن ثَعْلَبة الخزرجي ، وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق بعد أن ساعده النبي والمسلمون على التحرر من الرق ، ثم لم يفته مشهد بعد (٢) .

ويقال إنه أشار على رسول الله بحفر الخندق حول المدينة لما هجم عليها الأحزاب ، وإن المهاجرين قالوا يوم الخندق : سلمان منا ، وإن الأنصار قالوا : سلمان منا ، فقال رسول الله : سلمان منا أهلَ البيت(٣)

وكان سلمان عالما زاهداً روى عنه أنس وكعب بن عُجْرَة وعبدالله بن عباس وأبو سعيد وغيرهم من الصحابة ، وروى عنه من التابعين أبو عثمان ، وفي أخباره أنه تزوج امرأة من كِنْدة ، وأنه كان يتصدق بعطائه ، وينسج الخوص ، ويأكل من عمل يده (٤) .

وفي السنة السادسة من الهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً إلى كسرى بن هرمز ملك فارس مع عبد الله بن حُذافة بن قيس السَّهْمي يدعوه فيه إلى الإسلام هذا نصه :

« من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس .

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاء الله ،

---

(١) الدهقان : الشيخ العارف بالفلاحة .

(٢) سيرة ابن هشام ١/٢٢٨

(٣) السيرة ٣/٣٣٥

(٤) الإصابة ٣/١١٤

إني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأُنذر من كان حيا ، ويحقَّ القول على الكافرين .

فأَسْلِمْ تَسْلَمْ ، فإن إثم المجوس عليك » .

فلما قرأ كسرى الكتاب مزقه ، وقال : أيكتب إليّ هذا وهو عبدى؟

فلما علم رسول الله قال : مزق الله ملكه .

ثم كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين جَلْدَيْن ، وأرسله إليّ .

فبعث باذان رجلين من الفرس ، وكتب معهما إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، فلما قدما على رسول الله وأعلماه بما يريدان ، وهدداه إن لم يستجب ، قال لهما إن الله قد سلط على كسرى ابنه — شيرويه — فقتله ليلة كذا من شهر كذا (١) ، فعادا إلى باذان فأخبراه ، فقال : ماهذا بكلام ملك ، وإنى لأرى الرجل نبيا كما يقول ، فلننتظر ، فلم يلبث أن قدم عليه كتاب شيرويه يخبره أنه قتل أباه غضباً للفرس ، ويأمره ألا يعرض بسوء للرجل الذى كان كسرى قد طلبه من الحجاز ، فأيقن باذان أن محمداً رسول الله حقاً ، وأسلم ، وأسلم الفرس الذين باليمن (٢) .

(٢) فتح فارس

ضعف الفرس قبيل الفتح :

[تفاقمت عوامل الضعف فى فارس حتى استعصت على الإصلاح منذ أواخر القرن الخامس الميلادى .

---

(١) قال الواقدى إنه قتله ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع .

(٢) تاريخ الطبرى ٣/٩٠ وسيرة ابن هشام ١/٦٤

فقد كان الشعب ينوء بالانقسام الدينى ، بين زرادشتية هى الدين الرسمى للدولة ، رجالها يضطهدون الديانات الأُخرى ، ومانَوِية تدعو إلى الكسل والزهد والرهبنة وترك الزواج ، ليفنى العالم المادى ، ويعود النور إلى موطنه الأصيل ، ومَزْدكية تحض على الشيوع فى الأموال والنساء ، ونصرانية يصطرع مذهباها النّسطورى واليعقوبى ، على حين أن الحكومة الفارسية تضطهد النساطرة واليعاقبة فى كل حرب تنشب بينها وبين الإمبراطورية البيزنطية ، وكان هناك يهود وصابئة يقاسون ألواناً من الاضطهاد والتنكيل .

وكانت الحكومة قد أنهكتها الحروب المتوالية مع جيرانها وبخاصة الإمبراطورية البيزنطية فى الغرب ، والقبائل التركية فى الشرق ، وهذه الحروب اقتضت ضرائب باهظة أثقلت الشعب .

ولم يستطع الشعب أن يعبِّر عن سخطه فى جو الحكم المطلق ، فنظام الملك وراثى قائم على أن كسرى يملك بتفويض من الله ، والأكاسرة منقطعون — أو شبه منقطعين — عن الرعية ، والشعب يدين بأن ملوكه مختارون من الله ليتولوا سياسته ، ولهم على الناس السمع والطاعة ، وليس عليهم حق لأحد من الناس .

يقول نولدكه : « إن الملوك الفرس كانوا يزعمون أنهم وحدهم أصحاب الحق فى لبس التاج ، بما يجرى فى عروقهم من دم إلهى » .

ويقول بَرُون : « إن نظرية الحق الإلهى لم تعتنق كما اعتُنِقَت فى فارس فى عهد الملوك الساسانية » ويوافقهما فى هذا الوصف دُوزى ومِلّر وغيرهما (١) .

---

(١) راجع أدب السياسة فى العصر الأموى للمؤلف ٣٤ .

وكان من نتائج ضعف الفرس أن انتصرت بعض القبائل العربية على جيشهم فى موقعة ذى قار حوالى ٦١٠م ، كما قدمنا فى علاقة العرب بالفرس فى الجاهلية ، وأن تعاقب على العرش الفارسى اثناعشر ملكا من رجال ونساء وصبيان وغاصبين للملْك ، فى عشر السنوات التى سبقت الفتح الإسلامى .

لكن العرب مازلوا يظنون بالفرس القوة التى عهدوها وسمعوا بها ، فلما آن لهم أن يفتحوا بلادهم تهيبوا ؛ إذ جعل عمر بن الخطاب يندبهم فلا ينتدب أحد إلى فارس ، « وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم ، وأثقلها عليهم ، لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأُمم » (١) .

ثم استجابوا لعمر ومضوا إلى بلاد الفرس سراعاً .

سـير الفتح

لما فرغ خالد بن الوليد من إخماد ثورة المرتدين وجهه أبو بكر ومعه المثَنَّى بن حارثة إلى العراق ، فأخضع القبائل العربية بجنوبى الفرات ، ثم استولى على الحيرة والأنبار سنة ١٢ﻫ . وكتب خالد إلى أهل فارس يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية ، فصمّموا على الحرب .

ثم توجّه خالد إلى الشام ، فحدثت بين العرب والفرس وقائع انتصر المسلمون فى بعضها ، وانهزموا فى موقعة الجسر سنة ١٣ ﻫ ، ثم انتصروا فى يوم البُوَيْب .

ولما دهم الفرس مادهمهم ، اجتمع عظماؤهم وأصلحوا مابين رستم ومنافسه الفَيْرُزان ، وأجمعوا على تولية يزدجرد الثالث ، وتبارى المرازبة فى طاعته ، وأعدوا العدة لطرد المسلمين من العراق .

(١) الطبرى ٤/٦١

حينئذ همّ عمر أن يشخص إليهم بنفسه ، واستشار أصحابه فأشاروا عليه بأن يقيم ويبعث إليهم الصحابة واحداً بعد آخر ، ويمدّه بالجنود ، فقبل مشورتهم ، واختار سعد بن أبي وَقّاص ، ومده بجيش بلغ نحو ثمانية آلاف ، والتقى الجيشان فى القادسية (١) ، فانتصر المسلمون على الفرس بعد جهاد وجلاد ومصابرة . وقتل رستم سنة١٦هـ (٦٣٧ م) وبعد ذلك فتح المسلمون المدائن عاصمة الفرس ، وهزموا الفرس مرة أخرى عند جَلُولاء ، فصار العراق ملكاً لهم .

ثم انساحوا فى بلاد الفرس . وهزموهم فى موقعة نَهَاوَند ، سنة ٢١ هـ وقد عرفت هذه الموقعة بفتح الفتوح ؛ لأنها الموقعة الفاصلة التى كفلت للمسلمين الاستيلاء على فارس . وما زال المسلمون يطاردون يزدجرد الثالث ، ويستولون على بلاده حتى اضطر إلى الفرار ، إلى أن قتل سنة ٣١ هـ فى عهد عثمان بن عفان ، وبموته انقرضت دولة آل ساسان .

كان من نتائج هذا الفتح أن انفسح المجال لتيارات اتصال الشعبين ، فصارت الخيوط التى كانت تصلهما فى الجاهلية طرقا فسيحة ممهدة ، وصارت العلائق الفردية روابط جَماعيّة ، وأصبحت الصلات الموقوتة عُرى دائمة .

آثار الفتح

حسبنا أن نذكر من نتائجه ونتائج الاتصال عدة مظاهر :

١ ــ مدن جديدة :

أسس العرب بين جزيرتهم وبلاد الفرس مدينتى البصرة والكوفة ،

(١) موضع على حافة البادية بالقرب من الكوفة .

ثم أسسوا فيما بعد مدينة بغداد (١) على نهر دجلة بالقرب من فارس ، وسرعان ما امتلأت هذه المدن وغيرها بمهاجرى العرب من يمنيّة ونزارية ، وشَرِقَتْ بالوافدين عليها من الفرس ، وسرعان ماازدهرت هذه المدن ، وصارت من مراكز الثقافة العربية والإسلامية .

كذلك انتشر الفرس فى بلاد الجزيرة وما حولها ، واندمجوا بالعرب واستعربوا .

٢ — إقبال الفرس على الاسلام :

أقبل كثير من الفرس على اعتناق الإسلام أحراراً مختارين ، فى غير ما إجبار ، أو اضطرار ؛ لأن المظالم التى اصطلوا بنيرانها قبل الإسلام حببت إليهم أن يقبلوا سراعاً على اعتناقه فكفل لهم المسلمون حريتهم الدينيّة ، وعاملوا أتباع الزرادشتية معاملة أهل الكتاب ، فقبلوا منهم أن يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية .

٣ — إقبالهم على اللغة العربية :

وإذْ كانت اللغة العربية لغة الدين الذى آمن به كثير منهم ، ولغة الفاتحين الذين يتصلون بهم ، تسابق كثير منهم إلى تعلمها ، وسرعان ما أجادها بعضهم ، وكانوا قدوة لمن بعدهم ، حتّى صار كثير من مشهورى الشعراء والكتاب والعلماء باللغة والدين من أبناء الفرس .

٤ — خضوعهم للحكم العربى :

اتسعت دائرة الخلافة الإسلامية ، وكثرت خيراتها ، إذ ضم

---

(١) أتخذ العباسيون الكوفة عاصمة لهم سنة ١٣٢هـ . وكانوا يقيمون أحياناً بالهاشمية شمالى الكوفة ، وأحيانا بالأنبار ، فلما أنشأ المنصور بغداد سنة ١٤٩ وجعلها العاصمة بدأت الكوفة تفقد مركزها السياسى ، لكنها بقيت مدة طويلة مركزا الثقافة . وكانت البصرة مملوءة بالأعاجم من فرس وهنود ويونان ، يعملون فى التجارة والملاحة ، وهذا هو السبب فى أنها كانت المنبع الأول للاحتكاك الدينى فى العقائد ، حيث نشأت الفرق الدينية كالمعتزلة للرد على أصحاب الملل القديمة الذين تهجموا على الإسلام .

المسلمون مملكة كبيرة كثيرة الخيرات إلى حوزتهم ، وملكوا كنوز الفرس ، وما أعظمها ، فصار هذا الثراء من روافد الترف الذى سنتحدث عنه .

٥ — التمازج :

جعل الخلاط يقوى شيئاً فشيئا منذ الفتح إلى آخر العصر الأموى ، فلما قامت الدولة العباسية — وكان للفرس ضلع فى إقامتها — توثقت الصلات بالمخالطة والمجاورة والمعاشرة والمصاهرة ، فكثر من أبناء العرب من أمه فارسية ، ومن أبناء الفرس من أمه عربية .

وزاحم الفرس العربَ فى الوزارة والحجابة وقيادة الجيوش وجباية الأموال وولاية الأقاليم ومنادمة الخلفاء ، ثم غلبوهم عليها .

وكان من ثمرات هذا كله أن تأثر العرب بالفرس فى كثير من أساليب الحكم ومظاهر الحياة ، حتى إن خلفاء بنى العباس كانوا حراصاً على معرفة تاريخ الفرس وأخبار ملوكهم ، وكان بعضهم يصطحب معه من يقصّ عليه تاريخهم ، كما كان السفاح يصطحب أبا بكر الهذلى ويستمع إليه ، وكما طلب المنصور — حينما هم بقتل أبى مسلم ، وتردد بين الاستبداد برأيه والمشاورة فيه ، فأرق ليلته — من إسحاق بن مسلم العُقيْلى أن يحدثه حديث الملك الفارسى سابور الأكبر الذى قتل وزيره (١) .

٦ — مؤازرة الفرس العباسيين :

لما هبّ محمد بن عبد الله بن العباس يدعو لآل العباس ، ويقوض دعائم الملك الأموى اتخذ خراسان مجالا لبث دعوته ، وكان اختياره موفقاً ، لأن أكثر من بالشام والعراق وجزيرة العرب كان هواهم أمويًّا ،

(١) البيان والتبيين ٣/٢٩٨

ولأن فى خراسان — كما قال محمد العباسى — « العدد الكثير والجَلَدَ الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تتقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النِّحَلَ ، ولم يقدم عليها الفساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحىً وشوارب وأصوات هائلة ... وإنى أتفاءل إلى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخَلْق » .

ولما وجّه إبراهيم بن محمد أبا مسلم إلى خراسان سنة ١٢٨ هـ قال له : « يا عبدَ الرحمن إنك رجل منا أهلَ البيت ، فاحفظ وصيتى ، وانظر هذا الحىَّ من اليمن فأكرمهم ، فإن الله لايتم هذا الأمر إلاّ بهم . وانظر هذا الحىَّ من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم ، وانظر هذا الحىَّ من مُضَر فإنهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت فى أمره شبهة ، ومن وقع فى نفسك منه شىء ، وإن استطعت ألاّ تدع فى خراسان لساناً عربياً فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله (١) » .

ومعنى هذا أنه يعتمد على الفرس وعلى من بها من العرب اليمنية ، وينظر إلى العرب الآخرين هناك نظرته إلى العدو ، ويودّ أن يقضى عليهم ليبلغ ما يريد .

ثم إن الفرس كانوا حانقين على العرب عامة ، وعلى بنى أمية خاصة .

وليس من المستبعد أن يكون ذوو الرأى من أبناء الفرس قد تطلعوا فى أواخر الدولة الأموية إلى إقامة دولة جديدة تقرِّبهم وترفع من أقدارهم ، « فقد كان الفرس يتخذون التشيع لعلىّ وآل بيته لوناً سياسياً ، إذ كانوا

(١) الطبرى ٩/٧٦

قد وثقوا بأنه من المستحيل أن يسترد الفرس فى ذلك الوقت استقلالهم السياسى وحريتهم الدينية على نحو ما كانت عليه قبل الإسلام . فلم يكن بدٌّ من أن يصلوا إلى السلطان من طريق الإسلام ، ومن طريق السياسة الحزبية الإسلامية ، فنصروا الضعيف المضطهد من هذه الأحزاب وهو حزب العلويين ، وكان هذا الحزب ضعيفاً أيام عثمان ، مضطهداً أقبح الاضطهاد أيام بنى أمية ، فأيده الفرس وناصروه حتى وصلوا به إلى السلطان ، ولكنهم لم يصلوا بالعلويين إلى السلطان ؛ لأن ظروفا سياسية خاصة دعت إلى أن يستأثر بنو العباس بالحكم دون بنى على ، فلان الفرس ومرنوا وآزروا بنى العباس ، ليصلوا معهم إلى السلطان ، وتشدّد منهم فى مذهبهم العلوى قوم لقوا فى سبيل هذا المذهب مناياهم ، ومن هؤلاء أبو مسلم ، ومنهم البرامكة أيضًا (١) » .

ولم يكن ذلك الأمل الذى راود الموالى بخاف على ساسة العرب ، فهذا نصر بن سيَّار — والى خراسان فى عهد هشام الثانى — يدعو العرب إلى الوحدة ، ويهيب بالنزاريين واليمانيين أن يتآخوا ، ليتقوا الهلاك الذى يبيته العجم لهم ، ويوبخهم على غفلتهم عن أولئك الأعداء :

أبلغْ ربيعةَ فى مَرْوٍ وإخْوَتَهم   فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضبَ
وليَنْصِبوا للحرب إن القومَ قدنَصَبوا   حربا يُحَرِّق فى حافاتها الحطب
ما بالكم تَلقحون الحرب بينكم   كأن أهل الحِجاعن رأيكم عُزُب(٢)
وتتركون عدوا قد أظَلَّكُم   ممَّنْ تأشَّب ، لادينٌ ولا حَسَب(٣)

---

(١) حديث الأربعاء الدكتور طه حسين ٢/٢٢٧ .

(٢) تلقحون : المراد تكثرون وتولدون . الحجا : العقل . عزب : جمع أعزب وهو البعيد جداً .

(٣) تأشب : تجمع .

قوما يدينون دينا ماسمعتَ به ... عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهمُ ... فإن دينهمُ أن تَهْلِك العرب

ويظهر أن نذير الخطر نبه العرب المتعادين إلى أن يتحدوا ليدفعوا الهلاك النازل بهم ، فقد توادعت قبائل العرب من ربيعة ومضر واليمن على التعاضد وقتال أبى مسلم الخراسانى ، لكن أبا مسلم وأعوانه فوتوا عليهم هذه الوحدة ، وأشعلوا نار الفتنة من جديد (١) .

والعجب أن كان فى أعوان أبى مسلم اليمنيون والرَّبَعِيُّون ، وأن كان فى النقباء كثير من العرب كقَحْطَبَة الطائي ، وقد رويت له خطبة فى أهل خراسان يحمسهم فيها على الثورة ، ويذكرهم بعظمتهم السابقة ، ويحقِّر من شأن العرب ، كقوله : « هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين . وكانوا يُنْصرون على عدوهم ، لعدلهم وحسن سيرتهم ، حتى بَدَّلوا وظلموا ، فسخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانهم ، وسلَّط عليهم أذل أمة كانت فى الأرض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم ... ثم بدّلوا وغيروا وأخافوا أهل البر والتقوى من عِتْرَة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلطكم الله عليهم ، لينتقم منهم بكم ، ليكونوا أشد عقوبة ، لأنكم طلبتموهم بالثأر (٢) » .

ولما كانت زعامة الشيعة قد آلت إلى محمد بن على بن عبد الله ابن العباس . نشط إلى ترويج الدعوة السرية ، إذ عيَّن للشيعة نقباء ودعاة ، وأوصاهم ببث الدعوة سرًا ، وبالتظاهر بها لآل البيت عامة من غير تعيين لفرد .

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/١١٩ ، ٣/١٤١
(٢) الطبرى ٩/٩٨ — ١٠٦

وكان للدعوة مركزان : أحدهما الكوفة ، وهى ملأى بالموالى من الفرس ، وملأى بالشيعة ، وكانت عاصمة الخلافة زمن علىّ ، والآخر خراسان ، وهى ساخطة على بنى أمية كما تقدم .

وقد جاب الدعاة البلاد منذ أوائل القرن الثانى ، يمارسون التجارة فى الظاهر ، ويبثون الدعوة فى السر ، وظلوا كذلك نحو سبعة وعشرين عاماً .

وكان ولاة بنى أمية فى خراسان يطاردونهم وينكلون بهم ؛ حتى إن أسد بن عبد الله القَسْرى أمير خراسان كان إذا ظفر بأحدهم قطع يديه ورجليه ، وصلبه ، لكنهم مضوا فى دعوتهم على الرغم مما ينصَبُّ عليهم من حتوف .

وكان البيت المروانى قد أصيب بالتفكك والضعف ، وجعل كثير من الأمراء وولاة العهود يكيد بعضهم لبعض ، وكانت الفتن والثورات تتفاقم ، حتى إن عهد آخر بنى أمية — وهو مروان بن محمد — زلزلته ثورات الولاة عليه فى أنحاء الدولة ، وزلزلته دعوة الشيعة فى كل مكان، وهزته ثورة بقايا الخوارج بزعامة الضحاك الشَّيْبانى .

وبذل مروان جهودًا فى إخماد هذه الثورات ، فانتصر على كثير منها ، لكنه شغل عما كان يحدث فى خراسان ، فاتسع المجال هناك للشيعة ، واستطاع دعاتها بزعامة أبى مسلم الخراسانى أن ينتزعوها من بنى أمية ، مستندين إلى العصبية القومية والحزبية الشيعية ، ومنتهزين الشقاق بين القبائل العربية ومؤازرة اليمنية لهم ، ثم اتجهوا إلى العراق ، واستولوا عليه ، وأعلنوا الدعوة لبنى العباس ، وبويع أبو العباس عبد الله الملقب بالسفاح سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩ م) بالكوفة ، ثم انتصر

على مروان بن محمد فى العام نفسه ، فهرب مروان إلى مصر ، فتعقبه صالح بن على ، وقتله فى قرية بوصير آخر سنة ١٣٢ هـ . وبقتله تقوضت الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية .

إشادة العباسيين بهم :

لم يَغْمِطْ بنو العباس فضل الفرس فى قيام دولتهم ، بل جاهروا به مرات . قال داود بن على فى خطبته يوم بويع السفاح بالخلافة : « يا أهل الكوفة ، إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأَفْلَجَ بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ماكنتم تنتظرون ، وإليه تتشوّقون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم ، وبيَّض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل اليكم السلطان وعز الإسلام .. إن لكل أهل بيت مِصْرًا ، وإنكم مِصْرُنَا (١) » .

وخطب أبو جعفر المنصور فى أهل خراسان فقال : « ياأهل خراسان ، أنتم شِيعتُنا وأنصارنا وأهل دولتنا » ، وبعد أن عدد مالاقى العلويون وبنو هاشم من اضطهاد قال : « حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا ، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهلَ خراسان ، ودفع بحقكم أهل الباطل ، وأظهر حقنا ، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، فَقَرَّ الحقّ مَقَرَّه ، وأظهر مناره ، وأعزّ أنصاره ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين » .

ولم ينس أن يوصى ابنه وهو شاخص إلى الحج سنة ١٥٨ هـ بأهل خراسان فى قوله : « وأوصيك بأهل خراسان خيرا ؛ فإنهم أنصارك وشيعتك ، الذين بذلوا أموالهم فى دولتك ودماءهم دونك ، ومَنْ لاتخرج

(١) تاريخ الطبرى ٩/١٢٧ أفلج حجتنا : وضحها وقواها

محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم في أهله وولده (١) » .

فإذا ذهبنا نستشهد بأقوال المؤرخين وجدنا كثيراً من نوع هذا الاعتراف ، فالمسعودى يذكر أنهم كانوا يسمون باب خراسان في بغداد باب الدولة ، لأن الدولة العباسية أقبلت من خراسان (٢) .

والجاحظ يقول : دولة بني العباس أعجمية خراسانية ، ودولة بني مروان عربية أعرابية .

٧ — مؤازرتهم للمأمون على الأمين :

ثم ناصروا المأمون على أخيه الأمين .

ذلك أن الرشيد قد عهد بولاية العهد إلى أبنائه الثلاثة معاً : الأمين والمأمون والقاسم ، ثم قسم البلاد بينهم ، فجعل الشرق للمأمون — خراسان والرى إلى همذان — وجعل الغرب للأمين — المغرب ومصر والشام — وجعل للقاسم الذى سماه المؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم .

وهو بذلك ألقى بأسهم بينهم ، وغرس شجرة الشر بيده ، فتحقق ما قاله الشاعر (٣) :

رأى الملكُ المهذبُ شرَّ رأيٍ　　لقسمته الخلافةَ والبلادا
فقد غَرسَ العداوةَ غير آل　　وأورث شَملَ أُلْفتهم بَدادا (٤)
وألقحَ بينهم حربا عَوانًا　　وسلّس لاجتنابهم القيادا

(١) الطبرى ٣١٩/٩ .
(٢) مروج الذهب ١٨١/٢ .
(٣) الطبرى ٧٣/١٠
(٤) البداد بفتح الباء المبارزة والمراد هنا الفلوة .

فوزرُ بلاهم أبدا عليه أغَيًّا كان ذلك أم رشادا

لكن الأمين أراد أن ينحى أخاه المأمون فعزز المأمون مركزه بخراسان ، وقرب إليه الأشراف ورؤساء العشائر ، فسرَّ به أهل خراسان وعاضدوه وناصروه وقالوا : ابن أختنا — إذ كانت أمه فارسية الأصل — وابن عم نبيِّنا.

وتواترت كتبه إلى أخيه محمد الأمين بالتعظيم والهدايا ، لكن البطانة أشعلت جذوة الحقد بين الأخوين ، فأعلن الأمين خلع أخيه ، فكان ردّ المأمون أن أعلن نفسه خليفة ، وقامت الحرب بينهما ، وانتهت بانتصار المأمون وقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ .

يرى موير أن انتصار المأمون على الأمين يماثل انتصار العباسيين على الأمويين ، لأن كليهما انتصار للفرس على العرب .

ثم ازداد نفوذهم فى عهد المأمون إذ كانوا أعوانه على الأمين ، وكان يجهر بإيثارهم ، فقد تعرض رجل له بالشام مراراً فقال له : يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان ، فقال : « أكثرت علىَّ يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلاَّ وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد . وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السُّفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارياً ، اعْزُبْ فعل الله بك (١) » !! .

ثم لم يلبث الترك أن سيطروا على شؤون الخلافة فى عهد المعتصم ، إذ استكثر من الترك ، وآثرهم على الفرس ، فنكل الترك بالفرس والعرب معاً .

(١) الطبرى ١٠/٢٩٦ الشارى : الخارجى . السفيانى مثل المهدى المنتظر الذى تنتظره الشيعة (راجع أدب السياسة فى العصر الأموى) .

الفصل الثانى

آثار الفرس فى الإدارة السياسية

غلبة الصيغة العربية أول الأمر :

قامت الدولة العباسية مستندة إلى عصبيتها من الموالى الذين آزروها واصطفتهم ، وكان منهم أكفاء فى شؤون الإدارة والسياسة ، لا يعيب كثيراً منهم إلا طموحهم إلى استعادة مجد الفرس وحكمهم .

على أن الدولة العباسية لم تتغافل عن عروبتها فى إبان قوتها . بل اعتمدت عليها لتتقى بها أولئك الفرس المتطلعين إلى إعادة ملكهم ، فاصطنعت كثيراً من رجال العرب من ربيعة ومُضَر واليمن ، لكن بنى العباس لم ينتبهوا إلى ما بين القبائل العربية من بغضاء وَقَرتْها نفوسهم منذ زمن بعيد ، ولعلهم انتبهوا إلى هذه البغضاء ، لكنهم ارتضوها ليستعينوا بفريق على فريق ، ولو أنهم جَدُّوا فى إزالة ما بيْن القبائل العربية الموالية لهم من خصومة وحزازة لوجدوا فيها ملجأهم الأمين ، ودرعهم التى تقيهم هجمات الموالى من فرس ومن ترك .

حقاً إن الفرس كانوا أصحاب نفوذ عظيم فى العصر العباسى الأول ، لكنه لم يَطْغَ على سلطان الخلفاء كما حدث من الفرس ومن الترك فى العصر العباسى الثانى ، فقد كان خلفاء بنى العباس فى العصر الأول ما زالوا يعتزون بعروبتهم ، ويحرصون على سلطتهم ، لهذا لم يتوانوا فى التنكيل بالفرس إذا ما تخوفوهم على الخلافة أو على الخليفة ، فالسفاح قتل وزيره الفارسى أبا سلمة الخَلَّال ، والمنصور قتل قائده الفارسى

الكبير أبا مسلم الخراسانى ، ثم جاء الرشيد ففتك بالبرامكة ، وجاء المأمون فقتل وزيره الفارسى الفضل بن سهل .

كان الوزراء فى العصر العباسى الأول أكثرهم من الفرس ، وكان القواد من العرب ومن الفرس ، وكذلك ولاة الأقاليم ، وكان جند المنصور من أربع فرق : ثلاث من العرب ورابعة من الفرس (١) .

ومعنى هذا أن العرب مازالوا يحتفظون بكثير من نفوذهم ، وأن الحكم لم يصطبغ بالصبغة الفارسية التى لونته فى العصر العباسى الثانى ، وإلا ما اشتهر أمثال هؤلاء القواد من العرب : معن بن زائدة الشيبانى ، وسعيد بن مُسْلم الباهلى ، والمهلَّب بن أبى صُفْرة ، وأبو دُولَف العِجْلى ، ورَوْح بن حاتم بن قَبيصة ، وثُمامة بن أشْرس.

(١) الوزراء

كان العرب فى الجاهلية وفى العصر الإسلامى يعرفون كلمة وزير ، لكنهم لم يريدوا بها المعنى الاصطلاحى الذى عرفوه فى العصر العباسى والذى نعرفه اليوم ، وإنما أرادوا بها النَّصير والمشير ، فكان للنبى وللخلفاء الراشدين ولبنى أُمية أعوان ومستشارون يقومون بأعمال الوزراء ، ولم يُطْلقْ على واحد منهم لقب وزير .

وهى بهذا المعنى وردت فى القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام فى قوله تعالى : « واجعل لى وزيرا من أهلى ، هارون أخى ، اشدُدْ به أزرى ، وأشركه فى أمرى » . (٢)

(١) الطبرى ٢٨٢/٩

(٢) سورة طه ٢٩ — ٣٢

أما فى العصر العباسى فعرفوا المعنى السياسى للوزير ، كما كان الفرس يعرفونه ، إذ أطلقوه على من يقوم مقام الملك أو الخليفة فى تصريف شؤون الدولة ، يقول ابن خلكان (١) إن أبا سلَمةَ الخَلاَّل أول من وقع عليه اسم الوزير ، وشُهِر بالوزارة فى دولة بنى العباس ، ولم يكن قبله مَنْ يُعرَف بهذا الاسم ، لا فى دولة بنى أمية ولا فى غيرها .

وقد كان أبو سلمة وزيراً لأبى العباس السفاح ، وهو أول من اتخذ لنفسه وزيراً من الفرس ، فلما قتله استوزر فارسيا آخر هو خالد البرمكى ، وما زال خالد وزيره حتى مات السفاح وتولى أبو جعفر المنصور ، فعينه والياً على إقليم فارس ثم الموصل .

وكان للمنصور وزيران أحدهما عربى هو ابن عطية الباهلى ، والاخر فارسى هو أبو أيوب المورِيانى الخوزى ، ثم جاء المهدى فاستوزر يعقوب ابن داود .

وأما الرشيد فقد استوزر يحيى بن خالد البرامكى ، وفوض إليه تفويضا كاملا أن يُصَرِّفَ شؤون الدولة قائلا : « قد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وأمْض الأُمور على ما ترى (٢) » . ولم يلبث أن دفع إليه خاتم الخلافة ، فاجتمعت له الوزارتان ، فصار بهما وبكرمه موئل القاصدين .

وكان أولاده الخمسة وبنوهم رؤساء بالدولة فى عهد الرشيد ، ثم

(١) وفيات الأعيان ١٢٩/١

(٢) الوزارة والكتاب الجهشيارى ١٣٤

تنازل يحيى عن الوزارة لابنه جعفر ، ولم يأفل نجم البرامكة إلاّ حينما أوقع بهم الرشيد سنة ١٨٧ هـ .

ثم استوزر المأمون الفضل والحسن ابنَىْ سهل ، وثابت بن يحيى الرازى ، وكان كل وزير من هؤلاء وغيرهم يحشد فى الدواوين من يستطيع حشده من بنى جنسه .

وتجلى هذا منذ عهد المنصور ، إذ بدأ الفرس يكثرون فى الوظائف ، ويحلون فى مناصب يجب أن يحل فيها العرب ، حتى ليقال إنه أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وصرّفهم فى شؤونه ، وقدمهم على العرب ، وكثر ذلك بعده . فزالت رياسة العرب ، وضاع بأسها ، وذهبت مراتبها (١) ، حتى إن شيخاً أعرابيا استأذن ليدخل على أبى جعفر المنصور فلم يؤذن له ، على حين أن الخراسانية تدخل وتخرج فتسخر به ، فقال له رجل يعرفه : كيف ترى ما أنت فيه فى هذه الدولة ؟ فقال الأعرابى (٢) :

أكثرُ خلق الله مَنْ لا يُدْرَى ... من أىِّ خلق الله حين يُلقَى
وحُلَّةٌ تُنْشَرُ ثم تُطْوَى ... وَطَيْلَسانٌ يُشْتَرى فَيُغْلَى
لعَبْد عبدٍ ، أو لمولَى مولى ... ياوَيْحَ بيت المال ماذا يَلْقَى

كان الوزير ينوب عن الخليفة فى تصريف شؤون الدولة كلها دون توجيه منه ، أو ينفذ ما يمليه الخليفة عليه ، وذلك أن الوزارة فى العصر العباسى كانت نوعين : النوع الأول وزارة التنفيذ ، وهى التى يقتصر فيها الوزير على تنفيذ أوامر الخليفة ، فهو إذن وسيط بينه وبين الموظفين والشعب ، والنوع الثانى وزارة التفويض ، وهى التى يعهد فيها

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى ١٣٩ — ١٥٧ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ١٠٠ ، ومروج الذهب ٤٠١/٢

(٢) الأغانى ١٤٨/١٨

الخليفة إلى الوزير بالنظر فى شؤون الدولة والتصرف فيها بغير رجوع إليه ، وليس للخليفة إلاّ تولية العهد ، وعزل من يوليهم الوزير ، وكان يحيى بن خالد البرمكى وزير تفويض للرشيد ، ثم خلفه ابنه جعفر .

وإذْ كان منصب الوزارة منقولا عن الفرس اتّسم بعدّة مظاهر فارسية ، فكان الذى يختار للوزارة يرتدى زيا خاصاً ، ثم يَمْثُل بين يدى الخليفة فى حفل رسمى ، كما كان الفرس يفعلون .

وكان الوزراء الفرس يحاكون سلفهم فى بعض المظاهر التى لا عهد للعرب بها ، فالفضل بن سهل يقعد على كرسى مُجَنَّح ، ويحمل فيه عند دخوله على المأمون ، فإذا اقترب من المأمون ووقعت عينه عليه وُضع الكرسى ، وترجّل الفضل ، وحُمِل الكرسى حتى يوضع بين يدى المأمون ، ثم يسلم الفضل ويعود إلى كرسيه فيقعد عليه ، وهو فى ذلك يذهب مذهب الأكاسرة (١) .

وهو الذى أقنع المأمون بأن يستبدل بالسواد — شعار العباسيين — الخضرة ، ويكتب إلى عماله أن يجعلوا أعلامهم وقلانسهم خُضْرا ، وقد كانت الخضرة شعار كسرى والمجوس (٢) .

وإذا كان خلفاء بنى العباس قد حرصوا على عروبتهم واستندوا إليها فى أول أمرهم ، فقتل بعضهم وزراءهم من الفرس ، فإن هذا يدل على أمر آخر هو سريان النفوذ الفارسى والخوف من عواقبه ، وحسبنا أن نوجز البواعث التى حملت الرشيد على الفتك بالبرامكة ، لنستبينّ الدلائل على نفوذهم ، وعلى حنقه من سلطانهم .

---

(١) الوزراء والكتاب ٤٠١

(٢) المصدر السابق ٣٩٦ .

ونحن نستبعد من هذه البواعث ما زعمه بعضهم من علاقة العباسة بنت المهدى أخت الرشيد بجعفر البرمكى وزواجه بها سرا ، لأنها قصة بينة الاختراع والاختلاق ، ونرى أن أقرب تعليل إلى الصواب هو ماذهب إليه ابن خلدون (١) ، فقد فَنَّدَ قصة العباسة ونفاها ، وانتهى إلى أن الفتك بالبرامكة كان نتيجة لأسباب شتى ، من الممكن حصرها فى استئثارهم بالسلطة والنفوذ واستمالة الناس واجتذاب الأشراف ، واغترارهم بما نالوا من ثراء وجاه ، وإسرافهم فى العطايا والهبات ، وتغافلهم أو غفلتهم عما للخليفة من حقوق وسلطان ومظهر واجب المراعاة .

يقول ابن خلدون : إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره ، وشاركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه ، فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدوله وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم ، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم ، يقال إنه كان بدار الرشيد ن ولد يحى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة . . . فتوجه الإيثار من السلطان إليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقُصِرت عليهم الآمال ، وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء ، وصيرت إلى خزائنهم فى سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية ،

---

(١) المقدمه ٣٧٤

وأفاضوا العطاء فى رجال الشيعة وعظماء القرابة ، وطوقوهم المنن ، وكسوا من بيوتات الأشراف المعدم ، وفكوا العانى ، ومُدِحوا بما لم يمدح به خليفتهم ، وأسنوا الجوائز لعُفاتِهم (١) ، واستولوا على القرى والضياع ، حتى آسفوا البطانة ، وأحقدوا الخاصة ، وأغضبوا أهل الولاية ، فكُشِفَتْ لهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبت إلى مهادهم الوثير عقارب السعاية . . . . »

ولقد رويت أخبار شتى عن سَرَفهم وثرائهم وسفههم فى العطاء فيها مبالغات ، منها قول معاصرى خالد البرمكى : لم يكن يُرَى لجليس خالد ابن يحيى البرمكى دار إلاَّ وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن كانت أَمَة ، أو أدى مهرها إن كانت حرة ، ولا دابة إلاَّ وخالد حمله عليها إما من نتاجه أو من غير نتاجه (٢)

وقال الرشيد وهو يسمع ضجة فى مجلس يحيى بن خالد : ما هذا ؟ فقيل : يحيى بن خالد ينظر فى أمور المتظلمين ، فقال : فعل الله به وفعل ، يذمه ويسبه ، استبد بالأُمور دونى ، وأمضاها على غير رأيى ، وعمل بما أَحَبَّهُ دون محبتى . وتكلمت أم جعفر بنحو من كلامه ، وثلبته أكثر مما يثلبه أحد (٢) .

(٢) بيوت للاذن

لم يعرف فى صدر الإسلام والدولة الأُموية نظام البيوت الخاصة بالاستئذان على الخلفاء ، وكان بنو أمية يقيمون فى قصورهم ، ويقف الناس على أبوابهم حتى يؤذن لهم أو ينصرفوا .

---

(١) العفاة : جمع عاف وهو طالب العطاء

(٢) الوزراء والكتاب ١٧٣ .

(٣) الوزراء والكتاب ١٧٨

فلما تولى بنو العباس ، وبَنَى المنصور قصره جعل فيه بيوتاً للاذن ، فجرى خلفاؤه على سنته .

(٣) المنجمون

كذلك جَدَّ المنَجِّمون ، وكان لهم شأْن فى الدولة العباسية ورأى أحياناً فى توجيه السياسة وفى الحروب ، وهم الدين أشاروا على المعتصم بتأْجيل فتح عَمُّورِيَّة إلى أن ينضج التين والعنب ، لكنه خالفهم وانتصر ، فسخر بهم أبو تمام فى قوله (١) :

السيف أَصدق أَنباءً من الكتُبِ ... فى حَدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللعب

بِيضُ الصفائح لاسُودُ الصحائف فى ... متونهن جِلاء الشَّكِّ والرِّيَب (٢)

والعلم فى شُهُب الأَرماح لامعةً ... بين الخميسَيْن لافى السبعة الشُّهُب (٣)

أين الرواية أم أين النجوم وما ... صاغوه من زُخرف فيهاومن كذب

تَخَرُّصاً وأحاديثا مُلَفَّقَةً ... ليست بنَبْع إذاعُدَّتْ ولاغَرَب (٤)

ثمَ هزِئ بتكهنهم قبل ذلك فقال :

وخوَّفوا الناس من دهْياء مُظْلمة ... إذا بدا الكواكب الغربىذوالذَّنَب (٥)

(١) الديوان ١/٤٥

(٢) بيض الصفائح : المراد السيف .

(٣) شهب الأرماح : أسنتها . السبعة الشهب : زحل والمشترى والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر . الخميس : الجيش .

(٤) التخرص : الكذب . النبع : شجر صلب ينبت فى رءوس الجبال تتخذ منه القسى . الغرب : شجر ينبت على الأنهار ليست له قوة .

(٥) دهياء : داهية . . كانوا قد زعموا أن طلوع ذلك الكوكب فتنة عظيمة وتغير وهلاك .

وصيّروا الأَبرجَ العليا مُرتِّبةً ما كان منقلباً أو غير مُنْقَلب
يقضون بالأَمر عنها وهى غافلة مادار فى فَلَكٍ منها وفى قُطُب
لو بَيَّنَتْ قط أمرا قبل موقعه لم تُخْفِ ماحلَّ بالأَوثان والصُّلُب

(٤) نظام البريد

كلمة البريد لها عدة معان :

أولها الرسول أو الشخص الذى يحمل الرسائل ، جمعه بُرُد ، وفى الحديث الشريف : لا أَخِيسُ بالعهد ، ولا أَحْبِسُ البُرُد ، أى لا أحبس الرسل الواردين إلىّ ، وقوله صلى الله عليه وسلم : إذا أبردتم إلىّ بريدا فاجعلوه حسن الوجه ، حسن الاسم .

وثانيها الدابة التى تحمل البريد .

وثالثها مسافة معينة بين سكتين أو منزلتين من منازل البريد قدرها أربعة فراسخ أو فرسخان ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل أربعة آلاف ذراع ، والذراع أربعة وعشرون إصبعا ظهر إحداها لبطن الأُخرى ، فالبريد إذن ثمانية وأربعون ألف ذراع .

ورابعها الرسالة نفسها .

أصل هذه الكلمة :

١ — ذهب الزمخشرى إلى أن كلمة بريد فارسية أصلها (بريده دم) أى محذوف الذنب ، لأن بغال البريد كانت عند الفرس محذوفة

---

(١) مرتبة . بكسر التاء أى مدبرة . الأبرج العليا : بروج السماء التى أولها الحمل وآخرها الحوت .

(٢) لسان العرب وتاج العروس مادة برد

الأذناب علامة لها ، ثم سمى الرسول الذى يركبها بريدا ، وسميت المسافة التى بين السكتين (١) بريدا (٢) .

لكننى لم أجد فى أساس البلاغة للزمخشرى هذا النص .

وذهب إلى مثل هذا ابن الأثير فى كتابه (النهاية فى غريب الحديث) (٣) .

كذلك يذكر (المعجم فى اللغة الفارسية) أن البريد هو القاصد أو حامل الخطاب ، وأنه نقل إلى العربية (٤) .

٢ — لكننى أرجح أنها عربية الأصل لأن مادة (برد) قديمة متنوعة فى المعاجم العربية ، ولأنها دلت على الرسول بين اثنين منذ العصر الجاهلى وصدر الإسلام ، قبل أن يتصل العرب بالفرس ذلك الاتصال الذى مكنهم من نقل نظام البريد المرتب على البغال

وحسبنا قول امرئ القيس :

على كل مقصوص الذُّنابَى معاودِ   بريدَ السُّرىَ بالليل منخيل بَرْبَرا

فهو يذكر هنا الحصان أو البغل المقصوص الذيل المستخدم فى سُرى الليل من خيل البربر .

وقول مُزَرِّد بن ضِرار يمدح عَرابة الأوسى :

فهرتك عرابَ اليوم أمى وخالتى   وناقتى الناجى إليك بريدها

أى فدتك أمى وخالتى وناقتى المسرعة إليك سيرا فى البريد .

---

(١) السكة موضع يقيم به أشخاص مرتبون معهم بغال .

(٢) تاج العروس ولسان العرب مادة بر د .

(٣) صبح الأعشى ٣٦٧/١٤

(٤) المعجم فى اللغة الفارسية الدكتور محمد موسى هنداوى .

نظام البريد :

كان للفرس نظام معين للبريد هو تقسيم المسافات إلى مراكز ، وفى كل مركز أشخاص وبغال ، فيحمل الشخص رسالة ويركب بغلا من بغال البريد ، ويسرع به ، فإذا ما وصل إلى الموضع الخاص بالبريد فى طريقه سلم له الرسالة وعاد ، وينقلها هذا إلى ثالث ، وهكذا .

وقد نقل العرب عن الفرس هذا النظام ، وذكر أبو هلال العسكرى فى كتابه (الأوائل) أن أول من وضعه فى الإسلام معاوية بن أبى سفيان ، لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها ، فأمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم ، وعَرَّفهم مايريد ، فوضعوا له البريد .

وقيل إن هذا حدث فى زمن عبد الملك بن مروان بعد أن انتصر على خصومه .

لكن أبا هلال العسكرى ذكر أن عبد الملك أحكمه .

وقد روى عنه قوله لابن الدُّغَيْدِغة : وليتك ماحضر بابى إلا أربعة : المؤذِّن فإنه داعى الله تعالى ، فلا حجاب عليه ، وطارق الليل ، فشرٌّ ما أتَى به ، ولو وجد خيرا لنام ، والبريد فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه ، فربما أفسد على القوم سَنَةً حَبْسُهم البريد ساعة ، والطعام إذا أدرك ، فافتح الباب ، وارفع الحجاب ، وخلِّ بين الناس والدخول (١)

فلما جاءت الدولة العباسية كان للبريد ديوان فى بغداد ، وله محطات كثيرة على طول الطرق ، لنقل الرسائل بين الخليفة وعماله فى الأقاليم .

---

(١) صبح الأعشى ٣٦٧/١٤ .

ثم صار صاحب البريد يراقب الولاة ويتجسس على الأعداء ، وينقل الأخبار إلى الخليفة ، فهو عينه التى يبصر بها ما بعد عنه .

قال أبو جعفر المنصور : « ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم ، فقيل له : من هم ياأمير المؤمنين ؟ قال : هم أركان الملك لا يصلح إلا بهم ، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ، فإنى عن ظلمها غنى ، والرابع (ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات ، يقول فى كل مرة آه آه ، قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إلىّ بخبر هؤلاء على الصحة » (١) .

وقد كتب إليه عامل البريد عن واليه فى حضرموت أنه يكثر الخروج فى طلب الصيد ، فكتب إلى الوالى : « ثِكلتْك أُمك ، وعَدِمتك عشيرتك ، ماهذه العُدة التى أعددتَها للنكاية فى الوحش ؟

إننا إنما استكفيناك أمور المسلمين ، ولم نستكفك أمور الوحش ، سلِّم ما كنتَ تلى من عملنا إلى فلان ابن فلان ، والحقْ بأهلك مذموما مَدْحوراً (٢) .

وكتب صاحب البريد إلى هارون الرشيد يذكر له أن الفضل بن يحيى البرمكى واليه على خراسان تشاغل بالصيد واللذات عن النظر فى أمور الرعية ، فلما قرأ الرشيد الكتاب رمى به إلى يحيى البرمكى ليقرأه .

(١) تاريخ الطبرى ٩/٢٩٧ ، ٣٤١

(٢) مروج الذهب ٢/٢٣٢

وليكتب إلى ابنه الفضل كتابا يردعه عما هو فيه (١) .

وفى كتاب صبح الأعشى للقلقشندى تفصيل لأطوار البريد وأحواله فى مختلف العصور (٢) .

(٥) السياف

لم يكن العرب يعرفون هذه الوظيفة أيام النبى والخلفاء الراشدين أو بنى أمية ، فلما اتصلوا بالفرس نقلوها عنهم ، لأنها وظيفة فارسية قديمة .

(١) معجم الأدباء ٢٠/٨

(٢) صبح الأعشى ١٤/٣٦٦ – ٣٨٨

الفصل الثالث

آثار الفرس في العادات

حرص الأمويون وولاتهم على الصبغة العربية ؛ فكان تأثرهم بالفرس والروم إلى الحد الذى لا ينقلهم إلى أن يكونوا أشبه بهم ، فقد أولم الحجاج فى ختان بعض ولده ، فسأل بعض الدهاقين عن ولائم الفرس ، فقال له الدِّهْقان : شهدتُ بعض مَرازبة كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعاً ، أحضر فيه صِحافَ الذهب على أَخْوِنة الفضة ، أربعا على كل واحد ، وتحمله أربع وصائف ، ويجلس عليه أربعة من الناس ، فإذا طعموا مُنحوا المائدة بصِحافها ووصائفها (١) .

فلم يعجب الحجاج هذا النظام الفارسى ، وقال : ياغلام ، انحر الجُزر ، وأطعم الناس .

وهذا يدلنا على أنه أراد أن يولم على طريقة العرب التى ألفها وألفوها ، وأن يبتعد عن هذا السَّرف الفارسى .

لكن العرب جعلوا يتأثرون بالعادات الفارسية شيئا بعد شىء ، حتى جاء العصر العباسى ، فعظم تأثرهم ، ونقلوا عن الفرس كثيراً من عاداتهم ووسائل ترفهم ولهوهم ومجونهم .

(١) النيروز والمهرجان

١ ــ النَّيروز كلمة فارسية معناها اليوم الجديد ، وموعده الأيام الستة

(١) تاريخ ابن خلدون ١/١٤٥ .

الأوائل من أول شهر فى سنتهم الشمسية ، وهو يوافق ٢٤ من آزار ، ويوافق شهر بابه القبطى ، أى أنه يوافق أول الربيع .

واليوم السادس من أيام النيروز يسمى النيروز الكبير ، لأن الأكاسرة كانوا ينصرفون فيه إلى مجالس أنسهم مع خاصتهم.

والنيروز أعظم أعياد الفرس وأجلُّها ، ويتميز على عيد المهرجان بأنه استقبال السنة ، وافتتاح جباية الخراج ، وزمن تولية العمال واستبدالهم وضرب الدراهم والدنانير ، وتذكية بيوت النيران ، ورش الناس بعضهم بعضا بالماء ، وتقريب القربان ، وإشادة البنيان ، وما أشبه ذلك (١) .

وقد كان لملوك الفرس نظام معيّن فى النيروز ، يجلس الملك فى اليوم الأول فيقابل الناس ويحسن إليهم ، ويجلس فى اليوم الثانى لمن هم أرفع مرتبة ، وهم الدّهاقين وأهل البيوتات ، ويجلس فى اليوم الثالث لأساورته . . . ثم يختص ولده وصنائعه باليوم الخامس ، فيصل إلى كل واحد منهم ما يستحقه من رتبة وتكريم ، فإذا كان اليوم السادس نَوْرَزَ لنفسه ، ولم يصل إليه إلا أهل أنسه ومن يصلح لخلوته (٢) .

أما المِهْرَجان فهو الأيام الستة الأوائل من أول شهرهم مِهْرَجان ، وهو يوافق أول الخريف ، ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الكبير .

فالنيروز استقبال الربيع ، والمهرجان استقبال الخريف .

---

(١) التاج فى أخلاق الملوك ١٤٦ .

(٢) الآثار الباقية للبيرونى ٢١٨ .

كان ملوك الفرس يأمرون بإخراج مافى خزائنهم فى النيروز والمهرجان من ملابس ، فتفرق كلها على بطانة الملك وخاصته ، ثم على بطانة البطانة ، ثم على سائر الناس على مراتبهم ... (١) وكانوا يتقبلون الهدايا فى العيدين من طبقات شتى ، « والسُّنَّةُ فى ذلك أن يُهْدِى الرجل مايحب من مِلْكه إذا كان فى الطبقة العالية ، فإن كان يحب مسكا أهدى مسكا لا غيره ، وإن كان يحب عنبرا أهدى عنبرا ، وإن كان صاحب بِزَّة ولِبْسة أهدى كسوة وثيابا ، وإن كان الرجل من الشجعان والفرسان فالسُّنة أن يهدى نَشَّابا ، وإن كان من أصحاب الأموال فالسنة أن يهدى ذهبا أو فضة ، وكان الشاعر يهدى الشعر ، والخطيب الخطبة ، والنديم التحفة والطرفة.. وعلى خاصة نساء الملك وجواريه أن يهدين إليه مايؤثرنه (٢) » .

٢ ـ بدأ اتصال العرب بالنيروز والمهرجان فى آخر صدر الإسلام ، فقد كانت تُحْمل إلى معاوية ومَنْ بعده هدايا النيروز والمهرجان ، كما كانت تقدم إلى الأكاسرة ، وقد أنكرها على بن أبى طالب ، ثم أبطلها عمر بن عبد العزيز .

وسواء أكانت هذه الهدايا قد ابتدأت أيام معاوية ، أم أن الحجاج ابن يوسف أول من رسمها فى الإسلام حينما كان واليا على العراق ، فإن عمر بن عبد العزيز أبطلها إلى أن أعادها أحمد بن يوسف الكاتب فى العصر العباسى الأول .

وفى هذا العصر شاع الاحتفال بالعيدين ، حتى إن الخلفاء والولاة كانوا يجلسون فيهما لتقبل التهنئات ، واستماع مدائح الشعراء ، وكان

---

(١) التاج فى اخلاق الملوك ١٤٦ .

(٢) التاج فى أخلاق الملوك ١٤٩ .

عبد الله بن طاهر يفرق مافى خزائنه من ملابس على بطانته ثم على سائر الناس ، كما كان يفعل الأكاسرة ، حتى لايترك فى خزائنه ثوبا واحداً ، وهذا من أحسن مايذكر من فضائله (١) .

وصار من الشائع فى قصائد الشعراء التعبير عن الربيع بالنيروز ، قال البحترى فى مدح الهَيْثَم الغَنَوِىّ :

أتاك الربيع الطَّلْق يختال ضاحكا   من الحُسْن حتى كاد أن يتكلما
وقد نَبَّه النَّيروزُ فى غَسَق الدجى   أوائل ورد كنَّ بالأمس نُوَّما(٢)

وقال عبد الصمد بن بابك للصاحب بن عباد :

لقد نشر النيروز وَشْيا على الرُّبا   من النَّورْ لم تظفر به كفُّ راقم
كأن ابن عبادٍ سَقى المزنَ نَشْره   فجاد برشَّاش من الوَبْل ساجم

وقال ابن الرومى فى تهنئة عبيد الله بن عبد الله بيوم المهرجان (٣) :

ما رأت مثل مهرجانك عينا   أزدشير ولا أنو شروان
مهرجان كأنما صوَّرتْه   كيف شاءت مخيَّرات الأمانى
وأُدِيلَ السرور واللهو فيه   من جميع الهموم والأحزان
لبَستْ فيه حَلْىَ حفلتها الد   نيا وزافَتْ فى منظر فتان (٤)

ثم جعل يصف الاحتفال والغناء والقيان .

(٢) الترف

حاكى الخلفاء العباسيون أكاسرةَ الفرس فى الترف والسَّرَف ، ووردت أخبار شتى تصور هذا السرف تصويراً لم يسلم من المبالغة. قالوا

(١) التاج ١٤٩ .
(٢) ديوان البحترى ٢٣٤ .
(٣) ديوان ابن الرومى ٨٢ .
(٤) زافت : اختالت وتبخترت .

إن عرش المهدى يوم بيعته كان مكللا بأنواع اللؤلؤ والياقوت ، وعلى رأسه قبة من الديباج ، وحوله غلامان ملتحفان بالذهب يحملان مظلتين من الريش مرفوعتين على رمحين مكسوين بعروق من الذهب ، يتدلى منهما الياقوت والزبرجد والفيروز ، وعلى يمين العرش منبر مزخرف بالجواهر والديباج .

وقيل إن الرشيد كان ينفق على طعامه كل يوم عشرة آلاف درهم ، ويقدم على مائدته ثلاثون صنفا من الطعام .

ولما تزوج زُبَيْدَة كانت هباته أوانى من الذهب مملوءة بالفضة ، وأوانى من الفضة مملوءة بالذهب ونوافج المسك .

ووصفوا عُرس المأمون بُبوران بنت الحسن بن سهل بأنه كان مظهراً صارخا للسرف والترف ، قالوا إن المأمون أعطاها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت ، وأوقد شموع العنبر فى كل واحدة مئة مَنٍّ — رطل وثلثان — ، وبسط لها فرشاً كان الحصيرة منها منسوجا بالذهب مكللا بالدر والياقوت . . .

وذكر المسعودى(١) أن مجلس الخليفة المتوكل جمع مُرة بين الشعراء والمغنين ، وقد مدح البحترى هذا الخليفة بقصيدته التى يقول فيها :

عن أى ثغر تبتسمْ ... وبأى طَرْف تحتكم

حُسْنٌ يضىء بحسنه ... والحسنُ أشبه بالكرم

قل للخليفة جعفر الـ ... ـمتوكل بن المعتصم

(١) مروج الذهب ٨/٢٠٢ .

أمـا الرعية فهى من أمَنـات عـدلك فى حَرَم

فلما انتهى سار القهقرى لينصرف ، فوثب أبو العَنْبَس الصَّيْمَرِى الشاعر فقال : ياأمير المؤمنين تأمر برده ، فقد عارضته فى قصيدته هذه ، فأمر المتوكل برده ، فجعل الصيمرى ينشد قصيدة له على مثل قصيدة البحترى وزنا وقافية ، أولها :

من أى سَـلْح ترتطم وبأى كف تَلْتَـطِمْ

ونال من البحترى .

فضحك المتوكل حتى استلق على قفاه ، وفحص الأرض برجله ، وقال : يُدْفَعُ إلى أبى العنبس عشرة آلاف درهم .

فقال الفتح بن خاقان : ياسيدى : البحترى الذى هُجِى وأُسْمع المـكروه ينصرف خائباً ؟ .

قال المتوكل : ويدفع إلى البحترى عشرة آلاف درهم .

قال الفتح : ياسيدى ، فهذا البصرى الذى أشخصناه من بلده ، لا يشركهم فيما حصلوه ؟

قال : ويدفع إليه عشرة آلاف درهم .

فانصرفوا كلهم بعشرات الألوف بسبب الهزل .

وقالوا إنه كان فى آثاث أم الخليفة المستعين بساط كلفهم صنعه مئة وثلاثين مليونا من الدراهم ، به نقوش للحيوانات والطيور .

وذكروا أن شاعراً مدح إحدى الأميرات فملأت فمه بدرٌ باعه بعشرين ألف دينار .

ورووا أن قصر الخليفة المقتدر بالله كانت به شجرة من الفضة وزنها خمس مئة ألف درهم ، تقوم ، وسط بركة مستديرة صافية الماء ، وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن فروع صغار كثيرة عليها طيور من كل نوع مفضضة ومذهبة ، وبعض قضبان الشجرة من ذهب وبعضها من فضة ، ولها ورق مختلف الألوان ، يهتز مع النسيم ، وإذا ماهبّ النسيم صفرت الطيور المذهبة والمفضضة . وقالوا إن قصر المقتدر كان به أحد عشر ألف خصيّ .

ويتصل بهذه المبالغات أن الوزراء — ولا سيما البرامكة — كانوا يتغالون فى الترف ومظاهر النعمة والثراء ، فقد نثر الحسن بن سهل على الطبقة الأولى من حاشية المأمون ليلة زفاف بنته بُوران بنادق المسك مَلْتوتة على الرقاع بالضِّياع والعقار ، مسوغة لمن تقع فى يده أن يمتلك ماكُتب بها ، وفرق على الطبقة الثانية بِدَرَ الدنانير فى كلَ بَدْرة عشرة آلاف ، وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم كذلك (١) . . .

وقد حكوا عن خالد بن يحيى أنه لم يكن له جليس إلاّ وقد بنى له داره ، أو اشترى له ضيعة ، أو وهب له أمة ، أو أدى عنه مهر زوجته ، أو منحه دابة (٢) .

وذكروا أن الوزير المهَّلبى كان لايأكل إلا بملاعق الذهب ، ولايأكل بالملعقة إلا لقمة واحدة ، فكان يوضع له على مائدته زهاء ثلاثين ملعقة ، وكان يحب الورد ، فاشترى له منه فى ثلاثة أيام بألف دينار ، فألقاه فى بركة كبيرة بداره ، وللبركة فوارات تنفض الورد فيتساقط على رءوس الجالسين مع الوزير فى مجلسه .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٨٩ . (٢) الوزراء والكتاب ١٧٣ .

وإذا كانت هذه الأخبار كلها لم تسلم من المبالغة فإنها صورة للحياة المترفة التي كان يحياها الموسرون .

وليس أدل على أن الانطلاق في ميدان السرف كان من نتائج الحضارة والتأثر بالفرس وغيرهم من العجم ، من أن العرب بالبادية عاشوا وهم يجهلون هذه المظاهر .

يدل على ذلك هذه القصة التي لاتخلو من مبالغة أيضا ، وهي أن ناهض بن ثُومة الكِلابي — وهو شاعر بدوى كان يحيا في العصر العباسي — تحدّث أنه وفد على حَلَب ، فمر بقرية رأى بها دوراً متباينة ، وناسا يقبلون ويدبرون عليهم ثياب تحكى ألوان الزهر ، فقال في نفسه : هذا أحد العيدين الأضحى أو الفطر ، ثم ثاب ماعزب عن عقله ، ثم أتاه رجل فأخذه بيده ، وأدخله دارا قَوْراء ، بها شاب يتدلى شعره على منكبيه ، والناس حوله سماطان ، فقال في نفسه : هذا الأمير الذى حُكى لنا جلوسه للناس وجلوسهم بين يديه ، فقال : السلام عليك أيها الأمير ، فجذب رجل يده ، وقال : اجلس ، فإن هذا ليس بأمير . قال : فمن هو ؟ قال له : عروس . فقال ناهض : واثُكْلَ أماه ، ربَّ عروس رأيته بالبادية أهون على أهله من أحقر شيء (١) .

ثم دخل رجال يحملون هَنات مُدَوَّرات ، وضعوها أمامنا ، وتحلق القوم عليها حِلَقا ، ثم جاءوا بخرق بيض ألقوها بين أيدينا ، فظننتها ثيابا ، وهممت أن أسأل القوم منها خرقة أقطعها قميصاً ، فلما بسطها

---

(١) أحقر شيء عوض عن التعبير الأصلي الذى آثرت إغفاله .

القوم بين أيديهم إذا هى تتمزق سريعا ، وإذا هى فيما زعموا صنف من الخبز لا أعرفه .

ثم أتينا بطعام كثير بين حلو وحامض وحار وبارد ، فأكثرت منه وأنا لا أعلم مافى عقبه من التُّخَم والبَشَم (١) ، ثم أتينا بشراب أحمر فقلت لاحاجة لى فيه ، فإنى أخاف أن يقتلنى . .

ثم هجم علينا شياطين أربعة ، أحدهم قد علق فى عنقه جَعْبة فارسية مُسَنَّجة الطرفين دقيقة الوسط مشبوحة بالخيوط شبحا منكرا ، ثم بَدَر الثانى فاستخرج من كمه هَنَة سوداء وضعها فى فمه وحرك أصابعه على أحْجِرة فيها ، فأخرج منها أصواتا عجيبة ، ثم بدا ثالث يصفق بمرآتين معه ، فخالط بصوته مايفعله الرجلان ، ثم جعل الرابع يقفز كأنه يثب على ظهور العقارب ، ورأيت القوم يَحْذِفونه بالدراهم . . .

ثم جاء شاب بخشبة عيناها فى صدرها بها خيوط أربعة ، استخرج من خلالها عوداً فوضعه خلف أذنه ، ثم عرك آذانها وحركها بخشبة فى يده ، فنطقَتْ ، وإذا هى أحسن قينة رأيتها ، وغنى عليها فأطربنى ، حتى استخفنى من مجلسى ، فوثبتُ فجلست بين يديه ، وقلت : بأبى أنت وأمى ماهذه الدابة فلست أعرفها للأعراب ؟ وما أراها خلقت إلا قريباً ؟

فقال : هذا البَرْبَط ، فقلت : بأبى أنت وأمى ، فما هذا الخيط الأسفل ؟ قال : الزِّير ، قلت : فما الذى يليه ؟ قال : المَثْنَى ، قلت فالثالث ؟ قال : المثَلَّث ، قلت : فالأعلى ؟ قال : البَمّ ، فقلت : آمنت

---

(١) التخم : جمع تخمة . البشم : التخمة .

بالله أولا ، وبك ثانياً ، وبالبربط ثالثاً ، وبالبم رابعاً (١) .

(٣) كثرة الجوارى

شَرِقت القصور بالجوارى من أجناس شتّى . كان العنصر الفارسى أكثرها عددا ، ونَسَلَتْ هؤلاء الجوارى للعرب ، وكثر نسلهن ، حتى إن أكثر خلفاء بنى العباس من أمهات غير عربيات ، وتناسى العرب فى العصر العباسى ماجرى عليه بنو أمية من زراية بأبناء الإماء .

ولا شك أن نظام التسرى كان عظيم الآثار فى الحياة الأسرية وفى الحياة العامة ، وقد سبق أن الفرس عاضدوا المأمون على أخيه الأمين لعدة بواعث ، منها أن أمه أمة فارسية .

(٤) نظام الغناء والقيان

سبق أن العرب عرفوا فى جاهليتهم الغناء الفارسى ، وبعض آلات الموسيقى ، لكن هذه المعرفة كانت سطحية محدودة .

أما فى العصر العباسى فقد تنوعت المعرفة واتسعت وعمقت ، فازدهر الغناء ، وتطور ، وارتقت الموسيقى ، وتنوعت الآلات ، وتزعم المغنين فى أول الدولة العباسية فارسيان هما إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق ، وكانا يجمعان إلى غنائهما المطرب الشعرَ والظرْف وتعليم الجوارى الغناء ، واقتدى بهما مَنْ بعدهما من المغنين .

١ — وكان ملوك الفرس يحتجبون عن الندماء فى مجالس الغناء بستارة ، فحاكاهم من بنى أمية معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد . فكان بينهم وبين الندماء ستارة ،

---

(١) الأغانى ١٢/٣٦ .

وكان لا يَظهَرُ أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة ، سوى خواص جواريه .

فأما الباقون من خلفاء بنى أمية فلم يكونوا يحتجبون عن المغنين والندماء ، إلا عمر بن عبد العزيز فإنه ما طنَّ فى سمعه غناء منذ أفضت إليه الخلافة إلى أن فارق الدنيا ، فأما قبلها وهو أمير المدينة فكان يسمع الغناء ، ولا يظهر منه إلا الأمر الجميل .

وأما فى الدولة العباسية فإن أبا العباس السفاح كان يظهر للندماء فى أول خلافته ، ثم احتجب عنهم ، وكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستارة ، ويقول للمغنى : أحسنتَ والله ، أعِدْ هذا الصوت ، فيعاد له مراراً .

كذلك كان أبو جعفر المنصور لا يظهر لنديم قط ، بل يجلس وراء الستارة ويسمع الغناء .

وكان المهدى فى أول أمره يحتجب عن الندماء ، متشبهاً بالمنصور نحواً من سنة ، ثم ظهر لهم .

٢ — وقد كان للمغنين شأن رفيع فى الدولة ، لأن الخلفاء والأمراء مشغوفون بالغناء ، ولأنهم حاكوا الأكاسرة فى تقريبهم ، فجعلهم هارون الرشيد طبقات ، كما جعلهم أردشير بن بابك وأنو شروان ، فكان إبراهيم الموصلى وإسماعيل بن جامع وزَلْزَل فى الطبقة الأولى ، وكان سُلَيمْ بن سلام الكوفى وعمرو الغزال فى الطبقة الثانية ، وكان العازفون فى الطبقة الثالثة (١) .

---

(١) التاج فى أخلاق الملوك ٢٥ — ٣٤

يقول الجاحظ فى حديثه عن طبقات الندماء والمغنين فى مجلس ملوك الفرس : « وكان الذى يقابل الطبقة الأُولى من الأساورة وأبناء الملوك أهلُ الحذاقة بالموسيقيات والأغانى ، فكانوا بإزاء هؤلاء نصْب خط الاستواء .

وكان الذى يقابل الطبقة الثانية من ندماء الملك وبطانته الطبقة الثانية من أصحاب الموسيقيات .

وكان الذى يقابل الطبقة الثالثة من أصحاب الفكاهات والمضحكين أصحاب الْوَنَج والمعازف والطنابير .

وكان لا يزمر الحاذق من الزامرين إلا على الحاذق من المغنين ، وإن أمره الملك بذلك راجعه واحتج عليه (١) » .

٣ — قد كان الخليفة المعتمد مشغوفاً بالطرب والغناء والموسيقى ، دخل عليه جماعة من ندمائه ، فسأل عبد الله بن خُرْداذبة (والد الجغرافى أبى القاسم عبيد مؤلف المسالك والممالك) عن نشأة الموسيقى والغناء وتطورهما ، فأجاد فى وصف حالهما بالبلاد الإسلامية منذ أقدم العصور ، فسر المعتمد وقال له : قلت فأحسنت ووصفت فأطنبت ، وأقمتَ فى هذا اليوم سوقا للغناء وعيدًا للملاهى .

ثم سأله عن الصفات التى يجب أن تتوفر فى المغنى الحاذق فقال عبد الله :

المغنى الحاذق يا أمير المؤمنين من تمكّن من أنفاسه ، ولطف فى اختلاسه (٢) ، وتفرع فى أجناسه .

(١) التاج ٢٣ الونج : العود أو ضرب من الأوتار .

(٢) تمكن من أنفاسه : جمع نفسه .

ثم سأله عن أنواع الطرب ، فقال : الطرب على ثلاثة أوجه يا أمير المؤمنين وهى : طرب مُحَرِّك مستخفٌ للأَريحية ، يحرك النفس ودواعى الشيم عند السماع ، وطرب شَجَن وحزن ، ولا سيما إذا كان الشعر فى وصف أيام الشباب والشوق إلى الأوطان والمراثى لمن عُدم من الأحباب ، وطرب يكون فى صفاء النفس ولطافة الحس ، ولا سيما عند سماع جودة التأليف وإحكام الصنعة .

ثم شبه الذى لا يعرف الطرب ويتشاغل عنه بالحجر الصلد ، وقال : قد قال جمهور من الفلاسفة المتقدمين وكثير من حكام اليونانيين : من عرضت له آفة فى حاسة الشم كره رائحة الطيب ، ومن غلظ جسمه كره سماع الغناء فتشاغل عنه وعابه وذمه .

قال المعتمد : فما منزلة الإيقاع وأنواع الطروق وفنون النغم ؟

قال عبد الله : قد قال فى ذلك من تقدم : إن منزلة الإيقاع من الغناء منزلة العَرُوض من الشعر ، وقد أوضحوا الإيقاع ووسموه بسمات ، ولقبوه بألقاب ، وهو أربعة أجناس : ثقيل الأول وخفيفه ، وثقيل الثانى وخفيفه ، والرمل الأول وخفيفه ، والهزج وخفيفه .

وجعل يفيض فى وصف الإيقاع ، ففرح المعتمد فى هذا اليوم ، وخلع على ابن خرداذبة وعلى من حضروا من ندمائه (١) .

٤ — ومن الطبيعى أن يقتضى ازدهار الغناء كثرة المغنيات والقيان ، ولهذا كثرن بالكوفة وبغداد وغيرهما ، وأعد كثيرات منهن بيوتهن لرواد العبث والمجون والخلاعة ، فتوافدوا عليها ، ليستمتعوا باللذات ،

---

(١) مروج الذهب ٨/٩٥ .

متأثرين بالآراء الإباحية التى تزين التحلل من سلطان الدين ، والجرأة على حرماته ، وتصور الاستمتاع باللذات المحرمة صورة مباحة لا إثم فيها.

وغلا بعض الأثرياء فى تقدير أثمانهن ؛ حتى إن جعفر بن سليمان اشترى جارية بمئة ألف درهم ، وصالح بن على اشترى أخرى بتسعين ألفا (١) .

وما من شك فى أن الغناء والموسيقى والخمر والقيان كان أثرها عميقا فى الأدب ، وفى أخيلة الشعراء ، وحسبنا أن كثيرا من الشعراء أغرموا بالمغنيات أو تغزلوا بهن ، كما قال ابن الرومى فى وحيد المغنية (٢) :

يا خليلىَّ تيَّمتْنى وحيدُ ففؤادى بها مُعَنًّى عميدُ
غادة زانها من الغصن قَدٌّ ومن الظَّبْىِ مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخدْ دَيْن ذاك السواد والتوريد
فهى بردٌ بخدها وسلام وهى للعاشقين جهد جهيد
مالما تصطليه من وجنتيها غيرَ تَرْشافِ ريقها تبريد
وغريرٍ بحسنها قال : صِفْها قلت : أمران : هيِّن وشديد
يَسْهُلُ القول أنها أحسن الأشياء طُرًّا ، ويَصْعُب التحديد
تتجلى للناظرين إليها فشقىٌّ بحسنها وسعيد
ظبية تسكن القلوب وترعا ها ، وقُمْريَّةٌ لها تغريد
تتغنى كأنها لا تغنى من سكون الأوصال وهى تُجيد
طاب فوها وما تُرَجِّع فيه كل شىء لها بذاك شهيد
فى هوى مثلها يَخِفُّ حليم راجحٌ حلمه ويَغْوَى رشيد

(١) الأغانى ١٣/١٢٨ .
(٢) الديوان ٩٨ .

وحسان عرضن لى قلت مهلاً عن وحيد محقها التوحيد
حُسْنُها فى العيون حسنٌ جديد فلها فى القلوب حبٌ جديد

(٥) الكلف بالخمر

اتسعت الحضارة ، واستفاض الثراء ، واشتدت مخالطة العرب للفرس وغيرهم ، وكانت الخمر بالعراق خاصة كثيرة متنوعة ، وكانت حاناتها متعددة ، فاشتهر بها كثير من الناس ، وكلف بها بعض الشعراء كأبى نواس ، حتى قال فيها آلاف الأبيات ، وحتى افتتح بالخمريات كثيراً من قصائده بدلا من الغزل وبكاء الأطلال ، وسنتبيّن هذا من الفصل الخاص بتأثير الفرس فى موضوعات الشعر العربى ، وإن كنا لا ننسى أن الخمر كانت شائعة بين العرب فى العصر الجاهلى.

(٦) الكلف بالغلمان

كان الفرس يستكثرون من الغلمان فى قصورهم ودورهم ويستخدمونهم فى أغراض شتى ، ويزينونهم بما تتزين به الإناث ، فحاكاهم العرب فى ذلك .

ومن الغلمان طائفة مُخَنَّثة انتشروا فى الكوفة أول الأمر منذ امتلأت بجند خراسان الذين ناصروا بنى العباس ، إذ كان الجند قد استقدموا معهم المخنثين لاستخدامهم ، جريا على تقليد فارسى قديم ؛ لأن كل مانَوِىٍّ كان يصطحب غلاماً أمرد ، ويستخدمه فى شؤونه .

وكان للمخنثين بالكوفة مظهران ينافيان الأخلاق العربية : أحدهما التشبه بالنساء فى الملبس والخضاب وتزجيج الحواجب والعيون وإطالة

الشعر والتحلى بالذهب ، والآخر تغنيهم بالشعر الفاجر الماجن فى غير تحرج أو استحياء من الناس (١) .

(٧) تنوع الأزياء

كان من النظم الفارسية أن يلبس أهل كل طبقة لِبْسَةً خاصة بهم لا يلبسها غيرهم ، فإذا وصل الرجل إلى الملك عرف من زيه صناعته وطبقته ، وكان الكتاب يلبسون زيهم المقصور عليهم (٢) .

وفى العصر العباسى تعددت الأزياء مشاكلة للوظائف والطبقات ، كما كان الفرس يفعلون ، وتَزَيَّا بعضهم بملابس فارسية .

لبس الخلفاء العمائم على القلانس ، ولبس القضاة القلانس الكبار ، ونَوَّع الكبراء العمامة ، وجعلوا لها أحجاما تطابق مكانتهم الاجتماعية كما كان الفرس يفعلون ، فللخلفاء عمة ، وللفقهاء عمة ، وللبقالين عمة ، وللأعراب عمة ، وللروم والنصارى عمة ، ولأصحاب التشاجى عمة .ولكل قوم زى ، فللقضاة وللشُّرطَة ولأصحاب القضاة زى ، وللشُّرطَة زى ، وللكتاب زى ....ولكل طبقة من أصحاب السلطان زى ... (٣) .

وقيل إن المنصور كان أول من لبس القلنسوة ، وتدل بعض النقود التى ضربت فى عهد المتوكل أنه كان يرتدى الملابس الفارسية .

(١) الأغانى ٤/١٦٩ .

(٢) الوزراء والكتاب ٣ ، ٤ .

(٣) البيان والتبيين ٣/١١٤ التشاجى : التحازن

الفصل الرابع

آثار الفرس في الزندقة

١ ـ دخل الفرس فى دين الله ، وحذقوا اللغة العربية والعلوم الإسلامية ، وتفوقوا فيها ، لكن آثار دينهم القديم وعاداتهم الأولى لم تزل عالقة بنفوسهم ، فأثرت أحياناً كثيرة فى عقائدهم وعاداتهم الجديدة دون قصد منهم ، وبقيت آثار لغتهم وآدابهم كامنة فى صدورهم ، أو مدونة فى بعض كتبهم ، أومتداولة فيما بينهم فى خلواتهم ، فلما قامت قائمتهم ، وتألق نجمهم ظهر ما كان خافيا ، وحاولوا إعادة مجدهم وإحياء علومهم وآدابهم (١) .

ذلك أن كبارهم ومثقيفهم لم يقنعوا بانتقال الملك من بنى مروان إلى بنى العباس ، ولم يكفهم ما نالوا من نفوذ سياسى فى الدولة الجديدة ، فطمعوا فى أن يكون لهم ملك فارسى فى مظهره وفى حقيقته ، ملك يستردون فيه سلطانهم ولغتهم ودينهم ، وكانت وسائلهم إلى تحقيق أملهم تعتمد على الأقلام تارة ، وعلى الألسن تارة ، وعلى الثورات والحروب تارة ثالثة .

من هذه الوسائل محاولة بعضهم إضعاف الإسلام بنشر الزندقة ، المستمدة من ديانات الفرس القديمة زرادشتية ومانوية ومزدكية .

---

(١) قصة الأدب الفارسى ١٠١ حامد عبد القادر .

وأغلب الظن أن المانوية كانت أكثرها تأثيرا فى عقول بعض الناس وقلوبهم فى العصر العباسى ، وقد سبق فى التعريف بالمانوية أنهم دعاة إلى الشك فى الدين والتوانى فى العمل ، والامتناع عن الزواج والنسل ، لأن العالم شر ما دام الظلام ممتزجا بالنور ، فيجب أن يفنى هذا العالم ، ليعود النور إلى صفائه . ومن تعاليمهم الكف عن ذبح الحيوان حماية له من الألم ، وهم جبرية يدينون بأن أفعال البشر صادرة من إله الخير أو من إله الشر ، أو عن النور والظلمة (١) .

وإذا كان بهرام بن هُرْمُز قد قتل مانى وصلبه فى القرن الرابع الميلادى ، وتعقب أتباعه بالقتل ، فإن بعضهم فروا إلى بلاد الترك ، وما زالوا هناك إلى أن فتح العرب فارس ، فعادوا إلى إيران ، وظهروا فى عهد الدولة الأموية بالعراق وبالكوفة خاصة ، يدل على هذا أن والى الكوفة خالداً القسرى (١٠٥ — ١٢٠ هـ) كان يتعقب المانوية والزنادقة والمجّان ، حتى إنه حرم الغناء ، لأن مجالسه كانت مباءة للفسوق ، ثم أحابه بعد أن اشترط ألا يحضره سفيه أو عربية (٢) .

ثم تكاثروا فى العصر العباسى بأماكن شتى ، حتى إنه كان فى بغداد وحدها حوالى ثلاث مئة من المانوية فى عصر ابن النديم (٣) (القرن الرابع) ، وجعلوا ينشرون مذهبهم ، ويصوبون إلى الإسلام سهامهم .

لكن خلفاء بنى العباس جَدُّوا فى تعقبهم ، وجدوا فى التنكيل بهم ، وشجعوا العلماء على مجادلتهم والردود عليهم ، كالمنصور والمهدى

(١) الفهرست ٤٧٢ والحيوان ٤/٤٤١ .
(٢) الأغانى ٢/١١٩ .
(٣) الفهرست .

والهادى والرشيد والمأمون والمعتصم ، وكانوا لا يترددون فى الفتك من تثبت إدانته منهم .

ولقد استحدث الخليفة المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) منصباً جديداً لمطاردتهم هو منصب (صاحب الزنادقة (١)) ولم ينس أن يوصى ابنه موسى الهادى بقوله :

« يا بنى إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة — يعنى أصحاب مانى — فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ، ومسّ الماء الطهور ، وترك قتل الهوام تحرُّجا وتحوُّبا ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات ، والاغتسال بالبول ، وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ، فارفع فيها الخشب ، وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له »

فلما تولى موسى الهادى ومضت من حكمه عشرة أشهر قال : « أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها ، حتى لا أترك منها عيناً نطرف (٢) » .

لكنه مات بعد شهرين من قوله هذا ، فلم ينكل بالمانوية كما أراد .

روى أن أحد المانوية وهو يزدان بن باذان حجّ ، فنظر المسلمين يهرولون فى الطواف ، فقال : ما أشبِّههم إلا ببقر تدوس فى البَيْدر — الجرن — فقال العلاء بن حَدَّاد للخليفة الهادى :

(١) الطبرى ١٠/١٠ .

(٢) الطبرى ١٠/٤٣ .

أيا أمين الله فى خلقه ووارث الكعبة والمنبر
ماذا ترى فى رجل كافر يشَبِّه الكعبة بالبَيْدر
ويجعل الناس إذا ماسعوا حُمْرا تدوس البُرَّ والدَّوْسَر (١)

فقتله الهادى وصلبه سنة ١٦٩ هـ .

وكان المأمون يمتحنهم بأن يظهر لهم صورة مانى ويأمرهم أن يتفلوا عليها ويبرأوا منه ، فمن أبى قتله ، وفى أيام الخليفة جعفر المقتدر بالله (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) لحق المانوية بخراسان ، خوفاً على أنفسهم ، ومن بقى منهم بالعراق ستر أمره .

٢ — أما كلمة زندقة فقد اختلف كثير من الباحثين فى أصلها وفى دلالتها الأولى ، ولعل أقرب الآراء إلى الصواب أنه كان بين طبقات المانوية طبقة تسمى طبقة السّماعين ، وهم الأحرار الذين لم يلتزموا تعاليم المانوية القاسية من زهد وتقشف ورهبنة ، وطبقة تسمى الصِّدِّيقين — المخلصين المؤمنين — وهم الذين يلتزمون تعاليم المانوية ، ويؤثرون الزهادة والصيام والتغلب على الشهوات ، ويتركون اللحم والخمر والزواج ، وكلمة (صِدِّيق) العربية تستعمل فى العبرية بلفظها ومعناها ، وهى بالآرامية والسريانية زَدِيقْ .

ومن الثابت أن الفارسية الفهلوية تأثرت بالآرامية ، وحرفوها بعض التحريف ، فنطقوها زَنْدِيق ، ثم نقل العرب الكلمة عن الفرس وكسروا زايها لتنسجم مع كسرة الدال .

كانت كلمة (زنديق) تطلق أول الأمر على المؤمن المخلص من

---

(١) الدوسر : مثل الحنطة .

أتباع مانى ، لكن الزرادشتيين نظروا إلى المانوية على أنهم ملاحدة خوارج على الزرادشتية فأطلقوا الكلمة على كل الملاحدة ، وهذا هو المعنى الذى ما زال يفهم من الكلمة فى العصور الإسلامية ، كالذى روى عن أبى يوسف : ثلاثة لا يسلمون من ثلاثة : من طلب النجوم لم يسلم من الزندقة ، ومن طلب الكيمياء لم يسلم من الفقر ، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب (١) .

٣ — ولقد ظهرت الزندقة فى العصر العباسى فى مظهرين : أحدهما الزندقة فى العقيدة ، والآخر الزندقة فى المظهر والسلوك .

(١) الزندقة فى العقيدة

أما الزنادقة الحقيقيون فهم الذين كانوا يدينون بإله النور وإله الظلام ، متأثرين بالمانوية خاصة وبالزرادشتية والمزدكية عامة .

وكانوا ينشرون عقيدتهم فى أول الأمر سرًا ، ثم جعلوا يذيعونها جهراً فى كتب يترجمونها ، وكتب يؤلفونها ، وآراء يزجونها فى الشعر العربى الذى يُرْوَى ، وأحاديث يفترونها على رسول الله .

وفى أوقات الحرج كانوا يعتصمون بالتَّقِيَّة ، فيتظاهرون بالإسلام أو النصرانية أو المجوسية ليَسْلَموا من العقاب .

أما فى فترات التسامح أو خفاء أمرهم على الدولة واطمئنانهم على أنفسهم ، فإنهم كانوا يترجمون كتباً فى الزندقة من الفارسية إلى العربية ، كما فعل ابن المقفع وأبان اللاحقى ، أو يجهرون بمذهبهم ، ويعملون فرادى وجماعات مثل بشار وابن المقفع وعبد الكريم بن أبى

(١) قصة الأدب الفارسى ٥٩ وفجر الإسلام ١٢٧ والفهرست ٤٧٩

Aliterav History of Persia. By Browne. p. 159.

العَوْجاء وابن مُنادز وصالح بن عبد القدوس وَحمَّاد الراوية وحماد عَجْرَد وحماد بن الزِّبْرقان ويحيى بن زياد ومُطيع بن إياس .

من هؤلاء المترجمين لكتب الزندقة عبد الله بن المقفع وأبان اللاحقى ، ترجم الأول كتاب مَزْدَك وغيره من كتب المانوية ، ويقال إن زندقته كانت سبب قتله ، قال له والى البصرة : والله يا ابن الزنديقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة (١) ، وقال الخليفة : ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع (٢) ، وترجم الثانى عدة كتب منها كتاب مزدك وكتاب عن بوذا .

ومن الذين جهروا بعقيدتهم فى الشعر بشار بن بُردْ ، فقد روى أنه كان على مذهب المجوس ، وهذا هو السبب فى تفضيله النار على التراب وتفضيله إبليس على آدم فى قوله :

الأَرض سافلةٌ سوداء مظلمةٌ والنار معبودة مُذْ كانت النار (٣)

وقوله :

إبليس أفضلُ من أبيكم آدم فتبصروا يا معشر الفجَّار
النار عنصره وآدم طينةٌ والطين لا يسمو سموَّ النار

ورد عليه صَفْوان الأنصارى بقصيدة منها :

زعمتَ بأن النار أكرم عنصرا وفى الأرض تحيا بالحجارة والزَّنْد (٤)
وتُخلَقُ فى أرحامها وأرومها أعاجيبُ لا تُحْصَى بخطٍّ ولا عَقْد (٥)

(١) الوزراء والكتاب ١٧٠
(٢) وفيات الأعيان ١٨٧
(٣) الأغانى ٣/٢٠ والبيان والتبين ١/١٦
(٤) يعنى أن النار كامنة فى الحجارة والزند
(٥) الأروم : جمع أرومة وهى الأصل . العقد : ضرب من الحساب .

كذلك سِرُّ الأَرض فى البحر كله … وفى الغَيْضَة الغَنَّاء والجبل الصَّلْد
ولابد من أرض لكل مُطَيِّرِ … وكل سَبُوح فى الغمائر من جُدّ(١)

إلى أن يقول :

مفاخِرُ للطين الذى كان أَصْلَنا … ونحن بنوه غيرَ شك ولا جَحْد
فذلك تدبيرٌ ونفعٌ وحكمةٌ … وأوضحُ برهان على الواحد الفرد(٢)

ونرجح أن تقيتهم كانت أحياناً تخفى حقيقة بعضهم على بعض ، يدل على هذا قول أبى نواس :

كنت أتوهم أن حماد عَجْرَد إنما يُرْمَى بالزندقة لمجونه فى شعره ، حتى حُبستُ معه فى حبس الزنادقة ، فإذا هو إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاوج بيتين بيتين يقرأونه فى صلاتهم (٣) ، ويدل عليه أن بشاراً هجا حماد عجرد بقوله :

يا بن نِهْيَا رأسٌ علىَّ ثقيلُ … واحتمال الرءوس خطب جليلُ
فادعُ غيرى إلى عبادة ربَّيْـ … ـن فإنى بواحد مشغول

فقال حماد : مايغيظنى من بشار إلا تجاهله بالزندقة ، يوهم الناسَ أنه يظن أن الزنادقة تعبد رأساً ، ليظن الجهلة أنه لا يعرف الزندقة ، لأن العامة تقول مثل ذلك ، وهو لا حقيقة له ، وبشار أعلم بالزندقة من مانى (٤) .

---

(٤) الغمائر : جمع غمير وهو الماء الكثير . الجد : يضم الجيم وفتحها شاطىء النهر . أى لابد لكل سابح من شاطىء .
(٥) البيان والتبيين ١/٢٧
(١) الاغانى ١٣/٧٤ وما بعدها
(٢) الأغانى ١٣/٧٦.

ويظهر أن الشعراء الزنادقة أحسوا بحاجتهم إلى الاتحاد والتآخي ، لأن العقيدة الشاذة تجمعهم ، ولأن في تآخيهم نوعاً من الأنس والاطمئنان ، فكانوا يجتمعون على الشراب للمنادمة وقرض الشعر ، ويكادون لايفترقون ، وكانوا يتهاجون جادين وهازلين ، ويطرب بعضهم لهجاء بعض ، وأحياناً يتقاسمون مالهم ، فلا يستأثر أحدهم على صاحبه بمال ، هكذا كان يفعل مطيع بن إياس ويحيي بن زياد الحارثي وابن المقفع ووالبة بن الحُباب (١) .

وكان حديثهم لا يخلو من مجون وخلاعة وتجريح للأعراض ، مر مطيع بن إياس بيحيي بن زياد وحماد الراوية وهما يتحادثان ، فقال لهما : فيم أنتما ؟ قالا : في قذف المحْصَنات . قال : وهل في الأرض مُحْصَنة تقذفانها ؟ !

على أنه كان من الزنادقة من أسلم فخلّف دينه القديم وراءه ، وكان منهم من تاب وأناب وصح دينه وتقاه .

يمثل النوع الأول عبد الله بن المقفع ، أسلم في أواخر حياته ، وكان إلى ليلة إسلامه حريصًا على أن يبيت ليلته على دين ، ذلك أنه قضى حياته إلا بضع سنوات على دين آبائه المجوس ، فلما اعتزم على الإسلام قال له عيسى بن على عم الخليفة المنصور : ليكن إسلامك في مجتمع من القواد ووجوه الناس ، فاحضر غداً .

وفي عشية اليوم نفسه حضر طعام عيسى ، فجلس يأكل ويزمزم على عادة المجوس ، فقال له عيسى : أتزمزم وأنت تعتزم الإسلام في الغد ؟ فقال : أكره أن أبيت على غير دين .

---

(١) الأغاني ١٢/٧٧

وما من شك فى أنه قبل أن يسلم كان مجوسياً ، وكان يبث المجوسية فيما يترجم ويؤلف من كتب ، لكنه بعد إسلامه لم يعرف عنه شىء من هذا القبيل ، فلعل التهمة جائرة أريد بها التنكيل به ، لأن لها سندا من ماضيه الذى انفصل عنه ، ومن شأن التهم ألا تفرق بين ماض وحاضر ، وألا تتبين أو تتحرى .

ويمثل النوع الثانى أبو العتاهية فى حياته الأولى ، فقد كان زنديق العقيدة فى أول أمره ، ثم ندم على ما فرط منه ، وصار من أعلام الداعين إلى التقوى والزهد والخوف من الله ، لكن رواسب من مذهبه القديم ما زالت تطفو على تعبيره ، كقوله :

الخير والشر مزدادٌ ومُنْتَقَصٌ فالخير مُنْتَقَصٌ والشر مُزْدادُ
فالخير ليس بمولود له ولد لكنْ له من بنات الشر أولاد

ومعنى هذا أن العالم كله شر ، لأن الخير دائماً فى نقص ، ولا يلد خيراً ، على حين أن الشر دائماً فى نماء ، لأنه يلد شرا ، ثم إن الخير له من بنات الشر أولاد ، وهذه فكرة مانوية .

وقال :

الخير والشر عاداتٌ وأهواءُ وقد يكون من الأحباب أعداءُ
كل له سعيه والسعى مختلفٌ وكل نفس لها فى سعيها شاءُ
لم تقتحم بى دواعى النفس معصية إلا وبينى وبين النُّور ظَلْماءُ

وهذا صريح فى أن أفعال الخير صادرة من النور ، وأفعال الشر صادرة من الظلمة .

ويبدو أن أبا العلاء المعرى — على أنه لم يتزندق — متأثر فى بعض آرائه بالمانوية وفيها عناصر بوذية كما تقدم ، كأخذه نفسه بالزهد

والعزوبة ، ودعوته إلى ترك الزواج والتناسل ، وامتناعه عن أكل الحيوان وما ينتج منه ، ونظرته إلى العالم على أنه شر يجب الخلاص منه ، من هذا قوله إن العالم مجبول على الأذى والشر :

وفائدة النوم الخروج بأهله   عن عالم هو بالأذى مَجْبُولُ

وقوله ليت الناس لم يخلقوا :

خير لآدم والخلق الذى خُلقوا   من ظهره أن يكونوا قبلُ ماخُلقُوا

وسخطه على الحياة وتحقيرها فى قوله :

أصاح هى الدنيا تشابه مَيْتةً   ونحن حواليها الكلابُ النوابحُ

فمن ظل منها آكلا فهو خاسرٌ   ومن راح عنها ساغباً فهو رابح

ونصحه بترك الزواج والنسل :

نصحتك لاتنكحْ فإنخفتَ مأثما   فأعرِسْ ولاتَنْسُلْ فذلك أحزمُ

ونهيه عن أكل السمك واللحم والبيض والطير وعسل النحل وشرب اللبن ، لأن ذبح الحيوان ظلم ، واغتصاب نتاجه ظلم :

لا أفجع الأم فى الرضيع ولا   أشْرَك هـذا الغرير فى اللَّبنِ

واعتناقه الجبر فى قوله :

ما باختيارى ميلادى ولاَ هَرمى   ولا حياتى ، فهل لى بعد تخيير؟

(٢) الزندقة الشكلية

وكان من أثر الزنادقة أن كثر المجان والخلعاء ومن لا يرعون حرمات الدين ، وإن لم يتزندقوا ، وأُطلق عليهم اسم الزنادقة ، كإبراهيم ابن سيّار ، فإنه كان يُرْمَى بالزندقة ، ولم يعرف عنه قول فى الدين ،

وإنما رمى بها لخلاعته ومجونه ، وكادم حفيد عمر بن عبد العزيز ، كان ماجنا سكيرا ، يروى عنه قول :

اسْقِنى واسْقِ غُصَيْنا لا تَبِعْ بالنقد دَيْنا
اسقنيها مُزَّة الطعْـــم تريك الشَّينْ زَيْنا

فضربه المهدى ثلاث مئة سوط على أن يقر بزندقته ، فقال : والله ما أشركت بالله طرفة عين ، ومتى رأيت قرشيا تزندق ؟ لكنه طرب غلبنى ، وشعر طفح على قلبى ، وأناقتى من قريش ، أشرب النبيذ ، وأقول ما قلت على سبيل المجون ، ثم هجر الشرب والمجون (١) .

ومن هؤلاء أبو نواس ، وله فى الجرأة على الدين شهرة وضروب ، كقوله :

بـكَرَتْ علىَّ تلومـنى فأجبتهـا إنى لأعْـرِفُ مذهب الأبرار
فدعى الملامَ فقد أطعتُ غَوايتى وصرفت معرفتى إلى الإنـكار
ورأيت إتيـانى اللذاذة والهوى وتعجُّلاً من طِيب هذى الدار
أحْرَى وأحـزمَ من تَنَظُّر آجل علمى به رجـمٌ من الأخْبار
ما جاءنا أحد يخـبِّر أنه فى جنـة مَنْ مات أوفى النـار !

كـذلك من آثارها أن اتخذ بعض الناس من التظاهر بهذه الخلاعة وسيلة لوسمهم بالظرف ، وإن لم يكونوا من الزندقة الدينية فى شىء ، كمحمد بن زياد ، فقد كان يتظاهر بالزندقة تظرفا ، فقال فيه الشاعر (٢) :

---

(١) الأغانى ١٤/١٠
(٢) الأغانى ١٧/١٥

يابن زياد يا أبا جعفر أظهرتَ دينا غير ماتخفى
مُزَنْدَق الظاهر باللفظ فى باطِنِ إسلام فتىً عفّ
لستَ برنديق ولكنما أردتَ أن توسم بالظرف

تعقيب

على أن المجون لم يكن طابع العراق ، والزندقة لم تكد لتقرب من أن تكون مرضاً شبه عام ، وإنما كان المجون محدوداً فى دائرة خاصة ، وكانت الزندقة فى العقيدة سمة آحاد أو بضع عشرات من الناس ، ولولا قلة عدد المجان والزنادقة ماسجلت الكتب أسماءهم وأحداثهم ، فمن الخطأ أن نصم العراق فى العصر العباسى بأن المجون طابعه ، أو بأن الزندقة شعاره .

١ — وكيف نغفل عن جمهرة الشعب ، وهم مؤمنون حراص على دينهم ؟ وهل من الإنصاف أن نتناسى تعقب الدولة إياهم وتقتيلها من تثبت زندقته ؟

٢ — ثم كيف نتغاضى عن جمهور العلماء وهم أصحاب جد وورع سواء منهم علماء الدين أو علماء اللغة والأدب ؟

٣ — وهل من المعقول أن نتناسى المعتزلة وهم الذين وقفوا للزنادقة والملاحدة بالمرصاد ، يفسدون عليهم تدبيرهم ، ويردون إليهم أضاليلهم ، ويدفعون عن الإسلام بأقلامهم وألسنتهم ؟

وللمعتزلة مؤلفات شتى فى إبطال ما كانت ترجف به الجهمية والرافضة والثنوية والدهرية ، وطالما ناظروا الزنادقة وأبطلوا دعاواهم ، كما يحدث التاريخ عن واصل بن عطاء ، فيروى عمر الباهلى أنه اطلع

على الجزء الأول من كتاب (ألف مسألة) الذى ألفه واصل للرد على المانوية (١) ، وكقول زوجة واصل إنه كان إذا جن الليل صفّ قدميه للصلاة وأمامه لوح ودواة ، فإذا مرت آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ، ثم عاد إلى صلاته (٢) ، وكان أبو الهذيل العلاف قد ألف ستين كتاباً فى الرد على الزنادقة (٣) .

كذلك حمل عليهم الجاحظ وناقشهم وفَنَّدَ مزاعمهم فى كثير من كتبه ورسائله .

ولم يكتف المتدينون من العلماء بالمناقشة والرد وإبطال أراجيف الزنادقة ، بل حرضوا على قتلهم ، فهذا واصل بن عطاء يغرى بقتل بشار فى قوله :

أما لهذا الأعمى الملحِد المشَنّف المكِنىّ بأبى مُعاذ من يقتله ؟

أما والله لولا أن الغِيلة سَجِية من سجايا الغالية لدسست إليه من يَبْعجُ بطنه فى جوف منزله (٤) .

٤ ــ كذلك عرف العصر العباسى كثيراً من المتصوفة ، وكان للتصوف فيه شأن عظيم ، والمتصوفة أبعد الناس عن المجون وعن الزندقة . على أن العراق وبخاصة بغداد والكوفة والبصرة كانت عامرة بالأحناف والحنابلة ، وهم تقاة حماة للدين ، وكان الحنابلة يتشددون فى مقاومتهم للمنكر ، وينكلون بالخارجين على الإسلام .

(١) المنية والأمل ٢٠

(٢) المنية والأمل ١٩

(٣) المنية والأمل ٢٥

(٤) البيان والتبيين ١٦/١

٥ – وليس من الحق أن نصف عصرا ما بالجد المطلق ، ولا أن نصم عصرا ما باللهو المطلق ، ولا من الحق أن نصور مجتمعاً ما بصبغة نفرٍ منه ، لأن هذا تعميم لا يصح أن يتجاوز نطاق التخصيص .

وهؤلاء النفر الذين اشتهروا فى العراق بالزندقة سواء أكانت فى العقيدة أم فى المظهر ماهم إلا قلة فى مجتمع كبير ، قلة منحرفة فى كثرة لا تشاكلهم فى الدين والأخلاق والنزعات .

وهل من الصواب أن نصف مجتمعنا العربى المعاصر بالمجون والخلاعة لأن نفرا من الناس يشربون الخمر ، ويلعبون الميسر ، ويخادنون ويراقصون ويرتكبون ما يأباه الدين ؟

كذلك من الظلم للمجتمع العراقى فى العصر العباسى أن نصوره مجتمعاً منحلا ، إباحياً مستهيناً بالدين ، حتى فى بغداد نفسها ، كما صوره الدكتور طه حسين فى كتابه حديث الأربعاء .

الحق أن العصر العباسى كان ذا ألوان ونزعات شتى ، وفى بغداد نفسها كان الإلحاد والمجون والزندقة أنصلها لونا ، وأقلها عدداً ، ولكن شذوذها كان السبب فى شهرتها ومعرفة أصحابها ، لأنها خروج على المألوف ، ومصادمة للمجتمع ، ومن شأن الشاذ أن تذيع أخباره ويتناقلها الناس .

٦ – على أن هذا الغلو فى التحلل من العقيده ومن المثل العليا اقتضى نزوعاً آخر يقاومه ، فنشأت جماعة من العلماء والأتقياء تصد الناس عن الاستجابة للزندقة ، وتحبب إليهم التدين ، وترغبهم فى

الآخرة ونعيمها ، وتزهدهم فى متع الحياة الدنيا ، وتحذرهم عقاب الله فى الآخرة .

ولقد استطاعت هذه الطائفة بما أُوتيت من قوة الإيمان ونصاعة البيان أن تعوق تيار الإلحاد ، وأن تهدى الناس إلى الحق والخير .

ولا ننكر أن الخلفاء والولاة ساعدوا دعاة التدين ، وقربوهم إليهم ، فكان فى هذا وفى ذاك تشجيع لهم وتزكية لأقوالهم .

ويقتضينا الإنصاف أن نذكر أن بعض الشعراء قاوموا نزعة الزندقة والإباحة والخلاعة ، وزعيمهم فى هذا أبو العتاهية النبطى الأصل .

والحق أنه لم يخترع الشعر الزهدى ، لأن الأدب العربى عرفه قبله ، لكنه زاد على ما سبق به ، وفصل تفصيلا ، وأكثر إكثارا ، وألح على الناس فى التنفير من اللذة وفى الترغيب فى الطاعة والاستقامة وفى التخويف من الموت والعذاب ، كقوله (١) :

طلبتُك يا دنيا فاعذرتُ فى الطلبْ ... فما نلتُ إلا الغم والهمَّ والنَّصَبْ
فلما بدا لى أننى لستُ واصلا ... إلى لذة إلا بأضعافها تَعَبْ
وأسرعتُ فى دينى ولم أقض بُغْيتى ... هربتُ بدينى منكِ إن نفع الهرب

ولما استنشده الخليفة المأمون أجود ما قاله فى الموت أنشده قوله (٢) :

أنساك مَحْياك المماتا ... فطلبتَ فى الدنيا الثباتا
أو ثقْتَ بالدنيا وأنتَ ترى جماعتها شَتاتا ؟

(١) ديوان أبى العتاهية ٢٥
(٢) الديوان ٥٣

وعزمتَ منك على الحيا ة وطولها عزما بتاتا ؟
يا منْ رأى أبويه فيـمَنْ قد رأى كانا فماتا
هل فيهما لك عِبرةٌ أم خلت أن لك انفلاتا ؟
ومن الذى طلب التَّفَلُّـت من منيته ففاتا ؟
كلٌّ تصبِّحه المنيـة أو تبيِّته بَياتا

على أن التزهيد فى الدنيا ، ومقاومة الإلحاد ، والدعوة إلى التقوى صدرت عن بعض الذين قضوا ردحا من حياتهم فى خلاعة ومجون ، ثم تابوا إلى الرشاد ، مثل أبى نواس فى قوله :

أخى ما بال قلبك ليس يَنْقَى كأنك لاتظن الموت حقا
ألا يابن الذين فَنُوا وبادوا أما والله ما بادوا لتَبْقَى
ومالك — فاعلمنْ — فيها مقام إذا استكملتَ آجالا ورزقا
وما أحدٌ بزادك منك أحظى وما أحدٌ بزادك منك أشقى

الفصـــل الخـــامس

آثار الفرس في الشعوبية

تمهيـــد :

أقبل الفرس على اعتناق الإسلام ، وجعل إقبالهم يتزايد عاماً بعد عام ، حتى جاء العصر الأموى وأكثرهم مسلمون ، وكانوا يعيشون مع العرب ويخالطونهم ويرتبطون بهم برابطة الولاء (١) .

وكان عددهم كبيراً منذ القرن الأول للهجرة ، يدل على هذا أن الموالى بالكوفة كانوا أكثر عدداً من العرب ، وكان أكثرهم من الفرس ، قدموا إلى الكوفة أسرى حرب ، ودخلوا فى الإسلام ، ثم أعتقهم مالكوهم العرب ، فكانوا موالى لهم ، ويدل على هذا أن عدد القتلى فى موقعة الحرة من الموالى – فرس وروم وغيرهم – بلغ ثلاثة آلاف وخمس مئة ، على حين كان قتلى الأنصار نحو ألف وخمس مئة ، وقتلى قريش كذلك (٢) ، هؤلاء الموالى وبخاصة الفرس حنقوا على العرب عامة وعلى بنى أمية خاصة .

أما حنقهم على العرب فراجع إلى أن العرب قوضوا دولتهم ،

---

(١) قد يكون الولاء نتيجة للعتق فينسب العبد إلى سيده الذى أعتقه أو إلى قبيلته ، وقد يكون نتيجة لإسلام أعجمى على يد عربى عاهده على أن يكون مولى له ، وقد يكون ثمرة لإسلام الأعجمى مطلقا سواء أكان عبداً لعربى أم لا ، وسواء أأسلم على يد عربى أم لا ، لهذا سمى الأعاجم بالموالى ، لأن العرب فتحوا بلادهم عنوة ، وكان لهم استرقاقهم ، فإذا تركوهم أحرارا فكأنهم أعتقوهم ، فالموالى إذن هم المعتقون .

(٢) أدب السياسة فى العصر الأموى ٤٣٦ .

واحتلوا بلادهم ، وجعلوهم أتباعاً لهم ، ثم استعلى بعض العرب عليهم ، وهم لم يطيقوا هذا الاستعلاء .

وكانت أبرز ضروب الاستعلاء واضحة فى أعمال بعض الحكام والساسة وبعض العرب الذين ما زالوا متّسمين بطابع الجاهلية .

وقد تعددت مظاهر هذا الاستعلاء ، فمنها ترفع العرب عن تزويج بناتهم للذين أسلموا من فرس وروم ، خطب أحد الموالى بنتاً من أعراب بنى سُلَيْم وتزوجها ، فغضب محمد بن بشير الخارجى ، ورأى أن هذا عار لحق بالعرب ، فركب إلى والى المدينة إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، وشكا إليه ، فأرسل الوالى إلى الزوج ، وفرق بينه وبين زوجته ، ولم يكتف بهذا ، بل ضربه مئتَىْ سوط ، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، وطابت نفس محمد بن بشير بهذا العقاب فقال (١) :

قضيتَ بسنة وحكمتَ عدلا　　ولم تَرِث الحكومةَ من بعيد
وفى المئتين للمولى نَكالٌ　　وفى سَلْب الحواجب والخدود
إذا كافأتهم ببنات كسرى　　فهل يجد الموالى من مَزيد ؟
فأىُّ الحق أنصف للموالى　　مِن اصْهار العبيد إلى العبيدِ ؟

ومن هذه المظاهر احتقار بعض العرب لأبناء الإماء ، فكانوا يصفون ابن الأَمة من عربى بأنه هَجين ، ومعنى هذا أنه مشوب النسب مَعيب ، لأن الهُجنة هى الكلام الذى يعيب قائلَه ، والهجين اللئيم ، والعربى المولود من أمة ، أو من أبوه خير من أمه (٢) .

وكان بنو أمية — والدولة قوية — لا يستخلفونهم ، بدعوى أن العرب لا ترضى أن تخضع لهم (٣) .

(١) الأغانى ١٤/١٥٠. (٢) اللسان والقاموس مادة هجن. (٣) العقد الفريد ٣/٢٩٧ .

فلما ضعفت الدولة ، وهدأت النعرة ، تولى بعضهم كيزيد ابن الوليد وأخيه إبراهيم ، ومروان بن محمد .

ومن عجب أن جهر بتحقير أبناء الإماء عبد الملك بن مروان على مسمع من ابنه مَسْلمة — أمه أمة — وتمثل بشعر يغض من شأنهم ، فرد عليه مسلمة بشعر يرفع من أقدارهم ، فسرَّ عبدُ الملك ، وقبل رأسه ، وأمر له بمئة ألف (١) .

وبلغ التعصب بنافع بن جُبَيْر أنه كان إذا مرت به جنازة قال : من هذا ؟ فإذا قالوا : قرشي ، قال : واقوماه ، وإذا قالوا : عربى ، قال ، وابلدتاه ، وإذا قالوا : مولى ، قال : هو مال الله ؛ يأخذ ما يشاء ، ويدع ما يشاء .

ويذكرون عن نافع هذا أنه قَدَّم مولى ليصلى به ، فسئل عن ذلك . فقال : أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه .

وفى العقد الفريد أمثلة شتى على هذه الشاكلة ، كنداء العرب لهم بالأسماء والألقاب ، لا بالكُنَى ، وكتنحيتهم عن محاذاة العرب فى الصف وهم يمشون ، وإبعادهم عن الصلاة على الميت إذا وجد عرب يصلون عليه (٢) .

وأما حنقهم على بنى أمية بخاصة فمرجعه إلى أسباب عدة .

١ — أنهم الحكام الذين يمثلون العرب العادين على مُلْك الفرس والروم ، وأنهم يؤثرون العرب بالولايات والوظائف ، ويختصونهم بالتقريب والإيثار ، ويقصون الموالى عن الحكم والتكريم .

٢ — ثم إن بعض ولاة بنى أمية أساءوا معاملة الموالى ، فالحجاج

(١) راجع المرأة فى الشعر الجاهلى للمؤلف ١٣٩ ، ٤٠٨ .
(٢) العقد الفريد ٤ / ٣٦٣ — ٣٦٨ .

أمر بألا يؤم الناس فى الصلاة بالكوفة إلا عربى (١) ، وتوقى النَّبط من واسط لما نزل هناك .

٣ — على أن الموالى خشوا على مكانتهم وأرزاقهم لما عربت دواوين الخراج ، والذى يعنينا هنا مايتصل بتعريب ديوان فارس ، فإن الحجاج لما أمر بتعريبه ضاق كتاب الفرس ، كما ضاق من قبلهم كتاب الروم ، وخشوا أن ينضب معين رزقهم ، وأن يفقدوا مظهراً من مظاهر حاجة العرب إليهم ، فقالوا لصالح بن عبد الرحمن — وهو الذى عرب الديوان ، وكان يعرف العربية والفارسية — كيف تصنع بدَهْوَيْه وشِشْوَيْه ؟ فقال : أكتب عُشْرا ونصف عشر . فقالوا له : وماذا تصنع بوَيْد ؟ قال : أكتب أيضًا . فقال بعضهم : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية ، ثم بذلوا له مئة ألف درهم ، على أن يظهر عجزه عن تعريب الديوان ، فأبى ، لهذا قال عبد الحميد ابن : يحيى « لله در صالح ، ما أعظم منَّتَه على الكتاب » يريد الكتاب العرب .

٤ — وقد كان من أسباب كراهيتهم لبنى أمية أن كثيراً منهم كانوا متشيعين منذ عهد على بن أبى طالب ، وأخذ عددهم يتزايد ويتضاعف (٢) . فهم يكرهون الأمويين ، لأنهم مغتصبون للخلافة وهى فى نظرهم حق العلويين ، ولعل هذا كان من حوافزهم إلى مؤازرة الثورات والثائرين ، ولعل كثيراً منهم اصطنع التشيع ليتخذه وسيلة إلى تقويض الحكم العربى .

---

(١) العقد الفريد ١/١٠٧

(٢) راجع أدب السياسة فى العصر الأموى للمؤلف ص ٣٤

لكن جمهرة العرب لم يقيموا علاقاتهم بالعجم من فرس وغيرهم على هذه النعرة ، بل كانوا يرون فى العجم الذين خفق على بلادهم لواء الإسلام إخوة لهم فى الدين ، ولعلهم وجدوا فى هذه النظرة قربة إلى الله ومثوبة ، ووجدوا فيها امتثالا لقوله تعالى :

« إنما المؤمنون إخوة (١) » وقوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم (٢) » وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

ولقد كان لهم أعظم أسوة فى معاملة النبى وكبار الصحابة للموالى وتسويتهم بالعرب ، وهم يعلمون أن عمر تمنى فى آخر لحظة من حياته أن سالما مولى حُذَيْفة حىّ ليعهد إليه بالخلافة ، ويعلمون أن جماعة من أصحاب علىّ مشوا إليه فقالوا : يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال ، وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالى والعجم ، واستَمِلْ من تخاف خلافه من الناس . فقال لهم : أتأمروننى أن أطلب النصر بالْجَور (٣) ؟

ذلك أنهم رأوا معاوية يختص أشراف العرب بعطائه ، فأرادوا من علىّ أن يصنع مثله ، ولم يكن علىّ يفضل شريفا على مشروف ، ولا عربيا على عجمى ، ولا يصانع الرؤساء وأمراء القبائل ، فكان هذا من أقوى الأسباب فى تقاعدهم عنه (٤) .

وكان أكثر المسلمين لا يحتقرون الموالى ، ولا يترددون فى أخذ

---

(١) سورة الحجرات ١٠

(٢) سورة الحجرات ١٣

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١ / ٨٢

(٤) المرجع السابق ١ / ١٨٠ .

العلم عنهم ، كما أخذوا عن الحسن البصرى ، وسعيد بن جُبَير ، وابن جُرَيْج ، وابن سيرين ، وعطاء بن يسار ، وغيرهم ، وكلهم موال ، ويذكر ابن خلكان أن الحسن البصرى كان ينتقد خلفاء بنى أمية ، ويعيب يزيد بن المهلّب ، فجاءه يزيد فى رهط من قومه ، وهمّ أحدهم بقتل الحسن ، فغضب يزيد وقال : أغمد سيفك ، فوالله لو فَعَلْتَ لانقلب مَنْ معنا علينا (١) .

أصداؤها فى العصر الأموى

حنق الفرس على الدولة الأموية ، لأنها عربية تكل شؤونها إلى العرب ، ولأنها لم تنظر إلى الفرس نظرة التقريب والتقدير ، ونقموا من العرب أن بعضهم تعالوا عليهم ، وعدوهم أتباعا وأقل منهم شأناً وأدنى أصلا وحسباً ، مخالفين مايدعو إليه الإسلام من إخاء ومساواة .

لكن الفرس لم يستطيعوا فى العصر الأموى أن يجهروا بشعوبيتهم ، إذ كان بعضهم يدين للعرب بالسيادة والفضل ، لأنهم أهل الدين ، وكان بعضهم يداجى ويكتم ما بنفسه خشية من العرب ، وإن لم يَدِنْ لهم بفضل .

وكان من الطبيعى أن ينادى بعض الفرس بتحقيق المساواة التى شرعها الإسلام وحققها النبى وخلفاؤه الراشدون .

ثم شرعت أصوات فارسية ترتفع ، فتقابل تعالى العرب بمثله . وتباهى بماضى الفرس وسعة ملكهم وعظمة حضارتهم وثراء بلادهم ، وتميّز بعض هذه الأصوات بالجرأة على العرب والتنديد بهم فى رمز ومواربة .

---

(١) وفيات الأعيان ٢/٤٠٨

ويظهر أن شعراء العرب هم الذين بداوا بالتهجم على الموالى فى العصر الأموى ، فقد مرت أبيات لمحمد بن بشير فى تحقيرهم وأنفته من إصهارهم إلى عربى ، وفى شعر جرير والفرزدق جرح لهم وزراية بهم (١)

فلما مضى من عمر الدولة الأموية نحو نصفه ، بدأ نجم الأعاجم يتألق وبخاصة منذ عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ ﻫ) وكان لهذا التألق عدة أسباب ، إذْ اشتهر بالعلم والورع كثير ممن ولدتهم أمهات غير عربيات ، وكان بعض أمراء بنى أمية من أمهات فارسيات كيزيد بن المهلّب وأخيه إبراهيم ، ويزيد هو القائل :

أنا ابن كسرى وأبى مروان وقيصر جدى وجدى خاقان

ومن هؤلاء الأمراء مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وكان بنو أمية قد بدأوا يخففون من زرايتهم بالموالى ، لأنهم كثرة يخشون منهم على الدولة ، ولا سيما أنهم ضالعون مع الشيعة ، والدعوة الشيعية تنتشر فى خراسان ، والفرس يَهَشُّون لها .

وفى هذا الوقت كان بعض الموالى من الفرس قد أجادوا الشعر العربى كزياد الأعجم مولى عبد القيس ، وأبى العباس الأعمى مولى بنى الدِّيل ، ويزيد بن ضَبَّة مولى ثقيف ، وإسماعيل بن يسار .

وليس من الطبيعى أن يطيق هؤلاء مايلقون من تحقير وإبعاد ، فشرعوا ينفسون عن أنفسهم ، فيباهون بمجد الفرس وعظمتهم ، ويندّدون بالعرب تنديداً مستورا ، ويتهجمون عليهم فى لمح خاطف .

والأمثلة على هذا كثيرة ، منها أن هشام بن عبد الملك دعا إسماعيل

---

(١) ادب السياسة فى العصر الأموى ٤٧٥

ابن يسار لينشده ، وكان لا يتوقع منه غير المدح ، فإذا به يسمع مباهاة بالفرس كقوله :

أصلى كريمٌ ومجدى لا يُقاسُ به ... ولى لسان كحدِّ السيف مسمومِ
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب ... من كل قَرْم بتاج الملك معموم
مَنْ مثلُ كسرى وسابور الجنود معا ... والهُرْمُزانِ لفخر أو لتعظيم
هناك إن تَسْألى تُنْبَىْ بأن لنا ... جرثومةً قهرتْ عِزَّ الجراثيم

فغضب هشام وسبه ، وأمر به فأُلقى فى بركة حتى كاد نفسه تخرج ، ثم نفاه إلى الحجاز (١) .

ولم يكن إسماعيل بن يسار يقنع بهذا الفخر وما يماثله ، بل جعل يتهجم على العرب كقوله :

فاتركى الفخر يا أمامَ علينا ... واتركى الجَوْر وانطقى بالصوابِ
واسألى إن جهلتِ عنا وعنكم ... كيف كنا فى سالف الأحقاب
إذْ نربىّ بناتنا وتدسُّو ... ن سَفَاها بناتكم فى التراب(٢)

وكان أشعب فى السامعين ، فقال له : صدقت والله ، أراد العرب بناتهم لغير ما أردتموهن له . قال إسماعيل : وما ذاك ؟ قال أشعب : دفن العرب بناتهم خوفاً من العار ، وربيتموهن لتنكحوهن ، فضحك القوم ، وخجل إسماعيل .

كذلك كان يزيد بن ضَبَّة يفاخر بالفرس ، كقوله :

ألم تر أننا لما ولينا ... أمورا خُرِّقَتْ فَدَهَت سَدَدْنَا
ولينا الناسَ أزمانا طوالا ... وسُسْناهم ودُسْناهم وقُدْنا
ألم تر مَنْ ولدنا كيف أشبَى ... وأشْبَيْنَا وما بهمُ قعدنا (٣)

---

(١) الأغانى ٤ / ٤٠٨ قرم : سيد . معموم : معمّم والمراد متوج .
(٢) الإغانى ٤/١٢٠ . (٣) أشبى : ولد له ولد كيس .

وقد أنشد أمام الوليد بن عبد الملك شعرا يفخر فيه بالفرس ، فلم ينكره عليه .

ونلاحظ أنهم كانوا فى العصر الأموى كثيراً ما يكتفون بالفخر ، فإذا ما أرادوا التعرض للعرب اعتمدوا على الكناية والرمز بهند وأمامة ونحوهما .

أصداؤها فى العصر العباسى

انتهى العصر الأموى ، وصوت الموالى خافت ، فلما جاء العصر العباسى علا صوتهم ودوّى ، إذ اتسع المجال أمامهم ، واطمأنوا إلى حريتهم المكفولة ، واستباحوا تسامح الدولة ، واستمتعوا بنفوذ عظيم فى قصور الخلفاء ودواوين الحكام ، بل كانت الوظائف الكبار مقصورة على الفرس .

وإذا كان قليل جداً من الموالى قد تولوا بعض أعمال عامة فى عهد بنى أمية ، فإن توليتهم فى عهد بنى العباس صارت القاعدة والأساس ، فأكثر من ولاّهم المنصور موالٍ ، ثم حاكاه من جاءوا بعده ، وقد كان المأمون يؤثر الفرس جَهْرة ، ويشك فى ولاء العرب له كما تقدم .

لهذا شَرِقَتْ قصور الخلفاء بالموالى من رجال ونساء ، وغص الجيش بهم ، حتى إن الفضل بن يحيى البرمكى اتخذ جنوداً من خراسان سماهم العباسية ، جعل ولاءهم للعباسيين ، بلغ عددهم خَمْس مئة ألف ، وقدم منهم إلى بغداد عشرون ألفاً ، ثم جاء المعتصم فاستخدم الترك ، وآثرهم على الفرس ، فتنافس الترك والفرس على السلطان ، وصار بأسهم بينهم

شديداً ، لكن الترك انتصروا ، ففقد الفرس والعرب مكانتهم ونفوذهم (١) .

كانت الحالة السياسية والاجتماعية مواتية للفرس فى العصر العباسى . فجهروا بشعوبيتهم فى غير تعريض ولا كناية كما سنبين .

على أن بعض أبناء الفرس ما زالوا يشعرون بحاجتهم فى العصر العباسى إلى الاحتماء بالولاء وبالانتساب إلى العرب ، كان لعلى بن الخليل الكوفى صديق من الدهاقين يعاشره ويبرُّه ، فغاب عنه مدة طويلة ، ثم عاد إلى الكوفة وقد أصاب مالاً ورفعة ، وقويت أحواله ، فادعى أنه من تميم ، فجاءه على بن الخليل ، فلم يأْذن له ، ولقيه فلم يسلم عليه ، فقال يهجوه :

يروح بنسبة المولى ويصبح يَدَّعى العربا
فلا هذا ولا هذا ك يدركه إذا طَلبا

إلى أن يقول :

جحدتَ أباك نِسْبَتَهُ وأرجو أن تُفيد أبا (٢)

وكذلك هجا أبو العتاهية والبةَ بن الحُباب لما ادعى نسبه فى العرب ، ودعاه إلى أن يعتصم بنسبه فى الموالى مثله :

أو البَ أنت فى العُرْب كمثل الشِّيص فى الرُّطَب
هلمَّ إلى الموالى الصِّيـ ـد فى سعة وفى رَحَب
فأنت بنا لعَمْرُ الله أشبه منك بالعرب (٣)

(١) أدب السياسة فى العصر الأموى ٤٩٠ .
(٢) الأغانى ١٣/١٨ .
(٣) الأغانى ١٦/١٤٩ .

١ — فخر شعراء الفرس وتهجمهم على العرب

علت أصوات فارسية تفخر بمجد الفرس وعظمتهم ، وتجهر بتحقير العرب ، وتعيرهم الفقر والجدب وشظف العيش والجهل والفوضى ووأد البنات ، وتذكرهم بأنهم كانوا عملاء كسرى أو حراسا على قوافله التجارية القادمة إلى بلادهم .

من فخرهم قول بشار بن بُرْد :

ونُبِّئتُ قوما بهم جِنَّةٌ يقولون : مَنْ ذا ؟ وكنت العَلَمْ
ألا أيها السائلى جاهدا ليعرفنى أنا أنف الكَرَم
نَمَتْ فى الكرام بنى عامر فُروعى ، وأَصْلى قريشُ العَجَمْ

ويسأله المهدى : من أى العجم أنت ؟ فيقول : من أكثرها فى الفرسان ، وأشدها على الأقران ، أهل طخارستان .

ويقول أيضاً :

وهجانى معشر كلهم حمُق دام لهم ذاك الحمق
ليس من جُرْم ولكن غاظهم شرفى العارض قد سدَّ الأُفق
من خراسان وبيتى فى الذُّرى ولدى المسعاة فَرْعى قد سَمَق

وكان يتبرأ من ولائه للعرب ، ويحض الموالى على نبذ ولائهم فى قوله :

أصبحت مولى ذى الجلال ، وبعضُهمْ مولى العُرَيْب ، فجُدْ بفضلك فافْخَرِ
مولاك أكرمُ من تميم كلها أهل الفَعال ومن قريش المَشْعَرِ
فارجع إلى مولاك غير مدافَع سبحان مولاك الأجل الأكبرِ

وقد لامه شريف من بنى زيد على دعوته الفرس لنبذ ولائهم ، وقال له : قد أفسدت علينا موالينا ، تدعوهم إلى الانتفاء منا ، وترغبهم فى الرجوع إلى أصولهم ، وإلى ترك الولاء ، وأنت غير معروف الأصل .

فقال له بشار : والله لأصلى أكرم من الذهب ، ولفرعى أزكى من عمل الأبرار ، وما فى الأرض كلب يود أن يستبدل نسبه بنسبك (١) .

كذلك قال المتوكلى (٢) وهو من شعراء الخليفة المتوكل ونديمه :

أنا ابن الأكارم من نَسْلِ جَمْ ... وحائزِ إرثِ ملوك العجم (٣)

ومحيي الذى باد من عزهم ... وعفّى عليه طِوال القِدَم

وطالب أوتارهم جَهْرَةً ... فمن نام عن حقهم لم أنم

معى عَلَمُ الكابيان الذى ... به أرتجى أن أسُود الأُمم (٤)

فقل لبنى هاشم أجمعين ... هلموا إلى الخَلْع قبل النَّدم

ملكناكمُ عَنْوَةً بالرما ... ح طعْناً وضربا بسيف خَذِم

وأولاكمُ الملكَ آباؤنا ... فما إن وفيتم بشكر النعم

فعودوا إلى أرضكم بالحجاز ... لأكل الضِّباب ورعى الغنم

فإنى سأعلو سرير الملوك ... بحد الحسام وحَرْف القلم

ولما أنعم الله على مهيار الديلمى الفارسى بنعمة الإسلام سنة ٣٩٤ ه قال قصيدة يشيد فيها بالإسلام ، ويهجن قومه بعبادة النار :

تبدَّلْتُ من ناركم رَبَّها ... وخُبْثِ مواقدها الخُلْدَ طِيبا

لكنه كان يفاخر بنسبه الفارسى ، ويخلطه أحياناً بفخره بالإسلام كقوله :

أعجبَتْ بى بين نادى قومها ... أمُّ سعد فمضَتْ تسأل بى

سرها ما علمَتْ من خُلُقى ... فأرادت علمها ما حسبى

---

(١) الأغانى ٣/٥١ .

(٢) معجم الأدباء ١/٣٢٣ .

(٣) جم : يعنى جمشيد ملك الفرس .

(٤) الكابيان : نسبة إلى كابة وهو حداد فارسى رفع علم الثورة .

لا تخالى نسباً يخفضنى أنا من يرضيك عند النسب
قومى استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رءوس الحقب
عمّموا بالشمس هاماتهمُ وبنوا أبياتهم بالشُّهُب
وأبى كسرى علا إيوانُهُ أين فى الناس أبٌ مثل أبى ؟
قد قبستُ المجدَ من خير أب وقبست الدين من خير نبى
وضممتُ الفخرَ من أطرافه سُؤْدُدَ الفرس ودين العرب

أما أبو نواس فقد تهجم على العرب بوسيلة أخرى ، هى تهكمه الكثير بطريقة العرب فى التقديم لقصائدهم بالغزل وبكاء الأطلال ، ودعوته الملحة إلى بدء القصائد بالخمريات .

وقد يُظَن أن هذا لون من التجديد أراد أن يلون به الشعر العربى ؛ لكن هذا الظن لا يلبث أن يتوارى إذا ما لحظنا سخريته بالعرب ، وتهوينه من شأن قبائلهم ، وقد كان يستطيع أن يجدد بغير تندر وسخرية وتحقير ، كما فعل المتنبى حينما عجب من الشعراء المتكلفين للحب ، إذ افتتحوا مدائحهم بالغزل ، فهو على حق فى عجبه ، وهو لم يَتَعَدَّ العجب إلى الحملة على العرب ، قال المتنبى (١) :

إذا كان مدح فالنسيب المقدَّمُ أكلٌّ بليغ قال شعرا متيَّمُ ؟

وشتان بين هذا وقول أبى نواس (٢) :

تبكى على طَلَلِ الماضين من أَسَدِ لا دَرَّ دَرُّك قل لى مَنْ بنو أسَد ؟
لا جف دمع الذى يبكى على حَجَر ولا صفا قلب من يصبو إلى وَتَد
كم بين ناعت خمرٍ فى دساكِرها وبين باك على نُؤْى ومُنْتَضَد

(١) شرح ديوان المتنبى ٢/٢٤٩ .
(٢) ديوان أبى نواس ٢٦٦

وقوله (١) :

صفة الطلول بلاغة القِـدَمِ ... فاجعل صفاتك لابنة الـكَرْم

وقوله (٢) :

لاتبك ليلى ولا تطرب إلى هند ... واشرب على الوَرْد من حمراءَ كالوَرْد

وقوله (٣) :

دع الأطلال تَسْفيها الجنوبُ ... وتبكى عَهْدَ جِدّتها الخطوب

وخلِّ لراكب الوَجْناء أرضا ... تُحَثُّ بها النجيبة والنجيب

.....

وهـذا العيش لا خِيمُ البوادى ... وهـذا العيش لا اللبن الحليب

فأين البدو من إيوان كسرى ... وأين من الميادين الزُّروب ؟

ولما حبسه الرشيد لتهتـكه ومجونه قال (٤) :

أعِرْ شعرك الأطلال والمنزل القَفْرا ... فقد طالما أزرى به نَعْتُك الخمرا

دعانى إلى نَعْت الطلول مُسَلَّط ... تضيق ذراعى أن تَرُدَّ له أمرا

فسَمْعاً أمير المؤمنين وطـاعةً ... وإن كنتَ قد جَشَّمْتَنى مسلكاوَعْرا

٢ — مؤلفات الفرس فى التهجم على العرب

ألف الفرس كتباً شتى فى الانتصار لأنفسهم ، بعضها فى الإشادة بمناقبهم ومناقب العجم (٥) عامة ، وبعضها فى الانتقاص من العرب وذكر مثالبهم .

---

(١) الديوان ٣٢٣ .

(٢) الديوان ٢٦٥ .

(٣) الديوان ٢٤٤ .

(٤) الديوان ٢٨٢ .

(٥) الفهرست ٤٢ ، ٥٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٥٥

فمن الضرب الأول كتاب فضل العجم على العرب ، وكتاب انتصاف العجم من العرب لسعيد بن حُمَيْد البختكان ، وكتاب فضائل الفرس لأبي عُبَيْدة مَعْمر بن المثنى .

ومن الضرب الثانى كتاب المثالب لعَلاَّن الفارسى الذى جرح فيه العرب ، وتناول القبائل كلها بالثلب ، وكتاب المثالب الكبير ، وكتاب المثالب الصغير ، وكتاب أسماء بغايا قريش فى الجاهلية ، ألفها الهَيْثم بن عَدِىّ ، وكتب أخرى ألفها سهل بن هارون رئيس بيت الحكمة ببغداد ، وكتاب لصوص العرب ، وكتاب أدعياء العرب لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، وكتاب مثالب العرب والإسلام ليونس بن أبي فَرْوة ، وقد شخص به إلى إمبراطور الروم ، فأعطاه جائزة (١) .

وإنه لمن الخير الكثير أن هذه الكتب وأمثالها قد فُقدت ، ولم يبق منها إلا فقرات أو رسائل قصار نعثر عليها فى بعض كتب الأدب مثل كتاب العرب لابن قتيبة ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وعيون الأخبار لابن قتيبة .

والعجب أن المأمون لم يجد بأساً فى مؤلفات سهل بن هارون القيم على بيت الحكمة فى عهده ، ولا فى مؤلفات معاصريه ، لأن بعض الشعوبية كانوا من خاصته .

وعمد خصوم العرب إلى كل فضيلة من فضائلهم فمسخوها مسخا وشوهوها تشويهاً ، وتنقصوا من أقدارهم فى كثير من شؤون الحياة .

فعابوهم بتخلفهم فى أفانين الحرب ، وأنواع السلاح ، وسخروا

---

(١) الأغانى ٧٦/١٣ وأمالى المرتضى ٨٩/١ .

من مواقفهم الخطابية إذ يكثرون من الإشارة بأيديهم أو بمحاضرهم (١) وعصيهم وقضيهم .

وأنكروا عليهم فصاحتهم وبراعتهم الخطابية ، وقالوا إن الأُمم كلها تستطيع الخطابة ، حتى الزنج الأغنياء يستطيعون أن يطيلوا الخطب ، ثم زعموا أن الفرس واليونان والهنود أقدر على الخطابة الممتازة بالأفكار والتعبير الجيد .

من أمثلة ذلك قولهم :

« لم تزل الأُمم كلها من الأعاجم فى كل شق من الأرض لها ملوك تجمعها ، ومدائن تضمها ، وأحكام تدين بها ، وفلسفة تنتجها ، وبدائع تفتقها فى الأدوات والصناعات مثل صنعة الديباج ولعبة الشطرنج ورمانة القُبّان ، ومثل فلسفة الروم فى ذات الخَلْق ، والقانون ، والاصطرلاب .....

ولم يكن للعرب مَلِك يجمع سوادها ، ويضم قواصيها ، ويقمع ظالمها ، وينهى سفيهها ، ولا كان لها قط نتيجة فى صناعة ، ولا أثر فى فلسفة ، إلا ما كان من الشعر ، وقد شاركتها فيه العجم ، وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض ، فما الذى تفخر به العرب على العجم ؟ فإنما هى كالذئاب العادية والوحوش النافرة يأكل بعضها بعضاً (٢) .

٣ — اختلاقهم اقاصيص وأحاديث نبوية

ثم إن بعضهم حاربوا العرب بأسلحة أُخرى أشد خفاء ، وأسرع نفاذاً ، وأسهل تصديقاً ، فالذى يقرأ كتابا فى مفاخر العجم أو فى

(١) المخصرة : العصا والمقرعة والعكازة والقضيب .

(٢) العقد الفريد ٢/٢٥٥ .

مثالب العرب يتراءى له الشك فيما يقرأ ، وكثيراً مايعرضه على موازين من عقله وخبرته وثقافته فيرفضه ، عمد بعض المتعصبين على العرب من الفرس إلى طريقة جديدة لايعترضها شك أو رفض ، هى أنهم اختلقوا أخباراً وأقاصيص تنتقص من أقدار العرب ، فسّروا بها بعض الأمثال ، وشرحوا بها بعض الشعر ، وأطالوا بها الأخبار .

وكذلك فعلوا فى الحديث الشريف ، فوضعوا من الأحاديث مايرفع من قدرهم (١) . كزعمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قوله تعالى : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم (٢) » فقيل من يستبدل بنا ؟ فضرب على منكب سَلْمان الفارسى ، وقال : هذا وقومه ، والذى نفسى بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لناله رجالٌ من فارس .

وكزعمهم أن العجم ذُكِرت عند رسول الله فقال : « لأنا بهم أوثَقُ منى بكم » ، وزعمهم أن رسول الله قال : « سيأْتى ملك من ملوك العجم فيظهر على المدائن كلها إلا دمشق » .وقال : « لاتسبو فارسا ، فما سبّه أحد إلا انتقم منه عاجلا أو آجلا » .

كذلك ادعوا أن رسول الله أخبر بظهور أبى حنيفة وافتخر به ، فقال : إن آدم افتخر بى ، وأنا أفتخر برجل من أمتى اسمه نُعْمان وكنيته أبو حنيفة ، هو سراج أمتى ، وقوله : إن سائر الانبياء يفتخرون بى وأنا أفخر بأبى حنيفة من أحبه فقد أحبنى ، ومن أبغضه فقد أبغضنى .

على أن الزنادقة من الفرس حاولوا تحت ستار الإسلام الذى اعتنقوه ظاهريا أن يفسدوا عقائد المسلمين بطرق شتى ، منها وضع أحاديث

---

(١) الإصابة وتيسير الوصول وابن عابدين ورسائل البلغاء .

(٢) سورة محمد ٣٨

سبوية تبلبل المسلمين وتدعهم من أمور دينهم فى حيرة ، كالذى فعله عبد الكريم بن أبى العَوْجاء ، وقد اعترف حين قتله المنصور بأنه وضع أربعة آلاف حديث افتراها على الرسول .

يقول ابن الأثير : « فلما يئس أعداء الإسلام من استئصاله بالقوة ، أخذوا فى وضع الأحاديث المكذوبة وتشكيك ضعفة العقول فى دينهم بأمور قد ضبطها المحدِّثون ، وأفسدوا الصحيح بالتأويل والطعن عليه ، وألقوا إلى كل من وثقوا به أن لكل عبادة باطنا ، وأن الله تعالى لم يوجب على أوليائه ومن عرف الأئمة والأبواب صلاة ولا زكاةً ولاغير ذلك ، ولا حرَّم عليهم شيئاً ، وأباحوا لهم نكاح الأمهات والأخوات ، وإنما هى قيود للعامة ، ساقطة عن الخاصة ، وكانوا يظهرون التشيع ليستروا أمرهم ، ويستميلوا العامة ، وتفرق أصحابهم فى البلاد ، وأظهروا الزهد والعبادة ، ليغروا الناس بذلك وهم على خلافه . . . وتفرقت هذه الطائفة فى البلاد ، وتعلموا الشعبذة والنارنجيات والنجوم فهم يحتالون على كل قوم بما ينفق عليهم ، وعلى العامة بإظهار الزهد .

٤ — ادعاؤهم التوحيد وتقديس الكعبة

لجأ الفرس إلى وسائل أخرى يبدو ظاهرها بعيداً عن الشعوبية وعن الانتقاص من قدر العرب ، ولكنها فى حقيقتها منافسة للعرب فى شرفهم بأنهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم ، وفى فخرهم بأنهم سَدَنة بيت الله منذ رفع إبراهيم وإسماعيل قواعده إلى اليوم .

---

(١) الكامل فى التاريخ ٢١/٨ .

فزعم الفرس أن لأجدادهم سابقة إلى التوحيد ، ليَفْضُلوا العرب الذين كان أجدادهم عبدة أصنام ، وزعموا أن بعض سلفهم كانوا يحجون إلى الكعبة ، ويهدون إليها وهم يريدون بهذا أن يشاركوا العرب فى هذا الفخار . يقول المسعودى : وقد كان أسلاف الفرس يقصدون البيت الحرام ويطوفون به تعظيما له ولجدهم إبراهيم عليه السلام ، وتمسكا بهديه ، وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك ، وهو جد أردشير بن بابك ، وهو أول ملوك ساسان وأبوهم الذى يرجعون إليه كرجوع المروانية إلى مروان بن الحكم وخلفاء العباسيين إلى العباس ابن عبد المطلب .

فكان ساسان إذا أتى البيت الحرام طاف به وزمزم على بئر إسماعيل ، فقيل إنما سميت زمزم لزمزمته عليها هو وغيره من فارس ، وهذا يدل على ترادف كثرة هذا الفعل منهم على هذه البئر ، وفى ذلك يقول الشاعر فى قديم الزمان :

زمزمت الفرس على زمزمِ   وذاك فى سالفها الأَقْدمِ

ويقول شاعر فارسى بعد ظهور الإسلام :

ومازلنا نحج البيت قِدْما   ونُلْقِى بالأباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى   أتى البيت العتيق يطوف دينا
فطاف به وزمزم عند بئر   لإسماعيل تُرْوِى الشاربينا

وقد كان ساسان أهدى إلى الكعبة غزالين من ذهب وجواهر وسيوفا وذهباً كثيراً فقذفه فى زمزم .

وأضاف الفرس إلى هذه المزاعم زعماً آخر يصلهم بالأنبياء ، فقد

ذكر المسعودى (١) أن الناس تنازعوا فى أنساب الفرس ، ويفهم من هذا التنازع أنهم يرجعون إلى سام بن نوح أو إلى يوسف بن يعقوب أو إلى لوط أو إلى إسحاق بن إبراهيم ، وأرادوا أن يضفوا على هذا الزعم ثقة الناس ، فنحلوا جريرا شعراً يردد هذا الفخار .

٥ — فى المناصب الكبيرة

من الطبيعى أن تهب أعاصير الشعوبية على المناصب الكبار فتزعزعها أحياناً أو تعصف بها أحياناً .

وقد كانت الوزارة والقيادة أكثر تعرضا لهذه الهزات ، وبخاصة فى العصر العباسى الأول ، إذ رأينا بضعة من الوزراء يُقْتلون ، وأغلب الظن أن تنافس الكبار من سادات العرب وأشراف الفرس ، وتعصب بعضهم على بعض ، كان من أسباب العزل والقتل ، فصار من المألوف أن يعيش الوزير متخوفا على حياته ، وأن يرفض بعضهم منصب الوزارة حينما يعرض عليه ، حتى إنه لاعجب فى أن ودّ الشاعرُ لعدو ممدوحه أن يكون وزيراً :

إن الوزير وزيرَ آل محمد   أَوْدَى ، فمن يَشْنَأْك كان وزيرا

وحسبنا هذه الأمثلة :

١ — كان أبو أيوب المورياني وزير المنصور جالساً فى الديوان يصرف شؤونه ، فأتاه رسول الخليفة ، فامتقع لونه ، وطارت عصافير رأسه ، وذعر ذعرا شديدا ، فسأله الجاحظ ومن حضر ، فقال لهم : لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفى مع ما ترون من تمكن حالى (٢) .

---

(١) مروج الذهب ١/١٩٦ .

(٢) الحيوان ٢/١٣٢ .

٢ ـ وعرضت الوزارة على أحمد بن أبي خالد بعد أن قتل المأمون وزيره الفضل بن سهل ، فرفض ، وقال : لم أر أحدا تولاها وسلمت حاله .

٣ ـ وكان نُعَيْم بن أبي حازم العربي يتنافس مع الفضل بن سهل الفارسي فى مجلس المأمون ، فأثنى الفضل على العلويين ، وأيد نقل الخلافة إليهم ، فقال له نعيم : إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بنى العباس إلى ولد علىّ ، ثم تحتال عليهم فتصير ملكا كسرويا (١) .

٤ ـ وكان الأفشين القائد الفارسى للمتصم وكان أبو دُلَف العجلى القائد العربي ، وكان الأول يكره العرب أشد الكره ، وكان أبو دلف يعتز بعروبته ، ويعتمد على مكانته فى عِجْل وغيرها من ربيعة ، ويستحق إشادة الشعراء بكرمه وشجاعته ، وهمّ الأفشين بقتله لولا أن أحمد بن دُوَاد قاضى المأمون والمعتصم سارع إلى الأفشين وهدده .

٦ ـ الثورات الانفصالية

كذلك تجلت الشعوبية فى ثورات انفصالية قام بها الفرس ، ليقوضوا الحكم العربي ، ويسترجعوا ما كان لهم من استقلال ، وهذه أمثلة منها :

١ ـ لما قتل المنصور أبا مسلم الخراسانى سنة ١٣٧ هـ (٧٥٥ م) هاج جنده واستلوا سيوفهم ، واعتزموا على الأخذ بثأره ، لكن المنصور استرضاهم بالمال ، وأقنعهم بخيانة أبي مسلم وفساد طويته ، فانصرفوا راضين .

---

(١) الوزراء والكتاب ٣٩٧ .

لكن الثورة لأبى مسلم لم تلبث أن قامت فى العام التالى بالجزيرة وفارس إذ هبّ أهل فارس بقيادة سونباذ المجوسى للأخذ بثأر أبى مسلم واستطاع الثوار أن يستولوا على البلاد ما بين الرّى وَنيسابور ، وقتلوا الرجال ، وسبوا النساء إلى أن أخمد المنصور الثورة ، وأخضع الثوار .

٢ ـ ولقد يكون من محاولة الثأر لأبى مسلم أن ثار فى سنة ١٤١ هـ جماعة من خراسان هم الراوندية (١) ، وهم يقولون بتناسخ الأرواح ويزعمون أن روح آدم حلت فى زعيمهم عثمان بن نَهيك ، وأن ربهم الذى يطعمهم وَيسقيهم هو أبو جعفر المنصور ، وأن الهيثم بن معاوية هو جبريل ، واجتمعوا حول قصر المنصور فى الهاشمية (٢) ، فجعلوا يقولون : هذا قصر ربنا ، وَيطوفون به ، فأرسل المنصور إلى رؤسائهم وقبض على مئتين منهم ، وسجنهم ، فغضب الآخرون وهجموا على السجن ، وأخرجوا أصحابهم ، فخرج المنصور لإخماد فتنتهم ، وكاد يقتل لولا أن أنقذه القائد العربى العظيم معن بن زائدة الشيبانى ، وجاءت قوات الجيش فحملت على الثوار وقتلتهم جميعاً .

٣ ـ ثم ثارت المقنّعة فى عهد المهدى سنة ١٥٨ هـ و ١٦٠ هـ ـ أتباع هاشم بن حكيم المعروف بالمقَنّع ـ لأنه كان يخفى قبح وجهه ودمامة خلقه بقناع من ذهب ـ وزعموا أن روح الله ظهرت فى آدم ثم فى نوح ثم فى أبى مسلم ثم فى المقنع ، وادعوا أن الدين اعتقاد لاعمل ، وكان عددهم كبيراً ، ولكن المهدى انتصر عليهم ، وهؤلاء هم الذين يسمون (المبيِّضة) لأنهم اتخذوا اللباس الأبيض شعاراً لهم .

---

(١) الراوندية بلد قرب قاشان .

(٢) الهاشمية مدينة أسسها أخوه أبو العباس .

٤ — وما كاد المهدى يفرغ من القضاء على المقنعة أو المبيضة حتى دوى نذير ثورة المحمرة فى إقليم جرجان ، وهى طائفة اتخذت اللباس الأحمر شعاراً لها ، وكانت لها تعاليم هى خليط من المزدكية والمانوية ، نشرتها بين الناس فى خراسان وغربى فارس والعراق .

نهض المهدى ليقضى على هذا المذهب الهدام الذى نشر الرذيلة ، وفصم الروابط الأسرية وأسقط من هيبة الحكومة ، وزعزع الثقة فى النظام الدينى والاجتماعى ، وأباح اختطاف الأولاد والنساء ، وتذرع المهدى بالقسوة فى محاربة المحمرة حتى فلّ قواهم ، وأراح الشعب من شرورهم .

٥ — فى عهد المأمون ثار بابك الخُرّمى (٢٠١ — ٢٢٢ ه) وهو من كورة فى شمال فارس ، ودعا الناس إلى اعتناق مذهبه الإباحى من خمر ونكاح للمحرمات واجتراء على المناكر واللذات ، وكان — كما يقول ابن النديم — يزعم لأتباعه أنه إله ، ولاشك أن مذهبه امتداد أو إحياء للمزدكية .

عرف المأمون خبره ، فعزم على مطاردته ، والقضاء عليه وعلى مذهبه الهدام ، فندب لحربه يحيى بن معاذ ، فلم يستطع أن يغلبه ، فاختار قائدا آخر هو عيسى بن محمد بن أبى خالد ، فعجز أيضاً ، فرماه بقائد ثالث فهزمه بابك وأسره ، ثم قتل القائد الرابع محمد ابن حُمَيْد الطوسى ، وبدد عسكره ، فرثاه أبو تمام بقصيدة من عيون قصائده يقول فيها :

كذا فليجلّ الخطب وليَفْدحِ الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عُذْرُ

تُوفِّيت الآمال بعد محمد وأصبح فى شغل عن السَّفَر السَّفْرُ

فتى مات بين الطعنِ والضرب مِيتة ... تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
وقد كان فَوْتُ الموت سهلا فردَّهُ ... إليه الحِفاظُ المرُّ والخلق الوعْرُ

واستفحل أمر بابك ، وكثر أتباعه من أهل الجبال من همذان وأصبهان وماسبذان وغيرها ، وشغل المأمون عنه بالدولة البيزنطية ، ثم مات المأمون ، وكتب قبل موته يوصى أخاه المعتصم بالقضاء على بابك « والخرّمية فأغِزهم ذا حزامة وصرامة وجلد ، واكْنُفْه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة ، فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعمل فى ذلك مقدِّم النية فيه ، راجيا ثواب الله عليه (١) » .

لم يتوان المعتصم فى القضاء على بابك الذى عظم شأنه فى أذربيجان حتى همذان ، فاختار قائداً تركيا هو المعروف بالأفشين ، وسيره إليه سنة ٢٢٠ هـ ، وجعل الأفشين يحارب بابك سنتين حتى انتصر عليه سنة ٢٢٢ هـ (٨٣٧ م) وفر بابك إلى أرمينية ، فقبض عليه أحد أمرائها وسلّمه إلى المعتصم ، فاستراح العباد ، وفرح الخليفة ، حتى إنه لما اقترب من سامرا كان الخليفة يرسل إليه كل يوم حلة شرف وهدايا ثمينة ، ثم تلقاه هو وأشراف الدولة ، وأمر بقتل الثائر ، وصلب جثته ، وقطع رأسه وأرسلها إلى مدن خراسان .

ويقال إن بابك هزم ستة قواد ، وذبح خمسة وخمسين ومئتى ألف ، وأسر ثلاث مئة وثلاثة آلاف رجل وست مئة وسبعة آلاف امرأة ظلوا فى أسره حتى خلصهم الأفشين (٢) .

---

(١) الطبرى ١٠/١٢٤ .
(٢) الطبرى ١٠/١٣٦ — ٢٣٢ .

٦ ـ ثم لم تلبث بعض الثورات أن نجحت ، ونشأت دويلات انفصلت عن الخلافة .

قامت الدولة الصّفارية بإقليم سجستان ، وطمع يعقوب الصّفار فى أن يستولى على بغداد والعراق ، فخرج إليه الخليفة المعتمد بجيش كبير وانتصر الخليفة فى مدينة واسط سنة ٢٦٢ هـ وعاد يعقوب بعد الهزيمة إلى فارس .

وكان قيام الدولة الصفارية الخطوة الأُولى فى استرداد الفرس استقلالهم .

ثم قامت الدولة السامانية فأسقطت الصّفارية وأسقطت الزيارية بطبرستان وحكمت من سنة ٢٦١ إلى ٣٨٩ هـ .

وفى أثناء ذلك عظم شأن آل بويه أُمراء الديلم منذ سنة ٣٢٠ هـ فى خلافة الراضى ، وعظم بالشرق نفوذهم ، وصاروا خطرا على الخلافة العباسية ، ثم اتسع ملكهم حتى استولى معز الدولة البويهى على بغداد فى خلافة المستكفى سنة ٣٣٤ هـ ، ومكثوا يحكمون العراق وفارس من سنة ٣٣٤ إلى ٤٤٧ هـ . (٩٤٦ ـ ١٠٥٥ م) . وكان فتحهم بغداد أشنع نذير بوأد الخلافة وتحقير الخلفاء ، إذ خلع معز الدولة الخليفة المكتفى وسَمَلَ عينيه وسجنه ، وولى الفضل ابن عمه الذى لقب بالمطيع لله ، ثم تجرأ الفرس والترك على الخلافة والخلفاء بالعزل والتقتيل والتمثيل ، واستأثروا بالسلطة ، ولم يبق للخليفة إلا أنه رمز دينى ضئيل ، أو ظل من صرح كانت تشرئب إليه الأعناق .

ردود العرب على الشعوبية

١ — لم يتغافل الشعراء العرب عن هذا التهجم ، فجعلوا يقابلونه بتهجم مثله ، وحسبنا أن نمثل ببعض ما قالوا ، لأن موضوع هذا الفصل مقصور على أثر الفرس فى الشعوبية .

قال فارسى فى فخره بالفرس وتنديده بالعرب :

بهاليلُ غرٌّ من ذُؤابة فارس ... إذا انتسبوا ،لامن عُرَيْنةَ أوعُكْل(١)
همُ راضَةُ الدنيا وسادة أهلها ... إذا افتخروا لا راضَةُ الشاء والإبْل

فرد عليه عربى بقوله :

لا تَقُلْ إنك من فارسٍ ... فى معدن الملك وديوانه
لو حَدَّثَتْ كسرى بذا نفسُه ... صفعتُهُ فى جوف إيوانه

وقد تعصب الفرس للراوية أبى عُبيدة مَعْمر بن المَثنىّ ، وقدموه على الأصمعى الراوية العربى ، وحاول إسحاق الموصلى الفارسى الأصل أن يرفع من قدره ، ويحط من قدر الأصمعى عند الفضل بن الربيع بقوله :

عليك أبا عبيدة فاصطنعه ... فإن العلم عند أبى عبيده
وقدِّمْه وآثره عليه ... ودَعْ عنك القُرَيْدبن القُرَيْدَه(٢)

ولم يكتف بهذا ، بل أوغر صدر الرشيد على الأصمعى ، واتهمه بنكران الصنيعة ، وضعة النفس ، وزكّى أبا عبيدة ، ومازال يدس

---

(١) بهاليل : جمع بهلول وهو السيد . غر : جمع أغر وهو المشهور . ذؤابة : أعلى . عرينة وعكل : قبيلتان عربيتان .

(٢) يريد بالقريد الأصمعى .

للأصمعى عند الرشيد وعند الفضل حتى وضع مرتبته ، فبعثوا إلى أبى عبيدة يستقدمونه (١) .

لما حدث ذلك هجا الأصمعى البرامكة بقوله :

إذا ذُكِرَ الشِّرْكُ فى مجلس ... أضاءت وجوه بنى بَرْمَكِ
وإن تُلِيَتْ عندهم آيةٌ ... أتوا بالأحاديث عن مَزْدَكِ

ثم حمل المتنبى على العجم ، وسخر منهم ، وضاق بهم وقال إنهم عبيد يحكمون العرب ساداتهم ، ويعيشون فى ترف ، وقد كانوا فى سابق أمرهم أجلافا ، فلا صلاح للعرب مادام هؤلاء العجم يحكمونهم ، قال فى قصيدة يمدح بها على بن إبراهيم التّنوخى :

وإنما الناس بالملوك وما ... تفلح عُرْبٌ ملوكها عَجَمُ
لا أدبٌ عندهم ولا حَسَبٌ ... ولا عهودٌ لهم ولا ذممُ
بكل أرض وطئتُها أمم ... تُرْعَى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخَزَّ (٢) حين يلمسه ... وكان يُبْرَى بظفره القلم (٣)

٢ ــ وانبرى لتفنيد مزاعم الفرس والرد عليهم علماء من العرب ، كابن قتيبة فى كتابه (العرب) (٤) والجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين) (٥) .

من هذا قول ابن قتيبة : « كان أبو عبيدة معمر بن المثنى أغرى

---

(١) الأغانى ٥/١٠٧

(٢) الخز : الحرير .

(٣) ديوان المتنبى ٢/٢٣٠ .

(٤) رسالة نشرها مع (رسائل البلغاء) الأستاذ محمد كرد على صفحة ٢٧١ .

(٥) الجزء الثالث خاصة .

الناس بمشاتم الناس ، وأهجهم بمثالب العرب وحاله فى نسبه حالٌ نكره أن نذكرها ، وهى مشهورة (١) .....

ولما امتدت الشعوبية إلى الأندلس ألف ابن غَرْسِيه رسالة فى التهجم على العرب ، فرد عليه يحيى بن مَسْعدة وأبو جعفر أحمد البَلَنْسى وأبو الطيب القروى وغيرهم (٢) .

من رد الجاحظ على الشعوبية قوله : «وجملة القول أنا لا نعرف الخُطَبَ إلا للعرب والفرس ، فأَمّا الهند فإنما لهم معان مدوَّنة وكتب مخلَّدة ، لاتضاف إلى رجل معروف ... ولليونانيين فلسفة وصناعةُ منطق ، وكان صاحب المنطق ـ أرسطو ـ نفسه بكىَّ اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفضيله ، ومعانيه ، وهم يزعمون أن جالينوس ـ الطبيب الفيلسوف ـ كان أنطق الناس ، ولم يذكروه بالخطابة ، ولا بهذا الجنس من البلاغة .

وفى الفرس خطباء ، إلا أن كل كلام للفرس ، وكل معنى للعجم ، فإنما هو عن طول فِكْرة ، وعن اجتهاد رأى ، وطول خَلْوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكر ودراسة الكتب .

وكل شئٌ للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهْمَهُ إلى الكلام ، وإلى رَجَزيوم الخصام ، أو حين يمتح على بئر ويحدو ببعير ... فتأتيه المعانى أرسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لايقيده على نفسه ، ولا يَدْرسه أحداً من وَلَده .

(١) رسائل البلغاء ٢٧١ .

(٢) الجزء الثالث من نوادر المخطوطات للأستاذ عبد السلام هارون .

وكانوا أميين لايكتبون ، ومطبوعين لايتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أقهر ... وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفّظ ، ويحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من قَبْله (٢) » .

والذى نستخلصه من كلام الجاحظ أنه لاينكر أن العرب فى جاهليتهم لم يكن لهم علم وفلسفة كما كان للهنود واليونان ، ولم ينكر أن الفرس كان فيهم خطباء ، لكنه وصف خطباءهم بالتفكير الطويل والإعداد المتأنى ، والدراسة للكتب ، وإذاً فقد تميز العرب بفصاحة اللسان ، ومواتاة البديهة ، وإسعاف الخاطر .

٣ - وإذا كان الفرس الشعوبيون قد اختلقوا أحاديث نبوية تشيد بهم ، وترفع من أقدار علمائهم ، فإن العرب قابلوا سلاحهم هذا بمثله ، فاخترعوا أحاديث نسبوها إلى رسول الله تختصهم بالتكريم والتفوق ، منها قول النبى (ص) : « من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى ولم تنله مودتى » ، وقوله : « إذا اختلفت الناس فالحق فى مضر » . وقوله : « أحبوا العرب لثلاث : لأنى عربى ، والقرآن عربى ، ولسان أهل الجنة فى الجنة عربى » .

٤ - وربما كان من مقابلة العرب للفرس بسلاح من جنس سلاحهم ما رووه عن ابن المقفع فى تفضيل العرب على سائر الأمم ، إذ رووا أن جماعة اجتمعوا بالمرْبَد ومعهم ابن المقفع ، فسألهم ابن المقفع : أى الأمم أعقل ؟ فنظر بعضهم إلى بعض ، وظنوا أنه يقصد الفرس ، فقالوا : فارس . فقال ابن المقفع : ليسوا بذلك ، إنهم ملكوا كثيراً من الأرض

---

(١) البيان والبيتين ٣/٣٧ أرسالا : أفواجا . لا يدرسة : لا يعلمه .

وغلبوا على كثير من الخلق ، لكنهم لم يستنبطوا بعقولهم شيئا . قالوا : الروم ، فقال : أصحاب صَنْعة : قالوا : الصين ، فقال : أصحاب طُرَفَة . قالوا : الهند ، فقال : أصحاب فلسفة ... قالوا له ؛ فقل ، فقال : العرب . فضحكوا ، فقال : إنى ما أردت موافقتكم ، ولكن إذا فاتنى حظى من النسب فلا يفوتنى حظي من المعرفة ، إن العرب حكمت على غير مثال مُثِّل لها ، ولاآثار أُثِرَتْ ، أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدَم يجود أحدهم بقوته ، ويشارك فى ميسوره ومعسوره ، ويصف الشئ ويفعله فيصير حجة ، ويُحَسِّن ما يشاء فيحسن ، ويقبح ما يشاء فيقبح ، أدبتهم أنفسهم ، ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، وبهم افتتح الله دينه وخلافته إلى الحشر ، فمن وضع حقهم فقد خسر ، ومن أنكر فضلهم خُصم » (١).

٥ ـ على أن بعض المنصفين من أبناء الفرس لم يرتضوا نزعة الشعوبية ، فنهضوا ليقاوموها ، ويردوا على دعاتها .

من هؤلاء الزمخشرى ٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ (١٠٧٤ ـ ١١٤٣ م) فقد كان مغرما باللغة العربية يفضلها على سائر اللغات ، ومؤثرا للعرب يرفعهم إلى أسمى الدرجات ، لأنه ربط ربطا وثيقاً بين العروبة والإسلام ، وبين حب العروبة والإسلام ، وكان يخشى من الشعوبية على البلاد التى أسلمت واستعربت ، لأن الذى ينعق على العرب اليوم سينعق على الإسلام فى الغد ، ولأن وحدة اللغة والثقافة والعقيدة والحضارة والتاريخ المشترك والوجدان المشترك كلها دعائم وطيدة فى حصن الإسلام ، يسند بعضها بعضاً ، فلابد من الحفاظ عليها موصولة متساندة ،

---

(١) العقد الفريد ٢/٥٠ .

وإلا تطرق الوهن إلى الصرح الأشم الذى يتربص به أعداء الإسلام أيما تربص .

قال الزمخشرى فى مقدمة كتابه المفصّل : «الله أحمد على أن جعلنى من علماء العربية ، وحملنى على الغضب للعرب والعصبية ، وأبى لى أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنضوى إلى لفيف الشعوبية وأنحاز ، وعصمنى من مذهبهم الذى لم يجْدِ عليهم إلا الرَّشْق بألسنه اللاعنين (١) والمشْق (٢) بألسنة الطاعنين .

ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ، ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها — حيث لم يجعل خيرة رسله وخيرة كتبه فى عجم خلقه ولكن فى عربه — لايبعدون عن الشعوبية معاندة للحق الأبلج ، وزيغاً عن سواء المنهج ... والذى يقضى منه العجب حال هؤلاء فى قلة إنصافهم ، وفرط جورهم واعتسافهم ، وذلك أنهم لايجدون علماً من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلمى تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بَيِّن لايدفع ، ومكشوف لايتقنع (٣)» .

وجهر بتفضيل العرب فى قوله (٤) : العرب نَبْعٌ صلب المعاجم ، والغَرَبُ مثل للأعاجم (٥) . وفى قوله (٦) : فَرْقك بين الرطب والعَجم(٧)

---

(١) الرشق الإصابة بالمكروه .
(٢) المشق : سرعة الطعن .
(٣) شرح المفصل ١/٣-١٦ .
(٤) نوابغ الكلم ٧ .
(٥) النبع : شجر صلب تتخذ منه مقسى . الغرب : شجر ضعيف رخو .
(٦) نوابغ الكلم ٣٨ .
(٧) العجم : نواة التمر .

هو الفرق بين العرب والعجم ، ولهج بالعرب وبأخلاقهم ، وسخر من الشعوبية فى قوله (١) :

وقل هل فشا فى الأرض غيرُ لسانهم ... لسانٌ فُشُوَّ الضوء واليوم شامسُ ؟

به عجَّ فى أمصارها كل مِنْبَرٍ ... وطَنَّت به فى الخافقَيْنِ المدارس

على ظهرها لم يخلق الله أمة ... تناسبهم فى خصلة أو تلابس

أجلُّ رسولٍ منهمُ وبأَلْسُنهم ... أجلُّ كتاب فاعتبر يامنافس

وقل للشعوبيين إن حديثكم ... أضاليل من شيطانكم ووساوس

لكم مذهبٌ فَسْلٌ يُغَرُّ بمثله ... أشايبُ حمقى لا الرجال الأكايس

وله فى هذا المجال جهاد مشكور (٢) .

عاقبة الصراع

١ — الحق أن ثورات الفرس المتعاقبة أظهرت ما كان المجوس يضمرون للإسلام من شر ، وأن كثيراً منهم كانوا يعتنقون الإسلام رياء وخدعة ، ويترقبون الفرص لإعادة ملكهم والعودة إلى دينهم ، وما ثورة بابك والمقنع الخراسانى وغيرهما إلا دليل واضح على ذلك .

وقد انتهى الصراع الجنسى بتغلب الفرس والترك على العرب فى شؤون السياسة والحكم ، أما العرب فقد ظلوا منتصرين بدينهم ولغتهم ، إذ عفَّ الإسلام على المجوسية ، وبقيت العربية سائدة ، حتى إن الفرس كانوا يقبلون على تعلمها ، ويتنافسون فى إجادتها ، ويرون أنه من نقص المروءة التكلم فى بلد عربى بالفارسية (٣) ، وحسبنا أن العربية كانت

---

(١) ديوان الزمخشرى ٦١ مخطوط .

(٢) الزمخشرى . للمؤلف .

(٣) عيون الأخبار ١/٢٩٦ .

هى اللغة الرسمية واللغة الأدبية والعلمية ، فى العصر العباسى الأول . وأن أكثر الكتاب فى ذلك العصر يرجعون إلى أصل فارسى ، وأن كثيراً من العلماء الذين دونوا اللغة ووضعوا قواعدها ورووا أدبها كانوا من الفرس .

٢ — على أن هذه التيارات لم تكن كلها شراً محضاً ، فقد حملت بعض الخير « إذْ رأت الشعوبية كل شئ للعرب يمجّد ، من نسب عربى ، ولغة عربية ، ورأى عربى ، وعادات عربية ، فأخذ الشعوبيون يعرضون هذا للنقد والتحليل ، عرضوا أنساب العرب للنقد ، كالذى فعل أبو عُبَيْدة مع غلوه ، فكان يرد على قوم ينتسبون للعرب ، فيبين أن النسبة كاذبة مختلقة ، وفى كتاب الأغانى عن أبى عبيدة من هذا كثير .

وعرضوا اللغة العربية للنقد ، فسيبويه فى كتابه يخطئ العرب فى بعض أقوالها ، ويدعى العرب أن البلاغة ليست إلا فيهم ، فيرد الشعوبية بأن هناك أمماً أخرى لها بلاغة ، ولها خطب ، ولها حكم ، لا تقل عن العزب ، وينبهون على أن عادات العرب ليست المثل الأعلى للعادات ، ففيها الحقير المرذول ، والجيد المحمود .

كل هذا النقد وأمثاله استتبع نتيجة جيدة من بعض الوجوه وهى : عرض ما للأمم الأخرى من كل ذلك لتكون المقارنة أتم ، فتعرض الكلمات الفارسية بجانب الكلمات العربية ، والحكم الأجنبية بجانب البلاغة والحكم العربية ، والنظام الفارسى ، والأدب الأجنبى بجانب النظام والأدب العربيين ، وهذا — من غير شك — مفيد للعلم والعقل(١) »

(١) ضحى الاسلام ٢/٧٨ .

الفصل السادس

آثار الفرس في مفردات اللغة

تطورت نظم الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة ، وشاع الترف واللهو والطرب ، وتعددت الأزياء والفُرُش والأثاث والآنية ، وكان كثير من هذا غير معروف للعرب ، فسموها بأسمائها الفارسية أو اليونانية أو الهندية .

على أن العربية لم تعد ملكا للعرب وحدهم فى هذا الوقت الذى شرقّتْ فيه وغرّبت ، بل صارت لهم وللشعوب التى أسلمت وأقبلت على تعلم لغة الإسلام ، ولاشك أن هؤلاء المستعربين لايتعصبون للغة العربية كما يتعصب لها أبناؤها ، ولاشك أنهم أسرع ذكراً لكلمات من لغاتهم تؤدى ما بنفوسهم من بعض المعانى ، أو تدل على أشياء ليس فى العربية دلالات عليها ، أو فيها دلالات لم تجر على ألسنتهم .

لهذا اتسع المجال لدخول كلمات أعجمية فى اللغة العربية أكثرها فارسى .

لكن العرب فى نقلهم عن الفرس وغيرهم لم يسلكوا طريقة واحدة فى التعريب ، فقد نطقوا بعض الكلمات على أصلها ، وصقلوا بعضها الآخر صقلا يلائم نطقهم ، كما أنهم أحياناً رجعوا إلى لغتهم فتوسعوا فى دلالاتها .

تناظر عربى وفارسى فى مجلس يحيى بن خالد البرمكى ، فقال الفارسى للعربى : «ما احتجنا إليكم قط فى عمل ولا فى تسمية ، ولقد

ملكتم فما استغنيتم عنا فى أعمالكم ولا لغتكم ، حتى إن طبيخكم وأشربتكم ودواوينكم وما فيها على ماسَمّينا ، لم تغيروا منه شيئاً ، كالإسْفيداج ، والسِّكْباج ، والدُّوغباج والسَّكَنْجبين والخُلَنْجين والجُلاَّب والرُّزْنامج والأُسْكُدار ، ومثل هذا كثير(١) » . فسكت العربى ، فقال له يحيى : «قل له اصبر لنا نملك كما ملكتم ألف سنة بعد ألف كانت قبلها ، لا نحتاج إليكم ولا إلى شئ كان لكم .

من الكلمات الفارسية المعربة فى العصر الأموى والعباسى :

الجَوْسَق : القصر ، أصله كوشك أى صغير ، قال النعمان بن عَدى — وكان عمر بن الخطاب قد ولاه مَيْسان ، كورة بين البصرة وواسط :—

لعل أمير المؤمنين يسوؤه تناؤمنا فى الجَوْسَق المتهدم

الصَّبَهْبَذ : مثل الأمير فى العرب ، قال جرير :

إذا افتخروا عَدُّوا الصَّبَهْبَذ مَنهم وكسرى وآل الهرمزان وقيصرا

الكَرْد : معناه بالفارسية العنق ، وأصله كردن ، وقد جاءت الكلمة فى شعر جرير :

وكنا إذا القَيْسِىُّ نَبَّ عَتُودُه ضربناه دون الأُنثَيَيْن على الكَرْد(٢)

وجاءت فى قصيدة للعُمَّانى يمدح الرشيد :

من يَلْقَه من بطل مُسْرَنْدِ فى زَغْفة محكمة بالسَّرْد

تحول بين رأسه والكَرْد (٣)

---

(١) الاسفيداج : رماد الرصاص . السكنجبين والسكباج : طعام من لحم وزيت ونبات طيب الرائحة . الخلنجين : الخلنج بفتح الخاء شجرة تصنع منها السهام . الجلاب : ماء الورد . الرزنامج والرزنامة : دفتر يومى للحساب ، وجريدة يومية . الأسكدار : صاحب البريد ، وحقيبته ، وصندوق البريد . الدوغباج : اللبن الخاثر .

(٢) نب : صاح . العتود من أولاد المعز مارعى وقوى . الأنثيان : الأذنان .

(٣) البيان والتبيين ١/١٤٢ مسرند . غالب . زغفة : درع لينة واسعة محكمة .

الخُسْرواني : الحرير الرقيق الحسن الصنعة ، نسبة إلى عظماء الأكاسرة ، قال الفرزدق :

لَبِس الفِرِنْدَ الخُسْرَوَانيَّ فوقه مشاعرَ من خَزِّ العراق المفوَّف (١)

آب : ماء ، روسبيد : بيضاء الوجه .

قال يزيد بن مُفَرِّغ الحميرى :

آبَ استْ نبيذَ اسْت عصارات زَبِيبَ است

سُمَيَّهْ رُوسَبِيدَ اسْت (٢)

مَسْتِي : سُكْر وإدمان

بايِخَسْتْ : موطوءة بالأقدام

قال أسود بن أبي كَريمة :

لزم الغُرَّامُ ثوبى بُكرةً فى يوم سَبتِ

فتمايلت عليم مَيْلَ زَنْكِيٍّ بمَسْتى

قد حسا الداذِيَّ صِرْفا أو عقاراً بايِخَسْت (٣)

الفُسْتُقُ : ثمرة معروفة ، قال الراجز :

ولم تَذُق من البقول الفستقا

النَيروز : عيد الربيع عند الفرس ، قال البحترى :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحُسْن حتى كاد أن يتكلما

---

(١) أى لبس الحرير الخسرواني مشاعر فوقه المزين من حرير العراق .

(٢) البيان والتبيين ١/١٤٣ است : فعل من أفعال الكينونة فى الفارسية . روسبيد : مكونة من روو هو الوجه وسبيد بمعنى أبيض ، والمراد أنها مشهورة ، يريد أن النبيذ ما هو إلا ماء لأنه عصارة الزبيب .

(٣) البيان والتبيين ١/١٤٣ الغرام: جمع غريم وهو الدائن المطالب: زنكي بالفارسة زنجي . داذى : نبت له حب كالشعير يضاف إلى الخمر فيزيد فعلها .

وقد نبه الفيروز فى غسق الدجا أوائل وردكن بالأمس نوّما

المِهْرَجان : عيد الخريف عند الفرس ، قال ابن الرومى :

يَمَّن الله طلعة المهرجان كل يُمْن على الأمير الهجان

آذريون : معرب آذركون أى لون النار يطلق على ورد أحمر الورق أو أصفره مع سواد وسطه فيهما ، قال ابن المعتز :

كأن آذريونها والشمس فيه كاليَهْ

مَداهنٌ من ذهب فيها بقايا غاليه

يَرّ : بمعنى الكأس الملأى ، قال إبراهيم الموصلى :

إذا ماكنت يوما فى شُدَاهِ (١) فقل للعبد يسقى القوم يَرّا

فإن السقى مكرمة ومجد ومدفأة إذا ما خفتَ قَرّا

آبَ سَرْد بمعنى الماء البارد ، قال العُمّانى :

لما هوى بين غِياض الأُسْدِ وصار فى كف الهِزَبْر الوَرْد

آلى يذوق الدهر آب سَرْد

باغ : بستان ، قال البستى :

لا تنكرَنَّ إذا أهديتُ نحوك من علومك الغُرِّ أو آدابك النُّتَفا

فَقَيِّمُ الباغ قد يُهْدِى لصاحبه برَسْم خدمته من باغه التحفا

ذكر الجاحظ أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس فى قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمون البِطِّيخ الخِرْبِز ، ويسمون السَّميط الرَّزْدَق ، ويسمون الْمَصُصوص المَزُوز ، ويسمون الشِّطَرنْج الإشتَرنْج ، وكذلك أهل الكوفة فإنهم يسمون المسحاة بالْ ، ويسمون الحَوْك الباذَرُوج .

---

١) شداه : تبلبل واضطراب .

وأهل البصرة إذا التقت أربعة طرق يسمونها مرَبَّعَة ، ويسميها أهل الكوفة الجِهار سُوك ، ويسمون السوق والسُوَيْقة وازار ، والقثاء خيارا(١) الخ والخربز والرزدق وغيرها كلمات فارسية .

على أننا إذا رجعنا إلى « المعرَّب » للجو اليقى وإلى « شفاء الغليل » للشهاب الخفاجى وجدنا مئات من الكلمات الفارسية ، مثل : فِرْجَوْن (المِحسَّة) وكعك ونموذج (أصله نموذة أى مثال) ودَيْدَبان (طليعة وربيئة) ودَسْكره (بناء يشبه القصر حوله بيوت تكون للملوك) ، وزَرَجُون (أصله زَرْكون أى لون الذهب والمراد الخمر) وسَرَق (أصله سَرَه أى جيد والمراد الحرير) ولَوْزِينج (نوع من الحلوى) ومارَستان (أصله بيمارستان أى مكان الشفاء) ومهندس وهندسة وإيوان وأستاذ (الماهر بصنعته) وأبزار (هو التابل) وبَرَق (أصله بَرَه وهو الحَمَل) وأزاد (نوع من التمر) وبَرَنكان (كساء) وبَذْرقه (بمعنى خفارة وحراسة) واشتقوا منها « المبَذْرِق بمعنى الخفير » ، وبارْجاه (بواب السلطان) قال الحجاج لعلى ابن أصمع جد الأصمعى : « قد وليتك البارجاه » ، وبيرم النجار (العتلة) وباذِق (أصله باذَه) أى باق ، « والمراد الخمر الحمراء » ، وبَيْذَق (أصله بَيْذَه وهو رجل الحرب) (ومنه جاءت الكلمة العامية بيادة أى راجل ، والجَرْذَق والجَرذقة بالذال والدال (أصله كِرْدَه وهو الخبز الغليظ) والجَوْرب (أصله كورب) والجُوالِق (أصله كُوالَه) والصَّمج (القناديل ، الواحدة

---

(١) البيان والتبيين ١٩/١ السميط . الآجر المرصوص ، والرزدق أصله بالفارسية رسته ومعناه السطر والصف من النخل وغيره ، المصوص : لحم ينقع فى الخل ويطبخ . الباذروج ريحانه معروفة .

صَمَجة) والطَّسْت والطاجن (المغلى) والفالوذج والفالوذق والغالوز (حلواء من لب الحنطة) والبوتقة والزرنيخ والبابونج والإسفيداج والأسطوانة والإقلم والقَرْطَق (أصله كرْتَهْ ، وهو شبيه بالقَباء) ، دعا أبو الفرات الحسنَ ، فلما وضع الطعام جاء الغلام وعليه قرطق أبيض فقال الحسن : أخذتَ زى العجم .

الفصل السابع

آثار الفرس فى العلوم والتأليف

الفرس أصحاب ملك قديم وحضارة عريقة ، ومعرفة بالعلوم ، فهم ورثوا الأشوريين والبابليين فى الرياضيات والطبيعيات ، ونقلوا إلى لغتهم كثيراً من علوم الهنود ، ونقلوا من اليونان علوماً شتى منذ بعث سابور بن أردشير إلى بلاد اليونان يستجلب كتبا ، ويأمر بنقلها إلى الفارسية ، وقد حفظها فى خزائنه ، وشجع على نسخها ودراستها .

ثم فر إلى فارس طائفة من الفلاسفة الوثنيين حينما اضطهد جوستنيان الوثنية ، وأغلق هياكلها ومدارسها ، فاستقبلهم كسرى أنوشروان ورحب بهم ، وأقاموا عنده ينقلون الكتب اليونانية إلى الفارسية ، ويؤلفون كتبا فى الفلسفة والعلوم ، ويدرسون فى معهد الدراسات الطبية والفلسفية الذى أنشأه كسرى أنو شروان بمدرسة جنديسابور (٥٢١ — ٥٧٦ م) ، فشاعت العلوم اليونانية بفارس كما شاعت من قبل علوم الهند والصين .

فلما اتصل العرب بالفرس ترجم بعض الفرس إلى اللغة العربية كتبا شتى فى العلوم والتاريخ والسير والموسيقى والأخلاق ونظام الحكم ، وكان بعض الكتب المترجمة يونانى الأصل ، وبعضها فارسى الأصل ، لكن الذى يعنينا هنا هو النوع الثانى .

ولقد بدأت ترجمة التاريخ من عهد مبكر ، لحاجة الخلفاء إلى

معرفة نظم الحكم الفارسى وأساليبه ، فقد كان فى مكتبة هشام ابن عبد الملك بن مروان كتاب فى تاريخ الفرس وسياستهم ، ترجم من الفارسية إلى العربية (١) .

وكان الوزراء البارزون فى العصر العباسى فرساً ، ولكنهم برعوا فى اللغة العربية والأدب العربى ، فجدّوا فى نشر الثقافة الفارسية ومراجعها بأدب العرب ، وربما كان من بواعثهم على ذلك أنهم أرادوا مباهاة العرب بمالهم من ثقافة وأدب .

وقد اشتهر البرامكة بتشجيعهم على نشر الثقافة الفارسية بالمال والتقريب ، إذ أوصاهم والدهم يحيى بن خالد بقوله :

« لابد لكم من كتاب وعمال وأعوان ، فاستعينوا بالأشراف ، وإياكم وسفلة الناس ، فإن النعمة على الأشراف أبقى ، وهى بهم أحسن ، والمعروف عندهم أشرف والشكر فيهم أكثر (٢) »

ولقد كان كتابهم من الفرس .

على أن الفضل بن سهل نقل — قبل أن يكون وزيراً — كتابا من الفارسية إلى العربية بمشورة من يحيى البرمكى ، فأعجب به ، ودعاه إلى الإسلام لينال مايستحق من مناصب .

أما أهم مانقلوه عن الفرس من علوم فهو التاريخ والسير والفلك والموسيقى والغناء .

وأشهر النقلة نوبخت وابنه الفضل الذى نقل من الفارسية كتبا فى النجوم وغيرها ، وعلى بن زياد التميمى ويكنى أبا الحسن ، نقل

---

(١) تراث فارس ٩٢ ترجمة الدكتور محمد كفافى وزملائه .

(٢) الوزراء والكتاب ٢١٥ .

من الفارسية كتاب زيج الشهريار ، والحسن بن سهل كان من المنجمين والمترجمين ، وإسحاق بن يزيد نقل سيرة الفرس المعروفة بأخبار نامه ، وعبد الله بن المقفع ترجم كتاب التاج فى سيرة كسرى أنو شروان وكتاب « خداينامه » وهو تاريخ الفرس من مبدأ ملكهم إلى نهايته ، وسماه (تاريخ ملوك الفرس) وكتاب (آيين نامه) أى نظم الفرس وعاداتهم ، وكتاب (مزدك) .

ومما ترجم أبان بن عبد الحميد كتاب (سيرة أردشير) وكتاب (سيرة أنو شروان) وكتابا عن مزدك وكتابا عن بوذا .

كذلك ترجم آخرون عهد أردشير ، وكتاب موبذ موبذان ، وكتاب أدب الحرب ، وتوقيعات كسرى .

وقد استقى المؤلفون تاريخ الفرس من الكتب التى ترجمها ابن المقفع وغيره فالمسعودى يذكر أنه قرأ بمدينة « اصْطَخْر » سنة ٣٠٣هـ كتابا عظيما فى أخبار ملوك الفرس وسياستهم وأحوالهم لم يجدها فى كتبهم التى قرأها من قبل مثل « خداينامه » « وآيين نامه » و« كهنامه » وغيرها .

وعدّد حمزة الأصبهانى ثمانية كتب فى تاريخ الفرس استمد منها ماكتبه فى تاريخهم ، منها « سير ملوك الفرس » ترجمة ابن المقفع .

ونجد فى كتاب « التاج » المنسوب إلى الجاحظ اقتباساً كثيراً جداً من نظم الفرس وعاداتهم وسلوكهم ، يخالطه اقتباس من المأثور عن العرب فى الجاهلية والإسلام .

وليس من شك أن الفرس الذين ترجموا من الفارسية إلى العربية ، والذين ألفوا فى العربية مؤلفات شتى فى أنواع المعرفة ، كان لهم نصيب عظيم فى توجيه الحركة العلمية والسير بها إلى الإمام .

وحينما نقول إن لهم نصيبا عظيما فإنما نعترف بآثارهم ونشيد بفضلهم ، ولا نتناسى الطبرى والزمخشرى والرازى والبخارى والبيرونى والفارابى ، وابن سينا وغيرهم ممن سنذكر أسماءهم .

لكننا لاننسب الفضل كله إلى الفرس فنغمط العرب حقهم من الفضل كما فعل ابن خلدون ومن ساروا على إثره .

ولكنى سأرجئ مناقشة هذه القضية إلى مابعد .

الفصل الثامن

آثار الفرس في النثر الفني

إقبال الفرس على اللغة والأدب :

منذ أواخر القرن الهجرى الأول تساندت عدة عوامل على فسح المجال لأبناء الفرس والمتأثرين بأدبهم ليظهر تأثيرهم فى الأدب العربى شعره ونثره ، فلما استقام الملك لبنى العباس ، وتبوأ الفرس فيه مكاناً عليا ، ازداد مجال تأثيرهم اتساعاً ، وازدادت مظاهرهم فى الأدب وضوحاً .

ذلك أن كثيراً من كتاب الدولة كانوا فرساً ، فقد كتب عبدالحميد ابن يحيى لبنى أمية ، وكان منصب الكاتب يقتضيه أن يكون واسع الثقافة ، متجدد المعرفة ، لأنه يعرض على الخليفة أو الوالى مايرسل إليه ، ويكتب عنه مايرسل منه ، فلم يكن بد للكتّاب من إجادتهم العربية ومعرفتهم بالأدب الفارسى ، لهذا ألموا بحِكم العرب وحكم الفرس ، ووقفوا على تاريخ العرب وتاريخ الفرس ، وجمعوا بين حِكم الخلفاء الراشدين وأكثم بن صَيْفى ، وحِكم بزرجمهر وكسرى أنو شروان .

يدل على تنوع ثقافتهم قول الجاحظ فى بيان عيوبهم « إن الواحد منهم يتوهم إذا عرّض جُبّته وطوّل ذيله وعَقَص على خده صُدْغه ، أنه المتبوع لا التابع ، ثم الناشئ منهم إذا حفظ من العلم مُلَحه ، وروَى لبزرجمهر أمثاله ، ولأردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع

أدبه ، وصيّر كتاب مزدك معدن علمه . . . أنه الفاروق الأكبر فى التدبير . فيكون أول طعنه على القرآن فى تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يظهر ظرفه بتكذيب الأخبار ، وتهجين من نقل الآثار ، ... ثم يشيد بسياسة أردشير بابكان وتدبير أنو شروان واستقامة البلاد لآل ساسان ، فإن حَذِر العيون وتفقده المسلمون رجع بذكر السنن إلى المعقول ، ومحكم القرآن إلى المنسوخ ، ونفى مالا يدرك بالعيان ، وشبه بالشاهد الغائب (١) .

ثم إنه كثر فى العصر العباسى أبناء الفرس العلماء بالعربية والفارسية ، وكان فى العصر نفسه عرب يعرفون الفارسية ، وهؤلاء وأولئك كان لهم شعر ونثر فيه أفكار فارسية فى قوالب عربية .

من الطائفة الأولى ابن المقفع وسهل بن هارون والفضل بن سهل وموسى بن سَيَّار الأُسْوارى ، يذكر الجاحظ (٢) أنه كان قصاصاً من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، يجلس فى مجلسه المشهور به فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يفسرها للفرس بالفارسية ، فلا يُدرى بأى لسان هو أَبْيَن .

وهناك كثير من أبناء الفرس كانوا قد برعوا فى اللغة العربية وأجادوا الأدب العربى ، فأبو مسلم الخراسانى كان يحفظ كثيرا من الشعر ، وأبو سَلَمة الخلال كان فصيحا عالما بالشعر والأخبار والجدَل ، وكان البرامكة ذوى بلاغة عربية مشهورة ، يقول سهل بن هارون فى

(١) ذم أخلاق الكتاب ٤٢ من ثلاث رسائل للجاحظ نشرها يوشع فنكل .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٦٨ .

وصف يحيي بن خالد البرمكي وابنه جعفر : لو كان كلام يُتَصَوَّر دُرًا ، أو يحيله المنطق السَّرِيُّ جوهراً لـكان كلامهما ، والمنتَقَى من لفظهما .

وقد عهد الرشيد إلى وزيره يحيي بن خالد البرمكي أن يشاركه فى التوقيعات ، فتحول التوقيع إلى منصب ، ومن توقيعات جعفر بن يحيي البرمكي لعامل كثر التظلم منه : « قد كثر شاكوك. وقَلَّ شاكروك ، فإما اعتدلت وإما اعتزلت » . ومن توقيعاته على طلب مستمنح وصله مرات من قبل : « دع الضرع يَدِرّ لغيرك كما درَّ لك » .

وقد ذاع عن البرامكة تشجيعهم للبلغاء ، وحِباؤهم للشعراء ، وتحبيبهم إلى بنى جنسهم أن يتفوقوا فى اللغة العربية ، ليحلوهم فى الوظائف الكبار كما يتبين من أخبارهم فى كتاب (الوزراء والـكتاب) وغيره .

ومن الطائفة الثانية الشاعر العباسى كُلثوم بن عمرو المشهور بالعَتَّابى ، فهو عربى من تَغْلِب ، نهل من ثقافة الفرس ، واستهوته معانيهم ، فنقل بعض كتبهم إلى العربية ، ولما سئل عن حرصه على النقل قال : إن المعانى فى كتب العجم ، واللغة والبلاغة للعرب .

أولا — مظاهر فى النثر الفنى

(١) القصص

ترجم كثير من الفرس الذين حذقوا اللغة العربية كتبا شتى من الفارسية إلى العربية ، يهمنا منها الآن كليلة ودمنة الذى ترجمه ابن المقفع ، وقصة رستم واسفنديار التى ترجمها جبلة بن سالم (١) ،

(١) الفهرست ٣٠٥ .

وهزار أفسانه ـ ألف خرافة ـ وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة . وكتاب خرافة ونزهة ، وكتاب الدب والثعلب ، وكتاب نمرود وغيرها .

أما كليلة ودمنة فإنه قد نقل فى أيام كسرى أنو شروان من الهندية إلى الفهلوية ، وكان الباحثون فى شك من ذلك حتى عثر الأستاذ هرتل Hertel على بعض الأصول الهندية الأولى ، كما عثر غيره على بعض أبواب من الكتاب مفرقة ، ويرجحون أن باب « بعثة برزويه » وباب « ملك الجرذان » من زيادات الفرس ، وأن فى الكتاب فصولا زادها ابن المقفع (١) .

ولا شك أن كليلة ودمنة أول كتاب يقص على ألسنة الحيوان قصصا مفصلة متداخلة ، ويورد على ألسنتها حكما وأمثالا وعظات .

ثم ألفت كتب شتى على غراره مثل (الصادح والباغم) لابن الهبارية ، و « سلوان المطاع » لابن ظَفَر ، « فاكهة الخلفاء ومناظرة الظرفاء » لابن عَرَبْشاه ، وهى مطبوعة كلها .

وقد نظم أبان اللاحقى ، وابن الهبارية كتاب كليلة ودمنة شعرا ، وإذا كان الأول لم تبق منه إلا مقطوعات فإن الثانى بقى وطبع ، فمن نظم أبان للكتاب قوله :

هـذا كتاب كـذب ومِحْنهْ	وهو الذى يدعى كليلـة دِمْنهْ
فيه دلالاتٌ وفيـه رشْـدُ	وهـو كتـابٌ وضعته الهنـدَ
فوصفوا آداب كل عالم	حـكاية عن ألسن البهائمِ

---

(١) ضحى الإسلام ١/١٩٦ .

فالحكماء يعرفون فضله والسخفاء يشتهون هزله

وهو على ذلك يسير الحفظ لذٌّ على اللسان عند اللفظ (١)

وأما ألف ليلة وليلة فقد ذكر المسعودى أنه فارسى كله ، وتبعه ابن النديم (٢) .

ثم تعددت الآراء فى أصل الكتاب ، فمن قائل : إن أصله فارسى ، وقائل إن أصله هندى ، وذاهب إلى أنه حكايات فارسية وهندية ، وهنالك من رأى أنه كتب كله فى العصر العباسى على أثر انتشار أخبار الفرس ، وأقاصيصهم على ألسنة العامة ، ثم زيدت عليه قصص أخرى فى أماكن وأزمان مختلفة .

وبالغ بعض الباحثين فنفى عن الكتاب أى أثر فارسى أو هندى

ثم أيد المسعودى فى روايته عالم ألمانى مستشرق ، وذهب العالم الإنجليزى (لين) إلى أن الكتاب كله بقلم كاتب واحد عاش بين سنة ١٤٧٥ و ١٥٢٥ م .

وقسم العالم الألمانى (مولر) الكتاب قسمين :

قسم كتب فى مصر وقسم كتب فى بغداد .

وقسمه بعضهم ثلاثة أقسام :

قسم نقل من الأصل الفارسى (هزار أفسانه) ، وقسم كتب فى بغداد ، وقسم ثالث كتب فى مصر .

---

(١) فى كتاب الأوراق للصولى مخطوط طائفة من نظم أبان للكتاب .

(٢) مروج الذهب والفهرست .

وعقب المستشرق البلجيكى (شوفان) بأن القصص التى كتبت فى مصر تولى كتابة بعضها يهود .

وأغلب الظن أن أرجح هذه الأقوال هو أن الأصل الأصيل للكتاب القصص الفارسية ، وهى التى تردُ فيها أسماء وأحداث فارسية ، مثل شهرزاد وشاه زمان ، وبه قصص هندية مثل قصة التاجر العارف بلغة الحيـوان .

وهذا القسم الفارسى المخالَط بدخيل من الهندى يصور ميل الأمتين إلى تضخيم الخيال ، والتصديق بعجائب المخلوقات وغرائب الأحداث ، كالأسماك الكبيرة الحجم المختلفة الشكل ، وطير الرُّخ العظيم الحجم .

ثم ترجمت هذه القصص إلى العربية فى القرن الثالث الهجرى ، ثم زيد عليها بعد ذلك قصص فى بغداد وفى القاهرة .

وقد تأثر العرب بألف ليلة وليلة ، فألفوا قصصا على غراره أضافوها إليه ، بعضها كتبوه فى بغداد ، وبعضها كتبوه فى القاهرة .

ثم ألفوا قصصا أخرى ، كما فعل الجهشيارى إذ ألف كتابا فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم — الفرس — والروم ، واجتمع له أربع مئة ليلة وثمانون ، كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة ، ولكن المنية عاجلته قبل إكماله ، وقد رأى ابن النديم منها عدة أجزاء (١) .

وكذلك ألفوا قصصاً عن أخبار العرب وحروبهم فى الجاهلية مثل قصة البَرّاق ، وقصة عنترة ، وسيف بن ذى يزن ، ثم ألفوا قصصاً إسلامية مثل قصة مجنون ليلى والظاهر بيبرس .

---

(١) الفهرست ٣٠٤

(٢) الحكم والأخلاق

ترجم كثير من الفرس الذين حذقوا اللغة العربية وبعض العرب الذين حذقوا الفارسية كتباً شتى من الفارسية إلى العربية ، فى الحكم والأخلاق والسلوك ، فترجم ابن المقفع كتاب (الأدب الكبير) وكتاب (الأدب الصغير) وكتاب خداينامه فى سير ملوك الفرس ، وترجم أبان اللاحقى الرقاشى سيرة أردشير وسيرة أنوشروان ، وترجم آخرون كتاب أردشير فى التدبير ، وتوقيعات كسرى ، وكتاب أدب الحرب .

وكانت هذه الكتب المترجمة مَعيناً يستقى منه المثقفون من العرب والفرس ، حتى إن الشعوبية كانوا يقولون : من أحب أن يبلغ فى صناعة البلاغة ، ويعرف الغريب ، ويتبحر فى اللغة ، فليقرأ كتاب كاروَنْد — صناعة المديح — ومن احتاج إلى العقل والأدب ، والعلم بالمراتب والعبر والمثلات ، والألفاظ الكريمة ، والمعانى الشريفة ، فلينظر فى سير الملوك (١) . وهم يريدون تاريخ ملوك الفرس

ومن هنا ترددت حكم الفرس وآراؤهم السلوكية منسوبة إلى أردشيرويزدجرد وبهرام وسابور وأنوشروان وبزرجمهر وغيرهم ، ترددت فى البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد وماشاكلها من كتب الأدب العربى ، وأكثرها يلائم الطبع العربى الذى يميل إلى الإيجاز والتركيز ، وإن خالفته حيناً فى دلالتها على كد الفكر وطول التروى والتدبير والإعداد والافتراض العقلى الذى لايصدق الواقع ، لأن هذا نمط مغاير لكلام العرب المنبعث عن بديهة وارتجال .

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٤ .

من الأفكار الجديدة التى تدل على التعمق فى التفكير والتأثر بالعلوم العقلية قول ابن المقفع فى الأدب الكبير :

١ — إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبك ذلك ، فإنما هو أحد رجلين ، إن كان رجلاً من إخوان الثقة فأنفع مواطنه لك أقربها من عدوك ، لشرٍّ يكفه عنك ، وعورة يسترها منك ، وغائبة يطلع عليها لك ، فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقتك .

وإن كان رجلا من غير خاصة إخوانك فبأى حق تقطعه عن الناس وتكلفه ألا يصاحب ولايجالس إلا من تهوى ؟ .

٢ — ومنها قوله :

اخزن عقلك وكلامك إلا عند إصابة الموضع ، فإنه ليس فى كل حين يحسن كل الصواب ، وإنما تمام إصابة الرأى والقول بإصابة الموضع ، فإن أخطأك ذلك أدخلت المحنة على علمك حتى تأتى به — إن أتيت به — فى غير موضعه ، وهو لا بهاء له ولا طلاوة له ليعرف العلماء حين تجالسهم أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول .

٣ — وكذلك قوله :

اعلم أن المُلْك ثلاثة : مُلك دين ، ومُلك حزم ، ومُلك هوى ، فأما ملك الدين فإنه إذا أقام للرعية دينهم ، وكان دينهم هو الذى يعطيهم الذى لهم ، ويلحق بهم الذى عليهم ، أرضاهم ذلك وأنزل الساخط منهم منزلة الراضى فى الإقرار والتسليم .

وأما ملك الحزم فإنه يقوم به الأمر ، ولا يسلم من الطعن والتسخط ، ولن يضر طعن الضعيف مع حزم القوى .

وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر .

(تيارات ثقافية)

٤ ـ ومنها مانقله الجاحظ :

قيل لبزرجمهر الفارسى : أَى شىء أستر للعِىّ ؟ قال : عقل يُجَمِّله ، قالوا : فإن لم يكن له عقل ؟ قال : فمال يستره ، قالوا : فإن لم يكن له مال ؟ قال : فإخوان يعبِّرون عنه . قالوا : فإن لم يكن له إخوان يعبرون عنه ؟ قال : فيكون عيِيًّا صامتاً ، قالوا : فإن لم يكن ذا صمت ؟ قال : فموت وحِىٌّ ـ سريع ـ خير له من أن يكون فى دار الحياة (١).

٥ ـ ومنها ماذكره ابن قتيبة :

يروى عن بزرجمهر قوله : إذا أقبلت عليك الدنيا فأَنفق ، فإنها لاتَفْنَى ، وإذا أدبرت عنك فأَنفق ، فإنها لا تَبْقَى ، أخذه شاعر فقال .

فأَنفق ـ إذا أنفقت ـ إن كنت موسراً
وأنفق ـ على ماخَيَّلَتْ ـ حين تُعسر

فلا الجود يفنى المالَ والجَدُّ مقبلٌ
ولا البخل يبقى المال والجدُّ مُدْبر(٢)

وقيل لابن المقفع . لم لا تطلب الأُمور العظام ؟ فقال : رأيت المعالى مشوبة بالمكاره ، فاقتصرت على الخمول ضناً بالعافية .

أخذه العتابى فقال :

دعينى تجئنى ميتتى مطمئنة　　ولم أَتَجَشَّمْ هولَ تلك الموارد

فإن جَسيمات الأُمور مشوبةٌ　　بمستودعات فى بطون الأَساود (٣)

٦ ـ وهذه فقرات من كتاب (التاج فى أخلاق الملوك) المنسوب إلى الجاحظ (٤) يتبين منها لون من النظم والأَخلاق المنقولة عن الفرس .

---

(١) البيان والتبيين ١/٧ بزرجمهر : حكيم فارس هو الذى قص تاريخ نسخ كتاب كليلة ودمنة وترجمته من كتاب الهند .

(٢) عيون الأخبار ٣/١٧٩ . (٣) الأساود : الحيات . (٤) ١٨ ، ٤٧ ، ٩٠ ، ٩٤ .

(أ) ومن حق الملك ألا يُحَدَّث على طعامه بحديث جد ولا هزل ، وإن ابتدأ بحديث فليس من حقه أن يعارض بمثله ، وليس فيه أكثر من الاستماع لحديثه والأبصار خاشعة ، ولشيء ما كانت ملوك ساسان إذا قدمت موائدهم زمزموا عليها ، فلم ينطق ناطق بحرف حتى ترفع ، فإن اضطروا إلى الكلام كان مكانه إشارة وإيماء يدل على الغرض الذى أرادوا والمعنى الذى قصدوا .

(ب) فأما كل ماأمكن الملك أن ينفرد به دون خاصته فمن أخلاقه ألا يشارك أحداً فيه ، كذا حكى عن أنوشروان ومعاوية بن أبى سفيان ، وبعض أهل العلم يحكى عن الرشيد مايقرب من هذا . ألا ترى أن الأمم الماضية من الملوك لم يكن شئ أحب إليهم من أن يفعلوا شيئاً تعجز عنه الرعية ، أو يتزيوا بزى ينهون الرعية عن مثله ؟ .

فمن ذلك أردشير بن بابك — وكان أنبل ملوك بنى ساسان — كان كان إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد فى المملكة على رأسه قضيب ريحان متشبهاً به ، وكان إذا ركب فى لِبسة لم يُرَ على أحد مثلها ، وإذا تختم بخاتم فحرام على أهل المملكة أن يتختموا بمثل ذلك الفص وإنَ بُعدَ فى التشابه .

وهذا أبو أُحَيْحَة سعيد بن العاص كان إذا اعتمَّ بمكة لم يعتم أحد بعمة مادامت على رأسه .

وهذا الحجاج بن يوسف كان إذا وضع على رأسه طويلة — قلنسوة عالية — لم يجترئ أحد من خلق الله أن يدخل وعلى رأسه مثلها .

وهذا عبد الملك بن مروان كان إذا لبس الخف الأصفر لم يلبس أحد من الخلق خفا أصفر حتى ينزعه .

(حـ) ومن حق الملك إذا عطس ألا يُشَمَّتَ ، وإذا دعا لم يؤمَّنْ على دعائه . وكانت ملوك الأعاجم تقول : حقيق على الملك الصالح أن يدعو للرعية الصالحة ، وليس بحقيق للرعية الصالحة أن تدعو للملك الصالح ، لأن أقرب الدعاء إلى الله دعاء الملك الصالح .

(د) ومن حق الملك أنْ يكتم أسراره عن الأب والأم والأخ والزوجة والصديق ، فإن الملك يحتمل كل منقوص ومأنوف(١) ، ولا يحتمل ثلاثة : صفة أحدهم أن يطعن فى ملكه ، وصفة الآخر أن يذيع أسراره ، وصفة الآخر أن يخونه فى حُرَمه .

فأما ماوراء ذلك فمن أخلاق الملوك أن تَلْبَس خاصتها ومَنْ قرب منها على مافيهم ، وأن تستمع منهم إذا سلموا من هذه الصفات الثلاث .

وكان كسرى أبرويز يقول : يجب على الملك السعيد أن يجعل همه كله فى امتحان أهل هذه الصفات ، إذ كانت أركان الملك ودعائمه .

ثم ذكر فى تفصيل طريقة كسرى أبرويز فى امتحان رجاله فى حفظ السر ، وفى حفظ الحرم ، وفى الطعن فى المملكة .

(هـ) وكتب ابن المقفع لأبى جعفر المنصور كتابا ألمَّ فيه بما ينبغى على الخليفة أن يراعيه فى سياسة الشعب (٢) .

من هذا وصاته بجند خراسان لأنهم جند لم يُدرَك مثلهم فى الإسلام ، وفيهم منعة ، وهم أهل بصر بالطاعة وفضل عند الناس ، وعفاف نفوس وفروج وكف عن النساء ، وذل للولاة ، ورأى ألا يُوَلَّى أحدهم

---

(١) المأنوف : الرجل المكروه .

(٢) رسائل البلغاء ٤٩ .

منهم شيئاً من الخراج ، فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، وقال إن فيهم مجهولين أفضل من بعض قادتهم ، فلو قُرِّبوا وأحسن إليهم كانوا عدة وقوة .

ومنه إشارته على الخليفة أن يوقت للجند وقتاً يعرفونه فى كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو مابداله ، فينقطع الاستبطاء والشكوى ، وأن تزداد أرزاقهم ، لأنهم يحتاجون إلى كثرة المال لغلاء السعر ، ورأى ألا يخفى على الخليفة أمر من أخبار الجند وأسرارهم ، وأن يستعين الخليفة على تحقيق ذلك بالنفقة ولا يضن بالمال ، ويستعين بالثقاة النصحاء من رجاله .

وأوصى الخليفة بأهل الكوفة والبصرة ، لأنهم أقرب الناس إلى متابعته ومعاونته ، وقال إن فى أهل العراق من الفقه والعفاف والعقل والفصاحة ماينذر أن يكون فى غيرهم ، وما انتقص من أقدارهم إلا الولاة الأشرار الذين تولوا عليهم . وعلّل تعليلا لطيفاً لإبعاد كثير منهم عن شؤون الحكم فى العصر العباسى بقوله :

« ثم كانت هذه الدولة فلم يتعلق مَنْ دونكم من الوزراء والعمال إلا بالأقرب فالأقرب ممن دنا منهم ، فوقع رجال مواقع شائنة لجميع أهل العراق حينما وقعوا من صحابة خليفة ، أو ولاية عمل ، أو موضع أمانة ، أو موطن جهاد ، وكان من رأى أهل الفضل أن يُقصدوا حتى يُلتمسوا ، فأبطأ ذلك بهم أن يُعرفوا أو ينتفع بهم ، فنزلت الرجال عن منازلها ، لأن الناس لايلقون صاحب السلطان إلا متصنعين بأحسن مايقدرون عليه من الصمت والكلام ، غير أن أهل النقص هم أشد

تصنعاً ، وأحلى ألسنة ، وأرفق تلطفاً للوزراء ، أو تمحلا لأن يثنى عليهم من وراء وراء » .

وهو فى قوله : « إن أهل النقص أشد تصنعاً ، وأحلى ألسنة ، وأرفق تلطفاً فى معاملة الحكام ، وأبرع تحايلاً على أن يُثنى عليهم فى غيابهم ، » هو فى قوله هذا يصوِّر نفسية طائفة من الانتهازيين الذين يحسون بنقص كفايتهم ، فيتسلقون رقاب الأكفاء بوسائل لايعرفها الأكفاء .

ثم أوصاه بأهل الشام ، وأن يختار منهم من يرجو عنده صلاحاً أو وفاء ، لأن تقريبه لهم ينسيهم تشيعهم لبنى أمية ، ورأى ألا يعاملهم كما عاملوا هم أهل العراق من قبل إذ حَرَموهم ، ونحوهم عن المنابر والمجالس والأعمال ، واعتذر لهم عما فرط من تأبيبهم على دعوة بنى العباس بأنه لم يخرج الملك من قوم إلا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها .

وأوصاه بأصحابه الذين هم بهاءُ فنائه ، وزينة مجلسه ، وألسنة رعيته ، وأعوانه على رأيه ، وموضع كرامته ، والخاصة من شعبه ، وحذره السفلة والانتهازيين « ممن لاينتهى إلى أدب ذى نباهة ، ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأى ، مشهور بالفجور فى أهل مصره ، وقد غَبَر عامة دهرة صانعا يعمل بيده ، فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل البيوتات من العرب ، ويجرى عليه من الرزق الضعف مما يجرى على كثير من بنى هاشم وغيرهم من سروات قريش ، ويخرج له من المعونة على نحو ذلك ، لم يضعه بهذا الموضع رعاية رحم ، ولافقه دين ، ولا بلاء فى مجاهدة عدو ، ولا عناء

حديث ، ولا حاجة إليه فى شىء من الأشياء ، وليس بممارس ولا خطيب ، ولا علامة ، إلا أنه خدم كاتباً أو حاجباً فأخبر أن الدين لا يقوم إلا به حتى كتب كيف شاء ، ودخل حيث شاء » .

لم يقتصر التأثير على الترجمة ، والوقوف عند حد المعرفة ، بل تعدى ذلك إلى التذوق والمحاكاة والاقتباس .

(٣) الكلف بالمحسنات

اصطبغت الكتابة بمذهب الكلف بالحلى اللفظية والمعنوية حتى صارت الكتابة فى القرن الثالث والرابع تكاد لاتخرج عن هذا المذهب ، ولم يكن كتاب العرب يكلفون بالصناعة هذا الكلف ، أو يقيمون فنهم عليها ، وقد اشتهر بهذا المذهب كُتَّاب أكثرهم من الفرس ، وحاكاهم كتاب من العرب .

وزعيم هذا المذهب ابن العميد الفارسى ، وقد نشأ فى بيئة فارسية ، وكان يجيد اللغة الفارسية ، ويجيد العربية ، وحاكاه الصاحب ابن عَبَّاد ، وأبو بكر الخوارزمى ، وبديع الزمان الهمذانى وغيرهم ، ثم جاء الحريرى فأمعن فى الصناعة إمعاناً .

كذلك اتسمت الرسائل بالمقدمات والخواتيم وتنويعهما بحسب المقام ، والإكثار من ألقاب التعظيم والتفخيم .

وأول من استحدث ذلك عبد الحميد بن يحيى فى آخر الدولة الأموية ، ثم حاكاه كتاب العصر العباسى ، وأغرق بعضهم فى الكلف بالمقدمات وألقاب التعظيم إغراقا .

ولقد تبدو الصناعة اللفظية أقرب إلى القبول ، لخفتها أو لقلتها

أو لمهارة الكاتب التى لاتجعل الصناعة صارخة بالتكلف الثقيل ، كقول بديع الزمان الهمذانى فى المقامة الأسدية :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : كان يبلغنى من مقامات الإسكندرى ومقالاته مايُصْغِى إليه النَّفور ، وينتفض له العصفور ، ويروى لنا من شعره مايمتزج بأجزاء النفس رقة ، ويَغمُض عن أوهام الكهنة دقة ، وأنا أسأل الله بقاءه ، حتى أُرزق لقاءه ، وأتعجب من قعود همته بحالته ، مع حُسْن آلته . . ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأبوال ، وقطعت الحبال ، وأخذت نحو الجبال ، وطار كل واحد منا إلى سلاحه ، فإذا السبع فى فروة الموت قد طلع من غابه ، منتفخا فى إهابه ، كاشرا عن أنيابه ، بطرف قد مُلِئ صَلَفا ، وأنف قد حُشِى أَنَفا ، وصدر لايَبْرحه القلب ، ولا يسكنه الرعب ، وقلنا خطبٌ مُلم ، وحادث مُهِم ، وتبادر إليه من سرعان الرفقة فتى :

أخضر الجلدة فى بيت العربْ　　يملأُ الدلو إلى عقد الكُرَبْ

فها هنا سجع لم يتخلف إلا قليلا ، وجناس ، وطباق .

وقد تبدو الصناعة ثقيلة متكلفة ، كقول الحريرى فى المقامة السنجارية (١) :

حدثنا الحارث بن هَمَّام قال : قفلت ذات مرة من الشام ، أَنْحو مدينة السلام ، فى ركب من بنى نُمَيْر ، ورفقة أولى خير ومَيْر ، ومعنا أبو زيد السَّروجى (٢) ، عُقْلة العَجْلان (٣) ، وسلوة الثكلان ، وأعجوبة]

---

(١) سنجار : بلد بعراق العجم .

(٢) نبسة إلى سروج بلد قرب حران .

(٣) محبس المتعجل .

الزمان ، والمشار إليه بالبنان فى البيان ، فصادف نزولنا سِنْجار ، أن
أو لم بها أحد التجار ، فدعا إلى مأْدبته الجَفَلَى(١) . من أهل الحضارة
والفَلا ، حتى سرت دعوته إلى القافلة ، وجمع فيها بين الفريضة
والنافلة .

فلما أجبنا مناديه ، وحللنا ناديه ، أحضر من أطعمة اليد واليَدَيْن(٢)
ما حَلَا بالفم وحَلِي بالعين ، ثم قَدَّم جاما(٣) كأنما جمد من الهواء ،
أو جُمع من الهباء ، أو صُبغ من نور الفضاء ، أو قُشر من الدرة البيضاء ،
وقد أُودع لفائف النعيم (٤) وضُمِّخ بالطيب العميم ، وسَبَق إليه شَرْبٌ
من تسنيم (٥) ، وسَفَر عن مرأى وسيم .

. . . . (٦)

ولا شك أن التصنع هنا أثقل من سابقه ، والتكلف أوضح ،
والتلاعب بالألفاظ أبرز .

على أن الحريرى كان صاحب إبداع ومهارة ، لم يدع فناً من فنون
البديع إلا استخدمه فى مقدرة حيناً وفى تكلف حينا ، حتى إنه فاق الحد
فى حيله .

فهو إلى الصناعة المتعددة والتلاعب الكثير مبتكر لحيل ليست من
علم البديع ، وذلك أنه أنشأ خمس مقات للألغاز هى الفَرْضية فى

---

(١) الجفلى : الدعوة العامة .
(٢) ما يقطع بيد وما لا يقطع إلا بيدين .
(٣) الجام : الوعاء من زجاج .
(٤) لفائف : جمع لفيفة وهى مالف من الحلوى.
(٥) تسنيم : عين بالجنة .
(٦) شرح مقامات الحريرى للشريشى ١/١٠٤ .

مسألة توريث ، والنحوية فى مئة لغز نحوى ، والطِّيبية (١) فى مئة لغز فقهى ، والمَلَطِيَّة(٢) فى عشرين مقايضة كلامية (٣) ، والشتوية فى خمسين تورية ملغزة ضمنها قصيدة بائية فى كل بيت لغز سوى بيت المطالع وثلاثة أبيات ضمنها إعجابا بنفسه .

وإنه لأعجب من هذا ماجاء فى مقامات ست هى المغربية للعبارات التى تقرأ ردًّا وطردا ، والقهقرية للرسالة التى تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه ، والخَيْفاء للرسالة التى إحدى كلماتها معجمة والأُخرى مهملة ، والرَّقطاء للرسالة التى أحد حروف كلماتها معجم والآخر مهمل ، والسمرقندية للخطبة العارية من النقط ، والحلبية لعشر مقطعات من الأبيات ، أولاها حروفها معجمة ، والثانية حروفها مهملة ، والثالثة كلمة مهملة وكلمة معجمة ، والرابعة كل كلمتين بها مجنستان جناسا خطيا ، والخامسة بطرفى كل بيت جناس بين كلمة وكلمتين ، والسادسة لما أشكل من ذوات السين ، والسابعة لما أشكل من ذوات الصاد ، والثامنة لما يجرى عليه هذان الحرفان ، والتاسعة لهجاء الأفعال الناقصة ، والعاشرة لما ورد من الكلمات به ظاء .

ولقد يقتضينا المقام أن نورد هنا ألواناً من حيل الحريرى فى مقاماته ، ومنها الكلمات التى تقرأ طرداً وعكساً ، كقوله : لذ بكل مؤمَّل إذا لمَّ ومَلِّك بذل

(١) نسبة إلى طيبة وهى المدينة المنورة .

(٢) نسبة إلى ملطية بلد بالجزيرة .

(٣) المقايضة هى الأحاجى وتكون بطلب كلمة واحدة تؤدى معنى كلام .

وقوله :

أسِ أرملاً إذا عَرَا ... وارعَ إذا المرء أسا
أسْنِدْ أخا نباهة ... أبِنْ إخاه دنَسا
أسلُ جناب غاشم ... مشاغب إن جلسا
أسْرُ إذا هبَّ مِراً ... وارم به إذا رسا

ومما يقرأ من أوله بوجه وآخره بوجه قوله(١) : « الإنسان صنيعة الإحسان » (عكسه الإحسان صنيعة الإنسان) « وشيمة الحر ذخيرة الحمد » (عكسه الحمد ذخيرة الحر) « وسوء الطمع يباين سوء الورع » (عكسه الورع يباين سوء الطمع) « وجزاء المدائح بَثُّ المنائح » (عكسه بث المنائح جزاء المدائح) .

ومن الرسالة التى حروفها أحدها معجم والآخر مهمل قوله (٢) :

أخلاق سيدنا تُحَبّ ، وبعَقْوته يُلَبُّ ، وقربه تُحَف ، ونأيه تلف ، وَخُلَّته نَسَب ، وقطيعته نَصَب ، وَغَرْبُه ذَلِق ، وشُهُبُه تأتلق :

سيدٌ قُلَّبٌ سَبوقٌ مُبِرٌّ ... فَطِنٌ مُغْرِبٌ عزوفٌ عَيوفُ
مُخْلِفٌ مُتْلِفٌ أغرُّ فريدٌ ... نابه فاضل ذكى أنوف
معلقٌ إذا أبان طبٌّ إذا نا ... ب هياج وجلٌّ خطب مَخُوف

مَناطُ شرفه تأتلف ، وشُؤْبوب حِبائه يَكِف ، ونائل يديه فاض . وشحٌ قلبه غاض . . . » .

ثم خلفت الحريرى طبقات من الكتاب عجزوا عن اللحاق به ، فاستكرهوا المحسنات ، وأزهقوا أرواح المعانى ، ومسخوا الخيال .

---

(١) شرح مقامات الحريرى ٢/٩٤ .
(٢) الشرح ٣/٩٤ .

٤ ــ الإغراق فى عبارات التعظيم للملوك والأمراء والكبراء ، والتهويل فى وصفهم بعلاء القدر وسعة الجاه ، إذ كان الفرس يجرون على هذا النسق ، ويغرمون بالتبجيل والتمجيد ، ويأنسون إلى خضوع الشعب للحكام وتملقهم . ويتصل بهذا الإطنابُ فى جمل الدعاء .

وقد حاكاهم أبناء العربية فى هذين الاتجاهين .

كتب إبراهيم بن سَيَّابة إلى يحيى بن خالد البرمكى مستعطفاً : « للأصْيد الجواد ، الوارى الزناد ، الماجد الأجداد ، الوزير الفاضل ، الأشم الباذل ، اللُّباب الحُلاحِل ، من المستكين المستجير ، البائس الضرير .

فإنى أحمد إليك الله ذا العزة القدير ، ولىّ الصغير والكبير ، بالرحمة العامة ، والبركة التامة .

أما بعد ، فاغنم واسلم ، واعلم إن كنت لاتعلم ، أن من يَرْحَم يُرْحَم ، ومن يَحْرِم يُحْرَم ، ومن يُحْسِن يَغْنم ، ومن يَصْنع المعروف لايندم .

وقد سبق إلىّ تغضبك علىّ ، واطراحك لى ، وغفلتك عنى ، بما لا أقوم به ولا أقعد ، ولا أتنبه ولا أرقد ، فلست بحىٍّ صحيح ، ولا بميت مستريح ، فررت بعد الله منك إليك ، وتحملت بك عليك ، ولذلك قلت :

(وذكر ثلاثة أبيات من الشعر) .

فإن رأيتَ ــ أراك الله ماتحب ، وأبقاك فى خير ــ ألا تَزْهَد فيما ترى من تضرعى وتخشعى ، وتذللى وتضعفى ، فإن ذلك ليس لى بنحيزة ولا طبيعة ، ولا على وجه تصنع ولا تَخَدُّع ، ولكنه تذلل وتخشع وتضرع من غير ضارع ولا مهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن التضرع له عز ورفعة وشرف » .

الفصل التاسع

آثار الفرس فى الشعر

عرف الشعر فى العصر الجاهلى شاعراً من الموالى هو سُحَيْم عبد بنى الحَسْحاس ، لكنه لم يكن فارسياً .

ثم عرف الشعر العربى فى العصر الأموى عدداً قليلا من الموالى ، فلما كان العصر العباسى كثر الشعراء من الموالى ، ولا سيما الفرس ، حتى زاحموا أبناء العرب وساووهم .

عرف من الذين انحدروا من أصل فارسى أبانواس ، ومروان بن أبى حَفْصة ، وبشار ابن بُرْد ، وسَلْمَا الخاسر ، ومهيارا الديلمى ، وعرف من النبط أبا العتاهية ، ومن الروم ابن الرومى.

وحسبنا أن نردد النظر فى (يتيمة الدهر للثعالبى) لنتعرف عشرات من أبناء الفرس مهروا فى قرض الشعر العربى ، نشأ بعضهم فى ظلال الدولة البويهية فى بغداد والعراق وواسط ، ونشأ بعضهم فى ظلال الدولة الزيارية بطبرستان ، وعاش آخرون فى رعاية الدولة الساسانية بخوارزم وخراسان .

وليس يعنينا هنا من اشتهروا بالمغرب والأندلس ومصر ، فإن هذه مناطق بعيدة عن العلائق الفارسية العربية التى نتحدث عنها .

ولقد أضاف هؤلاء الشعراء ومن تأثر بهم من العرب ألواناً جديدة فى الشعر العربى .

(١) التوسع فى الغزل المكشوف

كان الغزل المكشوف معروفا منذ العصر الجاهلى فى شعر الأعشى وسُحَيْم وامرئ القيس وغيرهم ، لكنه كان ضيق النطاق ، وكان فى كشفه يرتدى غلالة رقيقة من الحياء أو الكتمان ، ولم يشتهر به إلا قلة قليلة من الشعراء .

فلما جاء العصر العباسى اتسعت دائرته ، وكثر قائلوه ، وتخيروا للتعبير عن مشاعرهم كلمات عارية وألفاظا نابية ، وجهروا بما لم يجهر به سابقوهم ، فصار عاريا لايتستر ولا يستحيى .

وكان بَشَّار بن بُرْد أول من فتح باب الخلاعة على مصراعيه ، فجهر بما لايصح الجهر به ، فأقبل الفتيان والفتيات على شعره إقبالاً أنذر بالشر كقوله :

لا يؤيسنَّك من مُخَدَّرة   قولٌ تغلِّظه وإن جَرَحا
عُسْرُ النساء إلى مياسرة   والصعب يَسْهُلُ بعد ما جَمحا

حقيقة أن العرب عرفوا الأدب المكشوف فى الجاهلية ، وعرفوه فى العصر الإسلامى ، فقد كان للأعشى وسُحَيم وامرئ القيس وطرفة شعر فى الخمر وفى الغزل الحسى ، ثم كان الأخطل فى العصر الأموى صاحب خمر وخمريات ؛ وكان عمر بن أبى ربيعة يتغزل فى العصر الأموى غزلا حسيا ، وكان للوليد بن يزيد خمر وفحش .

لكن هؤلاء كان قلة ضئيلة ؛ وكانوا فى أكثر الأحوال يتحرزون فى ألفاظهم وتعابيرهم ، وقلما اصطنعوا التصريح الذى تتقزز منه النفوس .

أما فى العصر العباسى فقد كان عدد المجان كبيراً ؛ وكانوا يعمدون إلى اللفظ العارى ، والتعبير المكشوف ؛ والوصف المفصَّل .

فهل كان هذا نتيجة محتومة لتطور المجتمع فى نظم حياته ووسائل ترفه وثرائه الواسع ؟ أو كان نتيجة لخِلاط الفرس بالعرب ، وكثرة الموالى والإماء ، وما نقله الفرس إلى العرب من ضروب اللهو والترف ؟

الحق أنه كان نتيجة محتومة للأمرين معاً .

ذلك أن تطور الحياة ، وتنوع الترف ، وكثرة المال ليست هى السبب الوحيد فى كثرة المجون والخلاعة والأدب المكشوف ، لأن المجتمع فى الأقاليم الأخرى كالشام ومصر وشمالى إفريقية والأندلس قد تطورت حياته ، لكنه كان أكثر جدًّا ، وكان أحرص على التصون من المجتمع العراقى .

وإذن فقد كان الفرس أهم بواعث الخلاعة والأدب المكشوف ، لأن العرب لو لم يخالطوهم لكانت حالهم أشبه بإخوانهم فى الشام ومصر .

ولقد يغنينا فى هذا المقام أن نمثل بما حدث فى الكوفة وحدها لنتبين أثر الفرس فى الزندقة والإباحية والمجون ، وماينشأُ عن هذا من غزل حسى داعر ، فقد عاش بها نفر من الشعراء نشروا مجونهم فيها وفيما جاورها ، واشتهروا بعشق الجوارى والغلمان ، ووُسِمُوا جميعاً بالزندقة ، مثل مطيع بن إياس ، ووالبة بن الحُباب ، وأبو دُلامة ، وحَمَّاد عَجْرد ، ويحيى بن زياد ، ووفد على هؤلاء نفر آخر شاركوهم فى خلاعتهم كابن المقفع ، ومحمد بن الأشْعث ، وكانوا جميعاً يترددون على دور القيان ، حيث يطلقون لأنفسهم العنان فى ممارسة المجانة والفسوق فى غير ماتحرج أو حياء .

انتقل بعضهم إلى بغداد وغيرها ونقلوا معهم فسوقهم ومجونهم وغزلهم العارى المكشوف .

وفى كتب الأدب ودواوين الشعراء ألوان شتى من هذا الغزل ، وحسبنا أن نعرض بعض أمثلة مكسوّة من غزلهم المكشوف بالجوارى .

فالوزير المهلّبى يقول فى جاريته (تَجْنِى) :

مَرَتْ فلم تثن طَرْفها تِيها يحسدها الغصن فى تثنيها
تلك (تجنى) التى جُننتُ بها أعاذنى الله من تَجَنِّيها

والصابى يقول :

يا من بدت عُريانةً فرأيت كل الحسن منها
كانت ثيابك عورة فسُتِرْتِ بالتجريد عنها

ويقول :

إلى الله أشكو مالقيتُ من الهوى بجارية أمسى بها القلب يَلْهَج
إذا امتزجَتْ أنفاسنا بالتزامنا توهمت أن الروح بالروح تمزج

وقال الشريف الرضى فى جارية سوداء :

أحبك يالون الشباب لأننى رأيتكما فى القلب والعين توأما
سواد يود البدر لو كان وقْعُهُ بجلدته أو شق فى وجهه فما
لبغّض عند الصبح ماكان مُشْرقا وحَبَّب عند الليل ما كان مظلما
سكنت سواد القلب إذ كنت شبهه فلم أدر مِنْ عِزٍّ مَن القلب منكما

(٢) الغزل بالذكر

تقدم فى (العادات) أن الفرس كانوا يملأون قصورهم ودورهم بالغلمان ، وكانوا يستخدمونهم فى كثير من الشؤون ، ويلبسونهم ملابس الاناث ، ويحلونهم بحليهن ، وأن العرب حاكوهم فى هذا وذاك .

وتقدم أن الـكوفة غَصّت بطائفة مخنثة من هؤلاء الغلمان ، منذ امتلأت بجند خراسان الذين ساعدوا على إقامة ملك بنى العباس ، إذ كان الجنود قد جاءوا معهم بالمخنثين لا ستخدامهم كما كان الفرس يستخدمونهم ، لأن كل مانَوِىٍّ كان يصطحب غلاماً أمرد ، ويستخدمه فيما يريد .

وكان لهؤلاء الغلماء المخنثين بالكوفة مظهران غريبان على العرب : أحدهما التشبه بالنساء فى الملابس والتزين كالخضاب وتزجيج الحواجب وإطالة الشعر والتحلى بالذهب ، والآخر التغنى بالشعر الماجن فى غير تحرج أو استحياء .

ثم تكاثروا بالبصرة وبغداد بتأثير الفرس ، وكانوا يتثنون فى حركاتهم وفى مشيتهم ، فصار الخلعاء بالكوفة والبصرة وبغداد يستملحون مظهرهم ، فجعلت الجوارى يتشبهن بهم فى الملبس والمظهر ، فأطلق عليهن لقب (غلاميات) .

ولم يقف الانحلال عند هذا الحد ، بل تجاوزه إلى مرض نفسى ينذر بالشر ، إذ تردى بعض الشعراء فى عشق الغلمان ، وصار من علامات الظرف فى بغداد أن يكون للشاعر غلام يتعشقه ويتغزل به ، وقد يشترك شاعران فى عشق غلام واحد والمنافسة عليه (١) .

وكان من المنتظر أن يشتهر بالغلمان الإباحيون المنحدرون من أصل فارسى مثل حماد عَجْرد وأبى نواس والحسين بن الضحاك ووالبة ابن الحباب ، لأنهم أصحاب مجانة وخلاعة وشذوذ ، ولأنهم يأنسون إلى غناء المخنثين بشعر المجون . .

(١) الأغانى ٦/٢٠٨ و ١٢/١٠٥ .

لهذا نشأ نوع جديد من الغزل ، زاحم الغزل بالمؤنث الذى تغنى به العرب منذ الجاهلية ، هو الغزل بالمذكر ، كقول أبى نُواس فى غلام(١) .

وشادن تسحر عيناه ... أسفلُهُ يجذب أعلاه
ينظر مولاه إلى وجهه ... يا ليتنى عينٌ لمولاه
أعَرْتُهُ روحى وقلبى فقد ... عَيِيتُ مما أتقضّاه
ولو رآنى ميتاً فى الهوى ... لقال لى أبعدك الله

ومن هذا الغزل قول الخُبْزَ أرْزِى(٢) :

خليلىَّ هل أبصرتما أو سمعتما ... بأكرم من مولىً تمشَّى إلى عبد ؟
أتى زائراً من غير وعد وقال لى ... أصونك عن تعليق قلبك بالوعد
فما زال نجم الكأس بينى وبينه ... يدور بأفلاك السعادة والسعد
فطوراً على تقبيل نرجس ناظر ... وطوراً على تعضيض تفاحة الخد

وقول أبى الحسن محمد بن عبد الله السلامى فى غلام بدوى :

تعلقته بدوىَّ اللسا ... ن والوجه والزى ثبت الجنان
أعانق من قَدِّه صَعْدَةً ... ترى اللحظ منها مكان السنان
أدار اللِّثام على ثغره ... فأهدى الشقيق إلى الأُقحوان
فيابدوىّ سهام الجفون ... صَرَعْنَ ضيوفك حول الجِفان
فإن كان دينك رعى الذمام ... فقل : أنت من ذمتى فى أمان

---

(١) الديوان ٤٠٥ .

(٢) كان لا يكتب ولا يقرأ ، وكانت حرفته خبز الأرز فى دكانه بمربد البصرة ، فكان يخبز وينشد أشعاره فى الغزل والناس يزدحمون حوله ويستمعون إلى شعره، وكان أحداث البصرة يتنافسون فى ميله إليهم وذكره لهم ويحفظون كلامه (يتيمة الدهر ٢/٣٦٧) .

وقول ابن سُكَّره :

سألته فى صحوه قبلة فردّنى والموت فى رَدِّهِ
حتى إذا السكر لوى رأسه قبلته ألفا بلا حَمْده

وفى يتيمة الدهر للثعالبى أنماط فاحشة من هذا الغزل يعف عن نسطيرها القلم .

فهل كان الغزل بالمذكر محاكاة لتغزل الفرس بالذكور كما يتغزلون بالإناث ؟

لقد شاع فى الدراسات الأدبية أن شعراء العرب حاكوا شعراء الفرس فى الغزل بالمذكر، حتى صارت الدعوى من كثرة ترديدها أشبه بالحقيقة .

لكن الحقيقة ليست كذلك ، « لأن اللغة الفارسية لا تفرق بين المذكر والمؤنث فى الضمائر وأسماء الإشارة والصفات، فالضمير (أو) هو أو هى و (تو) معناه أنتَ أو أنت ، واسم الإشارة (اين) معناه هذا أو هذه (وآن) معناه ذلك أو تلك ، وليس فى الفارسية إلا اسم موصول واحد هو (كه) لجميع الحالات ، وإنما يتعين المراد بالسياق .

ولعلك توافقنى إذا قلت إنه ليس فى سياق الشعر الغزلى مايرجح أن الشاعر يريد بغزله المذكر ، فليت شعرى إلى أى شىء استند من قالوا إن شعراء الفرس مولعون بالتغزل بالمذكر »(١) ؟

على أن الغزل بالمذكر شاع فى العصر العباسى قبل أن يستقيم الشعر

(١) قصة الأدب الفارسى ١٨٣ .

الفارسى الجديد ، فكيف تأتى للعرب أن يحاكوا شعراً لم يتجاوز عهد الطفولة ؟

وذلك أن أبا نواس وأضرابه مارسوا هذا الغزل قبل القرن الثالث ، وهو العصر الذى بدأ فيه الأدب الفارسى يبعث بعد رقاد طويل ، ويستظل فى بعثته هذه بالأدب العربى ويحاكيه ، أما الأدب الفهلوى فقد كان مجهولاً للفرس فى العصر العباسى ، ولم يعرف الدارسون منه إلى يومنا هذا إلا نتفا وشذرات ، ليس فيها غزل بالمذكر .

من الإنصاف أن نقول : إن الغزل بالمذكر بدعة ظهرت فى العصر العباسى نتيجة لعوامل متعددة من زندقة وإباحة وانحلال خلقى ، وكثرة فى الغلمان والمخنثين ، وولع أبناء الفرس بهم ، وإسفافهم فى التعبير عن عواطفهم المريضة بشعر عربى ، ولا ننكر أن بعض العرب حاكوهم فى كلفهم بالغلمان والتغزل بهم كما يتغزلون بالإناث .

ومن هنا يتضح الفرق بين نشأة الغزل بالمذكر فى الشعر العربى محاكاة للشعر الفارسى ، وبين نشأته بتأثير أبناء الفرس الذين قرضوا الشعر العربى ، وكان كثير منهم لايعرف الفارسية ، وكذلك نشأته بتأثير الترف والخلاعة والانحلال .

ومهما يكن من شئ فإننا مازلنا نلمح فى بعض الشعر العربى الحديث وفى بعض الأغنيات الفصيحة والعامية آثارة من مظهر الغزل بالمذكر فى الدلالة على الأنثى بضمير المذكر فى الخطاب والغياب .

(٣) التوسع فى الخمريات

كان العرب يعرفون الخمر فى جاهليتهم ، وكانت ترد إلى بلادهم من جهات شتى ، وكثيراً ماوصفها بعض شعرائهم ، ووصفوا مجالسها وسقاتها وتحدثوا عن الندامى وعن القيان اللاتى كنّ يغنين لهم فى مجالس الشراب (١) .

فلما جاء الإسلام حرم الخمر تحريماً ، ووصفها بأنها رجس من عمل الشيطان ، فكف الشعراء عن وصفها .

ثم عاد بعض الشعراء إلى التغنى بها فى العصر الأموى ، وكان زعيمهم فى المجاهرة بشربها والإكثار من ذكرها الأخطل الشاعر التغلبى النصرانى .

ولم يكد يستهل العصر العباسى بما صاحبه من حضارة وترف وثراء وإطلاق للحريات الفردية ومخالطة عميقة للفرس وغيرهم ، ومانشأ عن ذلك من زندقة ومجون ، حتى كثرت أنواع الشراب ، وتعددت مجالسه ، وأقبل ناس عليه فى غير تأثم ، فلهج كثير من الشعراء بالخمريات ، وتزعمهم أبو نواس ، فنى ديوانه آلاف الأبيات فى الخمر ، أتى فيها بكل جديد من الفكرة وطريف من الخيال .

وهو الذى ابتدع افتتاح القصائد بالخمر ، إذ كانت مطالع كثير من قصائده إشادة بالخمر ودعاء إلى شربها ، وتهكماً بالذين يبدأون قصائدهم بالغزل وبكاء الأطلال ، كقوله :

صفـة الطُّلول بلاغـة القِدَم ... فاجعـل صفاتك لابنة الكرم (٢)

(١) راجع الحياة العربية من الشعر الجاهلى للمؤلف ـ فصل الخمر .

(٢) ديوان أبى نواس ٣٢٣ القدم بالقاف الزمن القديم أو الفدم بالفاء المفتوحة أى الثقيل.

وقوله :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند
واشرب على الوردِ من حمراء كالورد (١)

وقوله .

تبكى على طَلَل الماضين من أسد ... لا درّ درُّك قل لى :من بنو أسد؟
لا جفّ دمع الذى يبكى على حجر ... ولا صفا قلب من يصبو إلى وَتَد
كم بين ناعت خمر فى دساكرها ... وبين باك على نُؤْى ومُنْتَضَد

أما خمرياته فكثيرة ، منها قوله :

أكل الدهر ماتجسّم منها ... وتبقّى لُبابها المكنونا
ثم شُجّت فاستضحكت عن لآلٍ ... لو تجمّعْن فى يد لاقْتُنينا
فإذا ما لمستها فهباءٌ ... تمنع الكفّ ماتبيح العيونا
فى كؤوس كأنّهن نجوم ... جاريات بروجها أيدينا
طالعات من السقاة علينا ... فإذا مَا غَرَبْن يغربن فينا (٢)

وقال أبو الحسن السّلامى :

اشربا واسقيا فتى يصحب الأيّـ ... ـامَ نفسا كثيرة الأوطار
والنفوس الكبار تأْنف للسا ... دة أن يشربوا بغير الكبار
فى جوار الصبا نحلّ بيوتا ... عُمِّرَتْ بالغصون والأقمار
ونصلّى على أذان الطنابيـ ... ـرِ ونصغى لنَغْمة الأوتار
بين قوم إمامهم ساجد للـ ... ـكأْس أو راكع على المزمار

---

(١) الديوان ٢٦٧ .
(٢) الديوان ١/٣٩٩ .

ويتصل بالخمريات وصف مجالسها وكؤوسها وآثارها فى النفوس وسقاتها ووصف الندامى والقيان وماشابه ذلك ، كقول ابن المعتز :

وأمطرَ الكأْسَ ماءً من أنامله ... فأنبت الدرَّ فى أرض من الذهب
وسبّحَ القوم لما أن رأوا عَجَبا ... نُوراً من الماء فى نار من العنب

وقوله فى وصف تأْثير السكر :

وقد شربوا حتى كأَن رءوسهم ... من اللين لم يُخْلَقْ لهن عظام

وقوله فى وصف السقاة وقيامهم على رءوس الشاربين :

وكأَن السقاة بين النَّدَامى ... أَلِفاتٌ بين السطور قيام

(٤) معان وأخيلة

على أَن الشعراء المتصلين بالفرس أَو بالثقافة الفارسية أَو المتأَثرين بحضارة الفرس زودوا الشعر العربى بمعان وأَخيلة جديدة كقول بشار :

ياقوم أُذنى لبعض الحى عاشقة ... والأُذن تَعْشَقُ قبل العين أَحياناً
قالوا بمن لاترى تَهْذِى فقلت لهم ... الأُذن كالعين تُوفِى القلب ماكانا

وقول أَبى نُواس :

لست أَدرى أَطال ليلى أَم لا ... كيف يدرى بذاك من يتَقَلّى ؟
لو تفرَّغْتُ لاستطالة ليلى ... ولرَعْى النجوم كنت مُخِلاَّ

وقوله فى وصف الخمر :

ونَدْمانٍ سَقَيتُ الراح صِرْفا ... وسِتْرُ الليل مُنْسدِلُ السُّجوف
صفَتْ وصَفَتْ زجاجتها عليها ... كمعنى دقَّ فى ذهن لطيف

وقوله :

قـل لزهير إذا اتّـكا وشـدا أقلِلْ أو أكثر فـأنت مِهْـذار
سَخُنْتَ من شـدة البـرودة حـتّى صرت عندى كأنك النار
لا يَعْجَب السامعون من صفـتى كـذلك الثلج باردٌ حـار(١)

وهو بهذا يردد مازعمه علماء الهند أن الشيء إذا زادت برودته صار حاراً ، وقو له :

ومستطيل على الصهبـاء باكرها فى فتية باصطباح الراح حُذّاقِ
فـكل شيء رآه ظنـه قَـدَحـاً وكل شخص رآه قال ذا الساقى

ولقد كان الشاعر العربى التغلبي المشهور بالعتّابى معجباً بما فى كتب الفرس من أفكار ، وهذا هو السبب فى عمق معانيه وجدة بعضها ، كقوله فى الشكر :

فلو كـان للشـكر شخص يبين إذا مـا تَـأَمّلَهُ النـاظـرْ
لمثلتُـهُ لك حـتّى تـراه لتعلمَ أنّى امـرؤ شـاكـر

وله فى النثر قدم سَبْق ، استدعاه المأمون وقال له : بلغتنى وفاتك فساءتنى ، ثم بلغتنى وفادتك فسرتنى ، فقال العتابى : ياأمير المؤمنين لو قسمت هذه الكلمات على أهل الأرض لوسعتهم ، وذلك لأنه لادين إلا بك ، ولا دنيا إلا منك . فقال المأمون سلنى ، قال العتابى : يدك بالعطاء أطلق من لسانى .

ومن حكمه قوله : الأقلام مطايا الفِطَن . عشيرك من أحسن عشرتك . أهدى الناس إلى مودتك من أهدى بِرّه إليك (٢) .

---

(١) الديوان ١٨١ .

(٢) الشعر والشعراء . ٣٦٠ والأغانى ٢/١١ .

(٥) الكلف بالمحسنات

أغرم الشعراء بالمحسنات اللفظية والمعنوية ، وكان بعضهم يتوخاها توخيا ، ويتعمدها تعمداً ، ويتصيدها فى حرص عليها شديد .

(أ) وكان كلفهم بالجناس أشد ، ولهذا تنوع وتفرع .

فمن الجناس المماثل — وهو المتفق اسميةً وفعلية — قول ابن الرومى فى وصف الجوارى السود :

للسُّود فى السُّود آثار تركن بها
وَقْعا من البيض يَثْنى أعين البيض (١)

ومن المستوفى — المختلف اسمية وفعلية — قول البُسْتى :

فقال لى : دعنى ولا تؤذنى   إلى متى أجرى بلا أجر

ومن المركب — المتفق لفظاً وخطا — قول أبى الفضل الميكالى :

تفرق الناس فى أرزاقهم فِرقا   فلابسٌ من ثراء المال أو عارِ
كهذا المعايش فى الدنيا وساكنها   مقسومة بين أدْماث وأوعار
من ظن بالله جورا فى قضيته   افْترّ عن مأْثم فى الدين أوعار

ومن المفروق — المتفق لفظا لا خطا — قول البستى :

كم من أخ قد هدَّمَتْ أخلاقه   فى آخر ماقد بنى فى أول
يرمى سهاما إن أسرَّ المقتَ لى   بالكيد لا يقصدن غير المقتل

ومن المطرّف — المختلف بزيادة حرف — قول البحترى :

فإن صدَفَتْ عنا فرُبَّتَ أنفُسٍ   صوادٍ إلى تلك الوجوه الصوادف

---

(١) السود الأولى جمع سوداء للجارية ، والثانية جمع سواد القلب . البيض الأولى جمع أبيض للسيف والثانية جمع بيضاء للمرأة .

ومن المذيّل — المختلف بأكثر من حرف — قول بعض العباسيين .

فيا لك من حزم وعزم طواهما جديد الردى تحت الصّفا والصفائح

ومن المشتق — ما يرجع إلى أصل واحد — قول أبى تمام :

وأنجدتمُ من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدنى على ساكنى نجد

ومن المطلق — مالايرجع إلى أصل واحد — قول أبى نواس :

فما السُّلاف دَهَتْنِى بل سوالفُهُ ولا الشَّمول دهتْنى بل شمائله

ومن المضارع — ما اختلف بحرف مقارب المخرج — قول الشريف الرضى .

لا يذكر الرمل إلا حَنَّ مغتربٌ له إلى الرمل أو طار وأوطان

ومن اللاحق — مالا تقارب فى حرفيه — قول البحترى :

لست عن ثروة بلغتَ مداها غير أنى امرؤ كفانى كفافى

ومن اللفظى — مااختلف بحرف مقارب الخط — قول الأَرَّجانى :

أ وبيض الهند من وجدى هوازٍ بإحدى البيض من عليا هوازن

ومن جناس العكس والقلب قول ابن نباتة السعدى فى الأمير بهرام :

قيل كل القلوب من رهب الحبيب تضطربْ
قلت : هذا تخرصٌ قلب بهرام ما رهبْ

(ب) وتلاعب بعضهم بالألفاظ فى حيل شتى ، كقول الحريرى فى مقطعة حروفها كلها عاطلة :

أعدَّ لحسادك حدَّ السلاح وأورد الآمل وِردَ السماحِ

وقوله فى أخرى حالية الحروف كلها :

شغفتنى بجفن ظبى غضيض غَنِج يقتضى تَغَيُّضَ جفنى

وقوله فى ثالثة إحدى كلماتها مهملة والأخرى معجمة :

اسمح فبَثٌّ السماح زينٌ ولا تُخبْ آملا تَضَيَّفْ

وقوله فى رابعة خطية الجناس :

زينب زُيِّنَتْ بِقَدٍّ يَقُدّ وتلاه ويلاه نَهْدٌ يَهُدّ

وقوله فى خامسة مطرفة الجناس :

سمْ سمة تَحْسُنُ آثارها واشكر لمن أعطى ولو سمسه (١)

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى ٣٣٨ للأستاذ السباعى بيومى .

الفصل العاشر

تعقيبات

التعقيب الأول

شرٌّ وخير

جدير بنا بعد هذا التطواف أن نقف وقفة قصيرة ، لنَزُوزَ فى إنصاف ماقدم الفرس للعرب فى الجاهلية وفى الإسلام من شر أو من خير ، قبل أن نبدأ رحلة أخرى ، نتبين فيها ماقدم العرب للفرس من صنوف النفع والخير .

١ ـ ويبدو أن خير مااستفاده العرب من الفرس جاهلية وإسلاما هو أنهم نقلوا من مفردات اللغة الفارسية كثيراً ، فأثروا اللغة العربية بها وبما اشتقوه أو تجوزوه منها ، وأنهم نقلوا بعض أقاصيص الفرس وحِكَمهم ومعانيهم وأخيلتهم .

كذلك ساهم أبناء الفرس بعد أن أسلموا وتعلموا العربية مساهمة مثمرة جادة فى إثراء اللغة العربية بمؤلفاتهم القيمة التى تناولت ألوان المعارف والثقافة ، ولم يقصروا فى العلوم اللغوية والأدبية ، فإن جهدهم فى هذا المجال حميد ، لا يجحده أحد ، وكان منهم شعراء وكتاب حذقوا اللغة العربية ، وزاحموا بشعرهم ونثرهم الأفذاذ من العرب الخُلّص ، فأثروها بجديد من الأفكار ، وبطريف من الخيال .

٢ ـ وقد يقال إن العرب اقتبسوا منهم نظماً فى الادارة والسياسة ،

كالوزارة ، وبيوت الإذن ، والتنجيم والمنجمين ، والدواوين وماشاكلها ، وهذا صحيح ، ولكنه محتاج إلى تعقيب .

(ا) ذلك أن بيوت الإذن (الحجابة) للدخول على الخليفة أو الحاكم مظهر من مظاهر الأُبهة والاستعلاء والحكم المطلق كان العرب فى غنى عنه ، بل ليتهم ما عرفوه .

(ب) أما التنجيم بمعنى التكهن بالغيب والتصرف فى شؤون الدولة على وفق ما يقول المنجمون ، فإنه عمل لا يقره الإسلام ولا يصح أن تصرف الدولة شؤونها على هواه ، ولهذا لم يعبأ بهم المعتصم حينما خوفوه فتح عَمُّوريّة ، وكانت سيوفه أصدق أنباء من كتبهم كما قال أبو تمام ، فانتصر على الروم انتصاره المعروف .

(ج) وأما الوزارة فإنها بلفظها ليست غريبة على العرب ، فالوزير حامل الوزر وهو الثقل ، لأنه يحمل أعباء الحكومة ، أو الوزير هو الملجأ والمرجع فى تدبير الشؤون ، لأن الوَزَر هو الملجأُ والمعتَصَم .

والوزارة بدلالتها كانت معروفة عند العرب ، إذْ أرادوا بالوزير من يعين الحاكم ويشد أزره ويشير عليه .

وهى بهذا المعنى معروفة منذ عهد النبوة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يشاور صحابته فى الشؤون العامة والخاصة ، وكان يختص أبا بكر ببعض الشؤون ، حتى إن العرب الذين خالطوا الفرس والروم قبل الإسلام وعرفوا وظيفة الوزير عندهم كانوا يطلقون على أبى بكر وزير النبى .

ثم كان عمر فى خلافة أبى بكر يقوم بالقضاء وتوزيع الزكاة

نيابة عن أبي بكر ، وكان عثمان وعليٌّ فى خلافة عمر مستشارين له ، وينهضان بما يعهده إليهما من شؤون الحكم ، إذ كان على يتولى كتابة الرسائل ، ويقضى بين الناس ، وينظر فى أحوال الأسرى ، ويفتدى أسرى المسلمين .

وقد ذكر ابن خلدون أن عمر بن الخطاب لما أراد أن يبعث إلى الكوفة بإمام يعلم الناس اختار عبد الله بن مسعود وقال : إنى بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميرا ، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيرا .

وكان هؤلاء الأعوان يقومون بأعمال الوزراء وإن لم تطلق عليهم كلمة وزراء ، لبساطة الإسلام ، ولبعده عن أبهة الملك .

ثم صارت الخلافة فى عهد بنى أمية ملكا وراثيا ، فاختار خلفاؤها بعض الرجال المحنكين وقربوهم إليهم ، وأقاموهم منهم مقام الوزراء ، ولكنهم لم يلقبوا بهذا اللقب إلا على ندرة ، فقد لقب زياد بلقب الوزير فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، ولقّب رَوْح بن زِنْباع الجذامى بلقب الوزير فى عهد عبد الملك بن مروان .

فإذا كان العرب قد نقلوا من الفرس وزارة التنفيذ ووزارة التفويض كما سبق ، فإن هذا توسع فيما عرفوه من قبل ، وتطور فى نظام الحكم لم يكن منه بُدٌّ .

والحق أن العرب كانوا بتوجيه الإسلام وتأثير التطور قد خطوا خطوات فِساحا متلاحقة فى مجالِ الإدارة والسياسة ، فكان للنبى عليه الصلاة والسلام ولخلفائه الراشدين ولبنى أمية عمال على الأقاليم هم الولاة ، وكان العامل (الوالى أو الأمير) يقوم بالشؤون السياسية ، ويؤم الناس فى الصلاة ، ويفصل فى خصوماتهم ، ويقود الجنود فى الحرب ، وكان مع الوالى عامل على الخراج يتولى الشؤون المالية ، ويراقب الوالى .

وكان للدولة جنود مدربون وقواد محنكون وأسطول وقضاة عدول وشرطة وعسس وجباة للزكاة والخراج ، وكانت لها دواوين شتى فى كل إقليم ، وكلما سار للزمن بالعرب جددوا فى نظمهم ، واستحدثوا من وسائل الإدارة ما تقتضيه الأحوال .

وكان الخلفاء الراشدون يشاورون ذوى الرأى من الصحابة وأعيان المدينة ، وكان المسجد مقر اجتماعهم ومشاوراتهم ، إذ كان المسجد مكان الصلاة ، ومركزا لإدارة الشؤون السياسية والاجتماعية ، يقول سير توماس أرنولد : لم يكن المسجد مكاناً للعبادة فحسب ، بل كان مركز السياسة والاجتماع ؛ فقد استقبل فيه النبى السفراء ، وأدار شؤون الدولة ، ومن فوق منبر المدينة أعلن عمر تقهقر جيوش المسلمين فى العراق ، واستحث قومه على السير إلى هذه البلاد ، ومن فوقه وقف عثمان يدافع عن نفسه ، كما كان الخليفة عند استخلافه يلقى من فوق المنبر خطبته الأولى على الجمهور ، يبين فيها سياسته ومنهجه ، فكان المنبر أشبه بالمنصة التى يلقى من فوقها ساسة الأمم خطبهم السياسية .

(د) وأما الدواوين فإن العرب بدأوا بإنشائها قبل أن ينقلوا شيئاً من الفرس ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم اتخذ له كتاباً يدونون القرآن الكريم ، ويكتبون رسائله إلى الملوك والأمراء ، مثل على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وزيد بن ثابت وعثمان بن عفان وأبىّ بن كعب وسعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة .

ويصح أن نعتد هذا العمل أول خطوة فى إنشاء ديوان رسمى للدولة الجديدة .

فلما تولى أبو بكر الخلافة اتخذ عثمان بن عفان كاتباً له ، ولما

تولى عمر اختار كاتبين له هما زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم ، ثم تولى عثمان فاصطنع مروان بن الحكم كاتباً له ، فلما تولى عليّ بن أبي طالب اتخذ كاتبه عبد الله بن رافع .

وحينما اتسعت الفتوح فى عهد عمر بن الخطاب ، وكثرت موارد الدولة ، احتاج إلى ديوان يضبط مايرد إلى بيت المال وما يصدر عنه ، واحتاج إلى ديوان ينظم أعطيات الجنود ، فأنشأ هذا الديوان ، واستمر ديوان الجند فى عهد عثمان وعلى ، على حين كانت فى أرجاء الدولة دواوين أخرى تقوم بأعمالها ، وكانت فى فارس باللغة الفارسية ، وفى الشام بالرومية ، وفى مصر بالقبطية .

ثم آل الأمر إلى معاوية ، فأنشأ ديوان الخاتم ، ليتولى إرسال مايكتبه الخليفة أو يمليه مختوماً لا يعرف حامله ما فيه .

ويرجع السبب فى إنشائه إلى أن معاوية كتب إلى زياد واليه على العراق أن يعطى رجلا مئة درهم ، ففض الرجل الكتاب وكان غير مختوم ، فجعل المئة مئتين ، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر المئتين ، وحينما استبان الحقيقة استرد المال من الرجل ، وأمر بإنشاء ديوان الخاتم .

على أن الكتاب تعددوا فصاروا خمسة : كاتب للرسائل ، وكاتب للخراج ، وكاتب للجند ، وكاتب للشرطة ، وكاتب للقضاء .

ثم عربت الدواوين التى كانت بفارس والشام فى عهد عبد الملك ، وعربت دواوين مصر فى عهد ابنه الوليد ، فامتلأت بالعرب وبمن أجادوا اللغة العربية من أبناء هذه الأقاليم ، وصار لكل ديوان أعماله التى يمارسها رجاله.

وفى العصر الأموى تزايدت الحاجة إلى كتابة الرسائل التى تصدر عن الخليفة ، فنشأ ديوان جديد هو ديوان الرسائل .

وكان كاتب الرسائل فى أيام عبد الملك هو سليمان بن سعد ، وإن لم ينقطع عبد الملك عن ممارستها أحياناً بنفسه .

ولكن ديوان الرسائل لم يشتهر بالافتتان فيما يحبره إلا منذ عهد هشام بن عبد الملك ، وكان الفضل فى هذا لأبى العلاء سالم بن عبد الله صاحب الديوان ، وقد تتلمذ له وحاكاه كثير من الكتاب ، وكان عبد الحميد بن يحيى أبرعهم ، ثم كان أعظمهم أثراً وأبعدهم صيتاً ، إذ تولى كتابة الديوان لمروان بن محمد وهو وال على الجزيرة ، وتولاها له وهو خليفة بدمشق إلى أن غربت شمس بنى أمية وأشرقت شمس بنى العباس .

وإذن فقد عرف العرب الدواوين ونظامها قبل أن ينقلوها عن الفرس ، فإذا كانت قد كثرت وتشعبت بعد اتصالهم بالفرس ، فإن هذا راجع إلى التطور الذى اقتضته السياسية والإدارة وإلى مخالطتهم للفرس ولغيرهم فى مصر والشام وإفريقية.

٣ — أما آثار الفرس الأخرى فلم يَخْلُص بعضها لخير العرب والمسلمين :

(ا) فنى مجال العقائد نشر بعضهم فى الجاهلية والإسلام الزرادشتية والمزدكية والمانوية والزندقة والإلحاد ، وتستر كثير منهم بالتشيع للإمام على وبنيه ، لا عن موالاة خالصة للعلوية ، ولا عن حمية للحق المسلوب ، بل لبث الفرقة والانقسام وتقويض الوحدة وزلزلة القوة ،

ليكون هذا وسيلة لاسترجاع الحكم الفارسى والخلاص من الحكم العربى .

ثم نجم عن هذا التدبير بقصد وبغير قصد أن تعددت الفرق والنحل ، حتى بلغت فرق الشيعة وحدهم ثلاثاً وسبعين .

ومن عجب أن بعض الفرق عادى بعضاً ، حتى لقد سول هذا العداء الذى لا مبرر له لبعض الفرق أن تكفر بعضها ، كأنما هذه على دين وتلك على دين .

(ب) وعلى مسرح الاجتماع والعادات أذاع بعضهم الفرس الخمر ، والترف ، والجوارى ، والغلمان ، والتبجح بالمنكرات ، فسرى الانحلال فى المجتمع ، حتى تناسى كثير من العرب أخلاقهم التى بثتها فيهم البداوة ، وغرسها فيهم الإسلام ، وصاروا لا يأنفون من الفحشاء والمجاهرة بالخمريات ، والكلف بالغلمان ، والمباهاة بالإلحاد والعدوان على الأعراض .

وكان من نتائج هذا كله أن كثر المترفون والخلعاء ، وأن تنافسوا فى السرف والبذخ ، وتسابقوا إلى مظاهر الأبهة فى المساكن والملابس والمطاعم والمشارب ، فحق عليهم قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحقَّ عليها القول فدمّرناها تدميراً »(١).

(ج) وفى ميدان السياسة أشعل بعض الفرس نار الشعوبية ، وقاموا بالثورات الانفصالية كثورة سونباذ ، والرَّاوَنْدية ، والمقنَّعة ، والمحمِّرة ،

---

(١) سورة الإسراء ١٦ .

والخرّمية ، وتمخضت هذه الثورات عن انقسام الدولة الكبرى إلى دويلات منفصلة كالصّفّارية ، والزّيارية ، والسامانية ، والبُوَيْهية ، ثم انتهى الصراع بسقوط الخلافة العباسية التى كانت تتوّج بغداد ، فتفرقت الوحدة ، ونشأت إمارات ودويلات هنا وهناك بالشرق والغرب تتناكر وتتحارب ، على حين أن أعداء العرب والإسلام لهم بالمرصاد .

التعقيب الثانى

قضية العلوم بين العرب والفرس

(١) تمهيـــد

لم يكد الإسلام تستقر دعائمه فى جزيرة العرب حتى انساح العرب فى العالم سراعا ، يحملون مشاعل الهدى ، ترافقهم لغتهم حيثما حلوا ، وما كان يمضى قرنان حتى صارت اللغة العربية هى اللغة الأدبية والعلمية والرسمية للشعوب التى خضعت لحكم العرب ، واعتنق أكثر سكانها الإسلام ، لأنها لغة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والثقافة الإسلامية ، ولأنها لسان الغالبين والحاكمين ، ولغة المكاتبات الرسمية والدواوين ، ثم لأنها أرق وأثرى من لغات هذه الشعوب ، بمفرداتها الكثيرة ، وبمرونة قواعدها النحوية والصرفية وبطواعية أساليبها ، وبحيوية أدبها .

لهذا اختفت القبطية واليونانية من مصر — كانت القبطية لغة التخاطب ، واليونانية لغة الأدب والشؤون الرسمية — وتوارت البربرية من شمال إفريقية — ليبيا وتونس والجزائر ومراكش — وانكمشت الفارسية فى العراق وفارس ، وانزوت اللهجة النوبية من بلاد النوبة ،

ثم بعد حين توارت اللهجة السودانية والكوشيتية من السودان ، ولم نظهر واحدة من هذه كلها بعد اختفائها ، ماعدا الفارسية التى استطاعت أن تسترد حياتها فى فارس منذ القرن الرابع للجهرة .

ومعنى هذا أن اللغة العربية الأدبية المشتركة للشعوب التى دانت للحكم العربى من فارس شرقاً إلى مراكش غرباً ، ومن سورية شمالا إلى السودان جنوبا .

وكانت قد ازدهرت ثقافات فى فارس والعراق وسورية ومصر وشمال إفريقية ، وبقيت منها آثار شتى ، سرعان ماتمازج تيارها بغدران الثقافة الإسلامية ، وبجداول الترجمة من اليونانية والهندية والفارسية ، فنشأت علوم وآداب وثقافات عربية إسلامية ، اشترك العرب والعجم فى وضع أصولها ، وفى دَعْم بنيانها ، ورفع سمكها ، اشتركوا فيما ألفوه فى بعضها ، وفيما أضافوه إليها من ثمرات تفكيرهم وابتكارهم .

ولا يستطيع أحد أن يتجاهل ماتتصف به هذه الثقافة العربية من سمات عربية إسلامية ، ولهذا يعتز العرب جميعا بتراثهم الثقافى المشترك ، ويطربون له ، ويباهون به ، ولا يعلقون إعجابهم بعالم أو بأديب على إقليم ، ولا يبعده عن أنفسهم أنه من إقليم آخر ، لأنهم لا يشعرون إلا بأنه عربى منهم .

ومن حق العرب أن يعتزوا بهذا التراث الثقافى المشترك ، لأنه كما يقول كيرك : « ذو قيمة عظيمة ، تقوم عليه الصلاة الأساسية بين الشرق الأدنى والغرب ، ثم بين الشرق الأوسط وآسيا البوذية .

والثقافة العربية كانت الرائدة والزعيمة منذ القرن التاسع إلى

القرن الحادى عشر ، ثم استمرت أهميتها العظيمة ثلاثة قرون أخرى ، وامتدت فى العصور الوسطى من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى.

...... وكانت اللغة العربية فى العصور الوسطى أكثر اللغات انتشاراً ، ولم تتكلم العربية وتكتب بها شعوب من أمم مختلفة فى الشرق والعرب فحسب ، بل شعوب تدين بأديان متعددة ، (١) .

(٢) دعــوى

لكن هذه المفخرة التى يجب أن تكون بمنأى عن التنازع قد جنح بها بعض الباحثين إلى ميدان التنازع تارة ، وإلى التهوين من شأن العرب تارة .

فلنتعقب هذه الدعوى منذ نشأتها إلى وقتنا الحاضر ، ثم نعقب عليها بما يكشف عن بطلانها .

١ ـ وأغلب الظن أن أول من بسط الدعوى وضخمها عبد الرحمن ابن خلدون ، وهو عربى خالص النسب ، إذ قال : « من الغريب الواقع أن حملة العلوم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم ، سواء فى ذلك العلوم الشرعية والعلوم العقلية ، إلا فى القليل النادر ، وإن كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربى .

والسبب أن الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة ، لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة ، وإنما أحكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه .

---

(١) عروبتنا ٥٦ محمود كامل .

كان الرجال ينقلونها فى صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه ، والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ، ولا دُفعوا إليه ، ولا دعتهم إليه حاجة ، وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين.

ثم احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه ، ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه ، ثم كثر استخراج الأحكام من الكتاب والسنة ، وكان اللسان قد فسد ، فاحتيج إلى وضع القواعد النحوية ، وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات فى الاستنباط ، والاستخراج والتنظير والقياس ، واحتاجت إلى علوم أخرى هى وسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين الاستنباط والقياس والدفاع عن العقائد الإيمانية ، لكثرة البدع والإلحاد ، فصارت هذه العلوم كلها علوما ذات ملكات محتاجة إلى التعليم ، فاندرجت فى جملة الصنائع ، وقد كنا قدمنا أن الصنائع من مُنْتَحل الحضَر ، وأن العرب أبعد الناس عنها ، فصارت العلوم حضرية ، وبعد عنها العرب وعن سوقها .

والحضر فى ذلك العهد هم العجم أو من فى معناهم من الموالى وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم فى الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف ، لأنهم أقوم على ذلك ، للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس ، فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسى من بعده والزجاج من بعدهما ، وكلهم عجم فى أنسابهم ، وإنما رُبُّوا فى اللسان العربى ، فاكتسبوه بالمرْبَى ومخالطة العرب ، وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم .

وكذا حملة الحديث الذين حفظوه من أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمرْبَى .

وكان علماء أصول الفقه كلهم عجما ، وكذا حملة علم الكلام وأكثر المفسرين .

ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم ، وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : « لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس » .

وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها ، وخرجوا إليها عن البداوة ، فشغلتهم الرياسة فى الدولة العباسية ، وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه ، فإنهم كانوا أهل الدولة وحماتها وأولى سياستها ، مع مايلحقهم من الأنفة من انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع ، والرؤساء أبدا يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجر إليها ، وتركوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولَّدين ، ومازالوا يرون لهم حق القيام به ، فإنه دينهم وعلومهم ، ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار ، حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك ، بما هم من البعد عن نسبتها .

وأما العلوم العقلية فلم تظهر فى الملة إلا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه ، واستقر العلم كله صناعة ، فاختصت بالعجم ، وتركتها العرب ، وانصرفوا عن انتحالها ، فلم يحملها إلا المعربون من العجم ، شأنها شأن الصنائع » (١) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١٢٤٧ تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى .

من هذا النص يتبين أن ابن خلدون رأى أن حملة العلوم – إلا القليل النادر – من العجم ، وبخاصة الفرس ، وأن العربى منهم فى نسبه أعجمى فى بيئته وتعلمه ومعرفته بلغة العجم وأخذه عن علمائهم .

وعمم حكمه هذا على العلوم التى كانت فى ذلك الوقت ، ومثل بالعلوم الدينية من تفسير وحديث وأصول وعقائد ، وبالعلوم اللسانية من نحو وصرف ولغة ، وبالعلوم الكونية التى ازدهرت بعد ذلك .

ثم علل اختصاص العجم بالعلوم وتخلف العرب عنهم بثلاثة أسباب :

(أ) كان العرب أهل بداوة فى الوقت الذى كان فيه العجم أهل حضارة ، والبداوة لاتقتضى العلوم ، بل تقتضيها الحضارة ، فلما دعت الحاجة إلى وضع التفاسير وتدوين الأحاديث واستنباط الأحكام من القرآن والسنة ، وإلى وضع القواعد النحوية ، تقدم العجم العرب ، لأنهم أصحاب ملكات راسخة من قبل .

(ب) لما تحضر العرب شغلهم الملك والحكم والسياسة والرياسة عن الاشتغال بالعلوم ، فاستقل العجم بها .

(حـ) استنكف العرب – وهم أهل السيادة والرياسة – من ممارسة العلوم ، لأنها من أنواع الحرف والصناعات ، وتركوها للأعاجم ، ولم يجدوا فى ذلك حرجا ولا نقصا ، لأن الدين الإسلامى لهم جميعا ، ولأن العلوم أعجمية النسبة .

٢ – ثم صادفت دعوى ابن خلدون هوى عند خصوم العرب من الغربيين ، فشهروا على العرب حملاتهم ، كما شن المتعصبون على

الإسلام هجماتهم ، فصرنا نرى العرب هدفا تارة ، ونرى الإسلام والمسلمين هدفا تارة أخرى

والذى يعنينا فى هذا المقام تهجمهم على العرب .

فمثلا قال بروان Brawen : خذ مما يسمى عامة علوم العرب العمل الذى أسهم به الفرس تجد أنك أخذت خير نصيب .

وقال بول دى لاجار Poul de Lagard ليس بين المسلمين الذين حققوا شيئا فى ميدان العلم سامىٌّ واحد (١) .

وقال س الجود C. Elgood : النحو العربى من وضع الأجانب من الآراميين والفرس ، وقد أوجدته الحاجة التى أحس بها هؤلاء الأجانب لتعلم كتابة اللغة العربية وقراءتها على وجه صحيح ، وعلى الأخص غير العرب الذين ، أرادوا أن يكرسوا حياتهم للدراسات العلمية ، وواضعو النحو العربى هم الأجانب من الجنسيات الآرامية والفارسية الذين دخلوا الإسلام (٣) .

وزعم رينان وأوليرى وغيرهما أن العلماء المتفوقين فى الأمة العربية والإسلامية يرجعون إلى أصول غير عربية ، وأضافوا إلى زعمهم هذا زعما آخر هو أن هؤلاء العلماء كانوا يرددون علوم سابقيهم من يونان وفرس وهنود وكلدان وآراميين ، فلم يضيفوا إلى التراث العلمى شيئا من ابتكارهم .

---

(١) تراث فارس ٣٧٧ (العلم فى فارس . الفصل الذى كتبه C. Elgood ترجمة الدكتور محمد كفافى وزملائه) .

(٢) المرجع السابق ٣٧٠ .

(٣) الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية ٩٠ فون كريمر ترجمة الدكتور مصطفى بدر .

(٣) مناقشة الدعوى

أرأيت إلى الباحث المغرض كيف يتخذ من بعض الحق دليله على صواب الرأى كله ، فيعممه تعميما ، فيتجافى الصواب ، ويغمط الناس حقوقهم ؟

هكذا كان ابن خلدون ومن شابهه من المستشرقين وغير المستشرقين الذين جحدوا فضل العرب ، وتنكروا لآثارهم العلمية ، ووضعوا الإكليل على رءوس العجم والفرس بخاصة .

فلنأخذ فى تفنيد دعاواهم وتقويض مزاعمهم ، حتى يتكشف بطلانها .

١ - لسنا ننكر أن كثيرا من العلماء الكبار يرجعون إلى أصل فارسى أو غير فارسى ، ولكن لايصح أن ننسى أنهم قد انحدروا من أصل استعرب منذ زمن بعيد ، واصطنع اللغة العربية لغة علمية وأدبية ورسمية له ، بل لغة يومية يمارس بها شؤونه ، حتى إن أكثرهم لم يكن يعرف سواها ، وهولاء العلماء درسوا العلوم العربية والإسلامية باللسان العربى ، إذ كان الإسلام دينهم وينبوع ثقافتهم ، وكانت اللغة العربية لغتهم التى ألفوا بها كتبهم ورسائلهم ، بل إن أكثرهم كانوا يجهلون لغات آبائهم الأولين ، ولهذا خلفوا تراثهم العلمى باللغة العربية وحدها كالفارابى وابن سينا والرازى والخوارزمى والبيرونى وابن رشد وغيرهم .

فللفارابى - وهو تركى الأصل - نحو مئة رسالة وكتاب كلها باللغة العربية .

ولابن سينا — وهو فارسى الأصل — نحو مئتين وثمانين رسالة وكتابا باللغة العربية ، ماعدا بضع رسائل بالفارسية .

وللرازى — وهو من أصل فارسى — مئة وثلاثة عشر كتابا ورسالة كلها بالعربية ، وكتب ابن رشد — وهو فارسى الأصل — كلها باللغة العربية ، وهكذا .

فهم إذن عرب بلغتهم وثقافتهم ومؤلفاتهم .

والذى يقرأ كتبهم يجدهم قد امتزجوا باللغة العربية امتزاجا ، ويشعر بإعزازهم لها ، وحدبهم عليها ، وفخارهم بها ، ويجد كثيرا منهم يتعصبون لها ، ويرفعونها مكانا عليا ، إذْ كانت لغة القرآن الكريم والحديث الشريف ، ولها ثراؤها وبلاغتها .

فمن الخطأ أن نعدهم غير عرب وهم يعدون أنفسهم من العرب .

وليس من الصواب أن نلصق شخصا بأصله البعيد الذى انحدر منه منذ عشرات السنين أو مئاتها وهو نفسه قد نسى هذا الأصل ، أو صار يذكره على طيف من التاريخ ، وانتمى إلى جنس آخر اعتنق دينه ، وتثقف بثقافته ، واصطنع لغته للتعبير بها عن فكره ووجدانه .

ولهذا كان اليونان محقين فى وصفهم من يتكلم اليونانية بأنه يونانى مثلهم .

وقد أنكر جماعة من العرب أن يكون سَلْمان الفارسى وصهَيب الرومى وبِلال الحبشى عربا ، لهم ما للعرب من شأن ، فغضب النبى صلى الله عليه وسلم وقال : ليست العربية من أحدكم بأب ولا أم ، وإنما هى باللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى .

٢ ــ وإنه ليسترعى النظر أن أكثر العلماء المنسوبين إلى الفرس قد انقطعت صلتهم بنسبهم هذا ، حتى لنجد بينهم وبين الفرس عددا من الأجداد قد تسجله تراجمهم ، وقد تختصر فتقف عند حد معين ، وهم مع عروبتهم دينا ولغة وثقافة متأثرون بالمجتمع العربى الإسلامى إلى أبعد حد ، ولولا الإسلام والحرية التى نعموا بها فى ظلاله ، ولولا التشجيع الذى حفز به الحكام المسلمون نشاطهم وعزائمهم ماأنتجوا هذا الإنتاج الذى رفع من أقدارهم .

ولنضرب أمثلة لهؤلاء العلماء والأدباء :

فبديع الزمان الهمذانى صاحب المقامات المعروفة (توفى سنة ٣١٨ هـ) اسمه : أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد (١) .

والبَيْهقى اللغوى المقرئ النحوى (٥٤٤ هـ) اسمه : أحمد بن على ابن أبى جعفر محمد بن أبى صالح البيهقى (٢) .

والميْدانى مؤلف مجمع الأمثال وغيره فى اللغة والنحو والأدب (٥١٨ هـ) اسمه : أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم الميدانى النيسابورى (٣) .

وابن خالَوَيْه النحوى اللغوى (٣٧٠ هـ) اسمه : الحسين بن أحمد ابن حمدان بن خالويه (٤) .

والكسائى النحوى اللغوى المقرئ (١٨٢هـ تقريباً) اسمه : ابوالحسن

---

(١) معجم الأدباء ٢/١٦١ .

(٢) المعجم ٤/٤٠ .

(٣) المعجم ٥/٤٥ .

(٤) المعجم ٩/٢٠٠ .

على بن حمزة بن عبدالله بن عثمان ، ينتهى نسبه إلى بهمن بن فيروز(١) .

والجُرْجانى مؤلف الوساطة وأُستاذ عبد القاهر الجرجانى (٣٩٢) اسمه : على بن عبد العزيز بن الحسن بن على بن إسماعيل (٢) .

وسيبويْه اسمه : عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بنى الحارث بن كعب ثم مولى آل الربيع بن زياد الحارثى ، أصله من البيضاء من فارس ، ومنشؤه بالبصرة (حوالى ١٦١ أو ١٨٠)(٣) .

والطبرى المؤرخ المفسر المحدث الفقيه (٣١٠) اسمه : محمد ابن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب (٤) .

والفراء اللغوى النحوى اسمه : يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور ابن مروان الأسلمى الديلمى الكوفى مولى بنى أسد (٢٠٧) (٥) .

وابن فارس الراوية اللغوى المشهور (٣٦٩) اسمه : أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب (٦) .

٣ـ وجدير بنا أن نتنبه إلى أن كثيرا من العلماء عرب خُلَّص ، ولكنهم نسبوا إلى بلدان أعجمية ، فظن بعض الدارسين أنهم عجم .

من هؤلاء مسلم بن الحجاج النيسابورى ، فهو عربى من قُشَيْر ، لكن أهله كانوا يقيمون بنيسابور فنسب إليها .

---

(١) المعجم ١٣/١٦٧ ووفيات الأعيان ٢/٤٥٧ .
(٢) المعجم ١٤/١٤ .
(٣) المعجم ١٦/١١٤ .
(٤) المعجم ١٨/٤٠ .
(٥) المعجم ٢٠/٩ .
(٦) المعجم ٤/٨٠ ووفيات الأعيان ١/١٠٠ .

ومنهم أبو الفرج الأصفهانى ، فهو عربى من بنى أمية ، لكنه ولد في أصفهان فنسبوه إليها .

ومنهم أبو داود السِّجْستانى مؤلف السنن ، فهو عربى من الأزْد منسوب إلى سجِسْتان .

ومنهم الأَبِيَوَرْدى الشاعر المؤلف أبو المظَفَّر محمد بن أبى العباس ، فهو عربى ينتسب إلى عبد مناف .

ومنهم الطُّوسى الذى روى عنه أبو الفرج الأَصفهانى ، وأبو عبيد الله المرزبانى ، فهو أبو عبد الله أحمد بن سليمان بن داود . . . بن سِنان ابن حكيم .

ومنهم التبريزى اللغوى النحوى الأديب المؤلف ، فهو أبو الحسن يحيى بن على بن محمد بن موسى بن بسطام الشيبانى (١) .

ومنهم أبو حامد المرْوَرُّوذِى — نسبة إلى مروروذ — أحمد بن بشر العامرى ، عربى من بنى عامر ، وهو فقيه شافعى صنف الجامع فى المذهب ، وشرح مختصر المزنى ، وصنف فى أصول الفقه ، وكان إماما لايشق غباره نزل البصرة ، ودرس بها ، وأخذ عنه فقهاؤها ، وقد وصفه أبو حيان التوحيدى بأنه بحر يتدفق بالسير والأخبار واستنباط المعانى والثبات على الجدل والصبر فى الخصام ، وقال إنه أنبل من شاهدته فى عمرى (٢) .

وقد يلقب العالم العربى بلقب يوهم أنه أعجمى ، مثل إبراهيم

---

(١) وفيات الأعيان ومعجم الأدباء عند هذه الأعلام .

(٢) البصائر والذخائر لأبى حيان ٢/١٥٠ ووفيات الأعيان ١/٥٢ .

ابن محمد بن عرفة العتكى الأزدى ، فقد لقب بِنْفَطَوَيْه على مثال سيبويه ، تشبيها له بالنفط ، لدمامته وأُدْمَته (١)

وهكذا تتكرر الأمثال .

٤ — والعجب من ابن خلدون إذْ قرر أن العربى من العلماء عجمى فى لغته ومرباه وأساتذته ، لأنه تناسى أن البيئة لم تكن عربية خالصة ولا عجمية خالصة ، بل كانت — فى فارس خاصة — مزيجا من هذه وتلك فى كثير من مظاهر الحياة .

ولقد جانب الصواب فى دعواه أن العلماء العرب كانوا عجما فى لغتهم ، لأن أكثرهم لم يكن يعرف غير العربية .

على أنه ناقض نفسه فى قوله إن سيبويه والفارسى والزجاج عجم فى أنسابهم ، وإنما رُبُّوا فى اللسان العربى ، فاكتسبوه بالمربَى ومخالطة العرب ، وصيروه قوانين وفنًّا لمن بعدهم .

فهو يرى البيئة هنا متأثرة بالعرب ، ويراها من قبل عجمية اللغة والمظاهر والأساتذة .

٥ — وقد نوافقه على بعض تعليله لكثرة العلماء من العجم ، ولكننا نخالفه فى دعواه أن العرب أنفوا — لأنهم سادة — من الاشتغال بالعلم ، وتخلوا عن ميادينه للعجم .

ذلك أن للعرب فى تاريخ العلوم مجدا متألقا لايَخْبُو ، فقد عكفوا على العلم منذ شرح الله صدورهم للإسلام ، ووجدوا فى طلب العلم عبادة واستجابة لدعوة دينهم ، وكانوا بطبيعتهم متأهبين للتحضر والترقى .

(١) معجم الأدباء ١٠/٢٥٥ .

فأقبلوا على مناهل العلم إقبالا ، وشجعوا العلماء والأدباء تشجيعا جديرا بالثناء ، ولهذا كانت ثقافتهم فى العصر الأموى – قبل أن ينقلوا عن الفرس واليونان والهنود شيئا ذا قيمة – متعددة الألوان وكان علماؤهم يعمرون الأمصار .

ولم يأنف العرب أن يتلقوا الثقافة منذ العصر الأموى على بعض اليهود والنصارى ، ولا على بعض الموالى مثل الحسن البصرى وسعيد بن جُبَيْر وابن جُرَيْج وابن سِيرين وعَطاء بن يَسار .

ثم إن بعض الخلفاء والأمراء كانوا فى العصر الأموى والعباسى يباهون بعلمهم ، وكانوا يقربون العلماء إليهم ، ويغدقون عليهم ، ويرفعونهم مكانا عليًّا ، فضربوا بهذا أروع مثل فى الشغف بالمعرفة وتقدير رجالها .

(٤) نتائج المناقشة

إنصاف العرب

لعله قد استبانت من مناقشة قضية العلوم بين العرب والفرس هذه الحقائق :

الحقيقة الأولى :

أن ابن خلدون لم يكن دقيقا فى حكمه وفى تعميمه .

وليس يعنينا الدافع إلى هذا الحكم ، أهو التعجل ؟ أم نقص الاستقراء ؟ أم التأثر برأى سابق أم التعصب على العرب لأسباب معاصرة ؟ أم أنه كان يقصد الأعراب ؟ .

ونلاحظ أن الحديث النبوى الذى ذكره وهو : « لو تعلق العلم

بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس » من الأحاديث التى وضعها الشعوبيون ، ووضع العرب نقائض لها ، فمنذ اشتعلت العصبية بين العرب والعجم فى العصر العباسى ألف الفرس كتبا شتى فى الانتصار لأنفسهم ، بعضها للإشادة بمناقبهم وبمناقب العجم عامة (١) ، وبعضها فى الانتقاص من قدر العرب والتشنيع بمثالبهم ، وهذه الكتب كثيرة ، منها : كتاب نصوص العرب وكتاب مثالب العرب لأبى عُبَيْدَة مَعْمَر ابن المثَنّى (٢) .

ومن المبالغة فى العدوان أن ينقل أحد الشعوبيين التهجم الحانق على العرب وعلى الإسلام إلى ملك الروم . وذلك أن يونس محمد ابن كيسان (حوالى سنة ١٥٠ هـ ٧٦٧ م) ألف كتابا فى مثالب العرب وعيوب الإسلام — كمازعم — وصار به إلى ملك الروم ، فأعطاه مالا .

وقد اشتهر يونس هذا بابن أبى فروة ، وهو لقب كان يطلق على جده كيسان الذى كان كاتبا للخليفة عثمان بن عفان .

وكان يونس نديما لجماعة من الزنادقة ، يجتمعون على الشراب وقول الشعر وهجاء بعضهم بعضا هزلا تارة وعمدا تارة ، منهم والبة ابن الحباب ومطيع بن إياس وعبد الله بن المقفع (٣) .

ثم إن بعضهم حاربوا العرب بسلاح آخر أشد خفاء ، وأسرع

---

(١) الفهرست لابن النديم ٤٢ ، ٥٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، الخ .

(٢) معجم الأدباء ١٩ / ١٦٢ .

(٣) الحيوان للجاحظ ٤ / ٤٤٦ ، ٤٤٨ والأغانى ١٦ / ١٤٣ ولسان الميزان ٢ / ٣٥٣ و٦/٣٣٤ وأمالى المرتضى ١ / ١٣٢ والأعلام للزركلى ٩ / ٣٤٧ .

وبعض المراجع تذكر أنه ابن أبى فروة وبعضها تذكر أنه ابن فروة ، وأرجح الأول، لأن حمادا هجاه فقال : أما ابن فروة يونس . . . . فحذف كلمة (أبى) للوزن

تصديقا ورواجا ، لأن الذى يقرأ كتابا فى مفاخر العجم أو فى مثالب العرب يتراءى له شك فيما يقرأ ، وكثيرا مايعرضه على مقاييس العقل والخبرة والثقافة فيرفضه رفضا ، ولهذا عمد بعض الشعوبية إلى طريقة لايعترضها شك أو رفض ، هى أنهم اختلقوا أخبارا وأقاصيص تنتقص من أقدار العرب ، فسرّوا بها بعض الأمثال ، وشرحوا بها بعض الشعر ، وأطالوا بها الأخبار .

وكذلك فعلوا فى الحديث الشريف ، فوضعوا من الأحاديث مايُعْلى قدرهم(١) ، كزعمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قوله تعالى : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لايكونوا أمثالكم (٢) » فقيل : من يستبدل بنا ؟ فضرب على منكب سَلْمان الفارسى ، وقال : « هذا وقومه ، والذى نفسى بيده لو كان الإيمان مَنُوطا بالثريا لناله رجال من فارس » .

وكزعمهم أن العجم ذُكِرَتْ عند رسول الله فقال : « لأنا بهم أوثق منى بكم » .

وزعمهم أن رسول الله قال : « سيأتى ملك من ملوك العجم ، فيظهر على المدائن كلها إلا دمشق » .

وزعمهم أنه قال : « لاتسبوا فارسا ، فما سبه أحد إلا انتقم منه عاجلا أو آجلا » .

ومن العجيب أنهم ادعوا أن رسول الله أخبر بظهور أبى حنيفة ،

---

(١) العقد الفريد ٢/٥٥ .

(٢) سورة محمد ٣٨ .

وافتخر به ، فقال : « إن آدم افتخر بى ، وأنا افتخر برجل من أمتى اسمه نُعْمان ، وكنيته أبو حنيفة ، هو سراج أمتى » .

ولقد قابل العرب هذا السلاح بمثله ، فاخترعوا أحاديث نسبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تختصهم بالتفوق والتكريم ، منها : « من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى ، ولم تنله مودتى » ، ومنها : « إذا اختلف الناس فالحق فى مضر » ، ومنها : « أحبوا العرب لثلاث لأنى عربى ، والقرآن عربى ، ولسان أهل الجنة فى الجنة عربى » .

الحقيقة الثانيـــة

أما الحقيقة الثانية فهى أن العرب ساهموا فى الإنتاج الفكرى بنصيب عظيم ، وشاركوا فى النهضة العلمية والتطور الثقافى بمئات الكتب التى ألفوها ، وبكثير من التجارب العلمية التى أجروها ، فليس من الصواب فى شىء مازعمه (براون) من أن الفرس وحدهم ساهموا بخير نصيب فى الثقافة العربية ، وليس من الحق ماذهب إليه (فون كريمر) فى دعواه أن الفرس والآراميين هم الذين وضعوا النحو العربى .

وإذا كان تاريخ العلوم ينقض ماادعاه براون وفون كريمر فإنه ينقض أيضا مازعمه (دى لاجارد) أنه ليس بين المسلمين الذين حققوا شيئا فى ميدان العلم سامى واحد ، لأن هذه دعوى جنسية متجنية مبعثها التعصب المقيت .

ومن السهل على الباحث المنصف أن يستبين أن العرب وضعوا بعض العلوم ، وألفوا فيها قبل أن يتصلوا بالعجم ، ثم ساهموا بنصيب عظيم مشكور فى النهضة العلمية بعد اتصالهم بالفرس واليونان والهنود وغيرهم .

١ — ففي العلوم الشرعية كان مالك بن أَنَس أول من ألف فى الفقه الإسلامى ، وكان الشافعى أول من وضع علم الأُصول ، حتى ليقال إن نسبته إليه كنسبة المنطق إلى أرسطو ونسبة العروض إلى الخليل .

ولا يصح أن ننسى أن الأئمة الثلاثة — مالكا والشافعي وأحمد ابن حنبل عرب خلص .

وإذا كان أبو حنيفة فارسى الأصل فإنه تلقى أكثر علمه على عرب ، أحدهم حماد بن أبي سليمان الأشعرى — نسبة إلى قبيلة أشعر اليمنية — فقيه الكوفة ، وكان أبو حنيفة يدين له بالفضل ، ويدعو له بعد موته ، حتى لقد قال : ماصليت قط إلا دعوت لشيخي حماد :

والثانى ابراهيم النَّخَعى ، فقد تأثر أبو حنيفة بآرائه حتى ذهب بعض الباحثين إلى أنه يطبق مذهب النخعى ، ويفرع على أصوله .

كذلك درس أبو حنيفة على زيد بن على زين العابدين ، وعلى محمد الباقر زين العابدين ، وعلى جعفر الصادق ، وعلى عبدالله بن الحسن ابن الحسن ، وعلى جابر بن يزيد ، وعلى عامر الشعبى ، وهؤلاء كلهم عرب .

على أن حمادا أستاذ أبي حنيفة تلقى على عربيين يمنيين هما إبراهيم النخعى وعامر الشعبي ، وتلقى هذان على عرب هم : شُرَيْح ابن الحارث الكندى ، وعلقمة بن قيس النخعى ، والأسود بن يزيد النخعى ، ومسروق بن الأجدع الهمذانى ، وهؤلاء الأربعة أخذوا عن على ابن أبي طالب وعن عبد الله بن مسعود .

ولابد أن نلاحظ أن أشهر تلاميذ الإمام أبي حنيفة ثلاثة هم :

أبو يوسف ومحمد وزُفَر ، أما أبو يوسف وزفر فهما عربيان ، وأما محمد ابن الحسن الشيبانى فهو من الموالى ، ونسبته إلى شيبان بالولاء .

وإذن فقد تبين أن ثلاثة من أصحاب المذاهب الأربعة عرب خلّص ، وأن أكثر أساتذة أبى حنيفة عرب ، وأن اثنين من تلاميذه الثلاثة الكبار عربيان ، كما اتضح أن كثيرا من علماء التشريع عرب خلص .

ومن مجافاة الحق أن يتناسى باحث فى هذا المجال كثيرا من علماء التفسير والحديث ورواد التشريع ، مثل عبد الله بن عباس وعلى بن أبى طالب ومعاذ بن جبل وسعيد بن المسَيَّب والأوزاعى وأبى الدَّرْداء وعُرْوة بن الزبير وعبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت وإياس بن معاوية .

فإذا نظرنا إلى مراحل تدوين الحديث النبوى رأينا عبد الله ابن عمرو بن العاص يدون ماسمع من رسول الله ، وقد حدث مجاهد أنه رأى عند عبد الله صحيفة ، فسأله عنها ، فقال له : هذه الصادقة ، فيها ماسمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بينى وبينه فيها أحد (١) .

ثم دون محمد بن مسلم الزُّهرى الحديث الصحيح بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وتتابع المدونون بعد ذلك ، إلى أن ظهرت طبقة الإمام مالك والأوزاعى والثورى وأحمد بن حنبل وكلهم عرب .

٢ — وأما العلوم اللغوية فإننا لاننكر أن كثير من أبناء الفرس برعوا فيها ، مثل سيبويه والكسائى والفراء وأبى على الفارسى والزجاج

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٨٩/٧ وقد قرأت منذ سنوات بعد الطبعة الأولى لهذا الكتاب أنهم عثروا على الصحيفة بالهند وطبعوها .

وابن جنى وابن فارس والجوهرى ، ولهم مؤلفات شتى وآثار عظيمة .

ولكن لايصح أن نتغاضى عن جهود العرب ومؤلفاتهم ، قبل أن يتصلوا بالفرس وغيرهم اتصال ثقافة ونقل .

فقد وضع أبو الأسود الدؤلى (المتوفى سنة ٦٩ هـ) أول لبنة فى صرح النحو العربى فى عهد على بن أبى طالب (١) .

ثم جاء بعده الخليل بن أحمد الفراهيدى العربى الصميم فأكمل النحو ، وشيد صرحه ، وتركه ليظهره بعده للناس تلميذه سيبويه (٢) .

ونحاة العرب كثير ، منهم الخليل بن أحمد وأبو عمرو بن العلاء والمازنى وابن دُرَيْد والأزهرى والمبرِّد والنضر بن شَمِيل والضَّبى وابن الأنبارى .

ومن مفاخر الخليل بن أحمد أنه أول من وضع معجما للكلمات العربية سماه العين ، وأنه أول من استنبط بحور الشعر العربى ، وحصرها فى ستة عشر .

٣ـ وإذا كان من أبناء الفرس من برعوا فى رواية اللغة والشعر والدراسة الأدبية كأبى عُبَيدَة مَعْمَر بن المثنَّى وحماد الراوية وخَلَف الأحمر وأبى عمر الشَّيبانى والتبريزى وعبد القاهر الجرجانى ، فقد برع فيها كثير من العرب ، مثل قَتادة بن دعامة ، وهو من رواة العصر الأموى ، قالوا عنه : لم يأتنا شىء من علم العرب أصح مما أتى به قتادة .

ومثل أبى عمرو بن العلاء أعلم الناس بالقراءات وبالعربية وبأيام

(١) وفيات الأعيان ٢/٢١٦ والأغانى ١٢/٢٩٧ .
(٢) معجم الأدباء ١٦/١١٤ .

العرب وأشعارهم ، وكان قد دون عن فصحاء العرب كتب ملأت حجرة إلى ما يقرب من سقفها ، فلما تنسك أحرقها كلها ، فلما رجع إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه عقله .

ومنهم الأصمعى وأبو زيد الأنصارى والمفَضَّل الضَّبى ومحمد بن سلاَّم الجمحى والجاحظ والمبرِّد وأبو حيان التوحيدى وأبو الفرج الأصفهانى .

٤ — ولقد يمثلون بمؤرخين من أبناء الفرس كالطبرى وابن مسكويه والبلاذرى وابن خلكان .

ولسنا نجحد فضل هؤلاء العلماء وأشباههم ، ولكننا لا ننسى أن كثيرا من المدونين الأولين للسيرة النبوية عرب ، مثل أَبَان بن عثمان ابن عفان وعروة بن الزبير بن العوام وشُرَحْبيل بن سعد وعبد الله بن البكر بن حزم وعاصم بن عمر بن قتادة ومحمد بن شهاب والزهرى وابن هشام .

ولا ننسى أيضا أن كثيرا من الذين سبقوا إلى تدوين التاريخ الإسلامى عرب ، منهم أبو مِخْنَف لوط بن يحيى وسيف بن عمر والزبير بن بكار والهيثم بن عَدِىّ ، وللهيثم هذا فضل السبق إلى ترتيب الحوادث حسب السنين ، وقد استقى الطبرى من كتب هؤلاء ، واعتمد عليها .

كذلك اشتهر من مدونى الأنساب عرب مثل محمد بن السائب الكلبى وابنه هشام وأبى اليقظان النسابة .

أما المؤرخون العرب بعد هؤلاء فهم كثير ، منهم المسعودى وأبو الفرج الأصفهانى وعبد الرحمن بن خلدون .

٥ — وكذلك العلماء شارك العرب مشاركة عظيمة القيمة فى البحوث الفلكية والجغرافية وارتياد البحار .

ومن واجب الشريف الإدريسى علينا أن نذكره فى هذا المقام ، فإنه ينتسب إلى الحسن بن على بن أبى طالب ، وقد ولد بمدينة سبته سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) ودرس فى جامعة قرطبة ، ثم جاب شمالى إفريقية وآسيا الصغرى وغيرهما ، وذاع صيته ، فاستدعاه روجر الثانى ملك صقلية وجنوبى إيطاليا ، وكان قد زامله فى الدراسة ، وكان بلاط الملك شرقى السمات عربى الثقافة ، فلبى طلبه ، وألف له كتابه القيم (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) ورسم صور الأقاليم على نَضَد أو على كرة من الفضة الخالصة عظيمة الجرم .

وكتابه هذا أوسع كتاب جغرافى إلى عصره ، ولهذا اهتم العالم به ، فعنيت كل أمة بما كتبه الإدريسى عنها ، فترجم إلى اللاتينية فى آخر القرن السابع عشر ، وطبع منه القسم المختص بإسبانيا مع ترجمته الإسبانية سنة ١٧٩٩ م ، وطبع منه وصف الشام وفلسطين فى ليبسك سنة ١٨٢٨ م ، وطبع قسم منه فى ليدن سنة ١٨٦٤ ، ومنه نسخة مخطوطة كاملة ببعض مكتبات أوروبا ، وفى دار الكتب بالقاهرة نسخة مصورة .

وحسبه هذه الشهادة التى تشيد بفضله : « ومن كتب الإدريسى التى ترجمت إلى اللاتينية تعلمت أوروبا الجغرافية فى القرون الوسطى » (١)

ويقتضينا الإنصاف أن نذكر شهاب الدين أحمد بن ماجد بن

---

(١) حضارة العرب ٥٦٨ جوستاف لوبون .

محمد السعدى بن أبى الركائب النجدى الذى كان يلقب فى القرن الخامس عشر الميلادى بأسد البحر ، وهو من أسرة عربية عريقة فى الملاحة ، فقد كان أبوه وجده ملاحين مشهورين ، ولهما رسالة فى الملاحة فى البحر الأحمر .

وقد كتب عنه العلامة جبريل فراند Ferrand بحثاً مستفيضا فى دائرة المعارف الإسلامية ، أكد فيه أن ابن ماجد كان المرشد لفاسكودى جاما فى رحلته إلى الهند سنة ١٤٩٨ م وفى الكشف عن الطريق إليها .

على أن ابن ماجد خَلَّف مؤلفات نثرية وشعرية فى الملاحة جديرة بالتقدير ، نشرها جبريل فراند ، منها كتاب (الفوائد فى أصول البحر والقواعد) سنة ١٩٢١ — ١٩٢٣ فى مئة صفحة وإحدى وثمانين ، يتضمن ما يحتاج إليه الملاحون من معرفة منازل الأبراج والرياح ومنازل القمر الثمانية والعشرين ، ومعرفة الجهات وأصول الملاحة عامة .

وبهذا الكتاب أرجوزة فى نحو ألف بيت ، تتناول أحد عشر بحثاً ، وأرجوزة ثانية فى مئتى بيت ، وأرجوزة ثالثة فى خمس مئة بيت .

ثم نشر فراند سنة ١٩٢٥ م ثلاث قصائد فى الملاحة لابن ماجد .

وقال إن وصف ابن ماجد لبحر القُلْزُم (البحر الأحمر) لايفوقه بل لايدانيه أى وصف ، وأن معلوماته عن الرياح الموسمية والرياح المحلية وعن الطرق المؤدية إلى عبور المحيط الهندى ، كلها بلغت من التفصيل والدقة إلى الحد الذى لم يكن متوقعاً من ملاحى ذلك العصر .

وذكر أن ربابنة السفن فى الهند والجزر القريبة منها كانوا إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر لا يفارقون كتاب ابن ماجد .

٦ — وإذا كان بعض العجم قد تفوقوا فى الفلسفة وعلم الكلام ، مثل واصل بن عطاء وعمرو بن عُبَيْد وأبى الهُذَيْل والعلَّاف والنظَّام والفارابى والرازى وابن سينا وابن رشد ، فإننا لا نمارى فى ذلك ، بل نعتز به .

ولكننا نجد فى العرب الخلص أندادا لهم ، منهم بشر بن المعتمر والجاحظ وثُمامة بن الأَشْرس النميرى وجعفر بن مُبَشِّر الثقفى وجعفر ابن حرب الهمدانى وأحمد بن أبى دُواد والشريف المرتضى والأشعرى وأبو حيان التوحيدى وابن خلدون .

وجدير بنا فى هذا المقام أن نذكر يعقوب بن إسحاق الكندى (١٨٥ — ٢٥٢ هـ) ، فقد برع فى الطب والحساب والهندسة والمنطق والفلسفة والفلك والموسيقى ، وألف فى هذه العلوم أكثر من مئتين وأربعين كتابا ورسالة (١) ، منها اثنان وعشرون فى الفلسفة ، وثمانية فى المنطق ، وخمسة فى التقسيمات ، وسبعة عشر فى الجدليات ، وعشرة فى الأحكاميات ، واثنتا عشرة فى السياسة ، وسبعة فى الموسيقى ، وتسعة عشر فى النجوميات .

٧ — أما علم الاجتماع فإنه من مفاخر العرب ، وحسبنا أن نمثل فى هذا الصدد بابن خلدون ، فهو عربى ينمى إلى وائل بن حُجْر ، عاش فى الأندلس وشمالى إفريقية ومصر والشام فيما بين سنة ٧٣٢ هـ

---

(١) طبقات الأطباء ٢٠٦ لابن أبى أصيبعة واخبار العلماء بأخبار الحكماء ٢٤٠ للقفطى .

(١٣٣٢ م) وسنة ٨٩٨ هـ (١٤٠٦ م) ، وهو المنشئ الأول لعلم الاجتماع ، وإمام فى فلسفة التاريخ ، ورائد مجدد فى علم التاريخ وفى الترجمة الذاتية لنفسه .

وليس الفضل فى إنشاء علم الاجتماع راجعا إلى فيكو Vico (١٦٦٨ — ١٧٤٤ م) كما زعم الإيطاليون ، ولا إلى كتليه Quetelet (١٧٩٦ — ١٨٧٤ م) كما ادعى البلجيكيون ، ولا إلى أوجست كونت August Conte (١٧٩٨ — ١٨٥٧ م) كما قال الفرنسيون ، بل يرجع إلى ابن خلدون الذى ظهر قبل هؤلاء جميعا بنحو أربعة قرون ، فأقام هذا العلم على دعائم وطيدة ، وسار فيه على صراط واضح مسقيم ، واستوعب مسائله ، ووصل فى تنظيم دراساته والكشف عن حقائقه إلى شأو رفيع لم يصل إلى مثله واحد من هؤلاء .

ولسنا وحدنا الذين نجهر بهذا الرأى ، فقد جهر به كثير من المنصفين من علماء الاجتماع المحدثين .

من هؤلاء العلماء لودفيج جمبلوفتشن ، والعلامة كولوزيو ، والعلامة فارد ، والعلامة شميث الذى قال فى كتابه (ابن خلدون عالم الاجتماع والمؤرخ والفيلسوف) سنة ١٩٣٠ : إن ابن خلدون قد تقدم فى علم الاجتماع إلى حدود لم يصل إليها أوجست كونت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ولو أن المفكرين الذين وضعوا أسس علم الاجتماع كانوا قد اطلعوا على مقدمة ابن خلدون ، واستعانوا بالحقائق التى كشف عنها والمناهج التى أحدثها ذلك العبقرى العربى قبلهم بمدة طويلة ، لو أنهم فعلوا ذلك لاستطاعوا أن يتقدموا بهذا العلم

الجديد بسرعة أعظم كثيرا مما تقدموا به (١) .

٨ـ فإذا ما انتقلنا إلى علم الكيماء وجدنا العرب الخلص قد ساهموا فيه بنصيب كبير محمود.

ومن الذى يستطيع أن يتغاضى عن جابر بن حيان ؟

إنه عربى صميم ينتمى إلى الأزْد ، و كان له معمل فى بغداد يجرى فيه تجاربه وبحوثه ، وكان هارون الرشيد والبرامكة يجلونه ، وله مؤلفات كثيرة فى الكيمياء والطب والتاريخ الطبيعى ، تبلغ نحو مئتين كما ذكر ابن النديم ، ترجم عدد كبير منها إلى بعض اللغات الأُوروبية ، وله بحوث قيمة فى التكليس وفى إرجاع المعدن إلى أصله بالأُوكسيجين ، وفى تحسين طرق التبخير والتصعيد والصهر والتبلور .

« وقد ترجم عدد من كتبه الكثيرة إلى اللغة اللاتينية سنة ١٦٧٢ م ، فدل هذا على دوام نفوذه العلمى مدة طويلة فى أُوروبا .

وتشتمل كتبه على وصف كثير من المركبات الكيمياوية التى لم تذكر قبله ، كماء الفضة (الحامض النترى) وماء الذهب اللذين لا يتصور علم الكيمياء بغيرهما ، والبوناس وملح النشادر وحجر جهنم (نترات الفضة) والسليمانى والراسب الأحمر ... » (٢) .

ومازالت صورته بمكتبة آل مديسى بفلورنسا يشع منها نور الحكمة ، وقد نقلها العلامة هو لميارد الأُستاذ بكلية كلفتون بانجلترة فى كتابه (مشاهير الكيميائيين) .

٩ـ ويأْبى تاريخ الطب عند العرب إلا أن يستعلن ، ويكفى فى

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٢٨٥ الدكتور على عبد الواحد وافى .

(٢) حضارة العرب ٥٧٢ جوستاف لوبون .

هذا المقام أن نشير إلى بنى زُهْر الذين نشأُوا بالأندلس منذ بداية القرن العاشر إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، وهم عرب خلص ، هاجر آباؤهم من جزيرة العرب ، واستقروا فى الاندلس .

ومن هذه الأُسرة أبو مروان عبد الملك بن أبى العلاء زُهْر ، الذى درس الطب على أبيه ، وتفوق فى تجاربه المبتكرة فى الأَدوية ، وكان ابن رشد صديقا له ، وكان يعده أعظم الأَطباء منذ جالينوس ، وله مصنفات كثيرة وإضافات جديدة إلى الطب ، كوصفه للأَورام الحيزومية وخراج التامور وهى أمراض لم توصف من قبله ، ولم يكن يجهل التغذية الصناعية ، سواء أكانت عن طريق الحلقوم أم عن طريق الشرج ، وقد شرح طريقتها بمهارة فائقة (١) .

وفى تاريخ الطب عند العرب كثير من أمثال ابن زُهْر ، مثل محمد بن أحمد بن سعيد التميمى المقدسى الذى برع فى الصيدلة وتركيب الأَدوية وأكمل (الترياق الفاروقى) بالمفردات التى زادها وعليه ، وله فى الترياق عدة مؤلفات مابين كبير ومتوسط وصغير ، وكان مختصا بالحسن بن عبيد الله بن طُغْج المستولى على مدينة الرملة ، وكان الحسن مغرما به وبدوائه ، وقد عمل له عدة معجونات طبية واقية من الأَوبئة ، ثم أدرك الدولة الفاطمية عند دخولها مصر ، وصحب الوزير يعقوب بن كِلِّس وزير المعز والعزيز ، وصنف له كتابا كبيرا فى عدة مجلدات سماه (مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء) وكان بمصر حوالى سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠م) (٢) .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١ / ١٨٣ .

(٢) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ٤٧ للقفطى .

وما من شك فى أن إنصاف العرب علميا يقتضينا أن نفاخر بابن النفيس وهو علاء الدين أبو الحسن على بن أبى الحزم القَرْشى (على وزن البكرى) .

فهو أول من كشف عن الدورة الدموية الصغرى ، فسبق هارفى ، بأربعة قرون ، وأول من فرق بين الأوردة والشرايين ، وأول من وصف جدار القلب ، وعرف الدورة التاجية للقلب ، وأول من قال إن أوردة الرئتين ليست مليئة بالهواء .

كان ابن النفيس يعمل بالقاهرة بمستشفى قلاوون .

ويرجع الفضل فى الكشف عنه إلى الدكتور محيى الدين التطاوى سنة ١٩٢٤ م لأنه عثر على نسخة مخطوطة من أحد مؤلفات ابن النفيس فى مكتبة برلين فدرسها ونال بها درجة الدكتوراه من ألمانيا ، ثم عثروا على نسخ أخرى بمكتبات باريس والأسكوريال وأكسفورد (١) .

الحقيقة الثالثة

أن العلماء الذين يمتون إلى أصل غير عربى هم عرب فى الحقيقة ، لأن أسلافهم قد استعربوا ، فصاروا عربا بلغتهم العربية التى كان أكثرهم لا يعرف غيرها ، وصاروا عربا بثقافتهم المتعددة ، وصاروا عربا بمؤلفاتهم العربية ، وصاروا عربا بحبهم للعربية وحماستهم لها ، حتى إن بعضهم ألف فى مفاخر العرب ، ودافع عنهم ، وانتصر لهم .

ويكفى أن نمثل لاعتزازهم باللغة العربية بقول ابن جِنّى فى مقدمة كتابه (الخصائص) : « كتاب من أشرف ماصُنف فى علم العرب ،

---

(١) تاريخ العلم عبد الحليم منتصر ١٧٧ .

وأذهبه فى طريق القياس والنظير ، وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة ، ونِيّطتْ به من علائق الإتقان والصنيعة » .

ويقول الزمخشرى فى مقدمة كتابه (أساس البلاغة) : « خير منطوق به أمام كل كلام حمد الله تعالى ومدحه بما تَمَدَّح به فى كتابه الكريم وقرآنه المجيد ، وأول ما قضى به حمد الله تعالى والصلاة على النبى العربى المستل من سلالة عدنان ، المفضل باللسان ، الذى استخزنه الله الفصاحة والبيان ، وعلى عِتْرته وصحابته مَدارِهِ العرب وفحولها ، وغرر بنى مَعَدّ وحُجولها » .

وقد مجد الزمخشرى العرب ولغتهم ، وباهى بهم وبأخلاقهم ، وسخر من الشعوبية فى أبيات ، منها (١) :

وقل :

هل فشا فى الأرض غير لسانهم	لسانٌ فشُوَّ الضوءِ واليوم شامسُ ؟
على ظهرها لم يخلق الله أُمة	تناسيهم فى خصلة أو تلابس
أجلُّ رسولٍ فيهمُ وبلسْنِهمْ	أجلُّ كتاب فاعتبر يامنافس
وقل للشعوبين إن حديثكم	أضاليل من شَيطانكم ووساوس

الحقيقـــة الرابعة

إذا كان بعض الغربيين مثل رينان وأوليرى وبراون قد تعمدوا إنكار جهود العرب العلمية وسبقهم إلى الكشف عن كثير من الحقائق فإن بعض الغربيين المنصفين أشادوا بتفوق العرب الفكرى وبجهودهم العلمية .

---

(١) ديوان الزمخشرى ٦١ مخطوط بدار الكتب .

فمثلا قال جوستاف لوبون : « يعجب الإنسان بالهمة التى أقدم بها العرب على البحث . وإذا كانت هنالك أمم تساوت هى والعرب فى ذلك فإنك لا تجد أمة فاقت العرب ، لأنهم كانوا إذا ماستولوا على مدينة صرفوا همهم إلى إنشاء مسجد وبناء مدرسة ، فإذا كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة ، ومنها المدارس العشرون التى روى بنيامين التطيلى المتوفى سنة ١١٧٣ م أنه شاهدها فى الإسكندرية » وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطليطلة وقرطبة وغيرها على جامعات محتوية على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية بكل ما يساعد على البحث العلمى . فكان للعرب فى إسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامة ، وكان فى مكتبة الخليفة الحكم الثانى بقرطبة ست مئة ألف كتاب ، فهارسها أربعة وأربعون مجلداً .... وقد قيل إن شارل الحكيم لم يستطع بعد ذلك بأربع مئة سنة أن يجمع فى مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسع مئة مجلد ، يكاد يختص ثلثها بعلم اللاهوت » (١) .

كذلك نوه بعقلية العرب وفضلهم كاربنسكى فى قوله : « إن الخدمات التى أداها العرب للعلوم غير مقدورة حق قدرها من المؤرخين ، وإن البحوث الحديثة قد دلت على أننا مدينون دينا كبيرا للعلماء المسلمين الذين نشروا نور العلم ، حينما كانت أوروبا غارقة فى ظلمات القرون الوسطى ، وإن العرب لم يقتصروا على نقل علوم الإغريق ، بل زادوا عليها ، وأضافوا إليها معلومات قيمة » (٢) .

---

(١) حضارة العرب ٥٢٦ جوستاف لوبون .

(٢) تاريخ العلم ٨٥ عبد الحليم منتصر .

وقال كاجورى : « إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب فى الجبر ، وهم أول من أطلق لفظة جبر على العلم المعروف الآن بهذا الاسم ، وعنهم أخذ الإفرنج كلمة Algebra » (١) .

وقال فلوريان : « كان للعرب عصر مجيد عرفوا فيه بانكبابهم على الدرس ، وسبقهم فى ترقية العلم والفن ، ولا نبالغ إذا قلنا إن أوروبا مدينة لهم بجهودهم العلمية التى كانت أكبر العوامل فى نهضتها فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر » (٢) .

وقال سيديو : « إن نتاج أفكار العرب الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد أنهم أساتذة أوروبا فى جميع الأشياء » .

وقال سارتون : « لو لم ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانية لتوقف سير المدنية بضعة قرون ، فقد كانوا أعظم معلمين فى العالم منذ القرن الثامن حتى الثانى عشر الميلادى » (٣) .

وقال نيكلسون فى كتابه تاريخ العرب الأدبى : « لا تعد مكتشفاتنا الحالية شيئا ذا قيمة إزاء الدّيْن الذى علينا للعلماء العرب الذين كانوا منارا للمعارف فى العصور الوسطى التى تكاثفت ظلماتها ، وبخاصة فى أوروبا » .

وهكذا أشاد كثير من المستشرقين بذكاء العرب وتفوقهم العلمى وجهودهم فى ميادين المعرفة ، ونوهوا بفضلهم على الغرب وبآثارهم فى نهضته .

---

(١) المرجع السابق ٩٦ .
(٢) السابق ٩٨ .
(٣) السابق ٩٩ .

ولقد اتضح من هذا كله أن المسلمين من عرب ومن عجم كانوا وما زالوا يتسابقون فى مجالى العلوم والآداب والفنون ، فيثرونها بإنتاجهم الرفيع ، وكانوا فى تسابقهم إخوة أشقاء لا يفرق بينهم جنس ولا وطن ولا نسب ، لأنهم جميعا يستظلون براية الإسلام ، ويعتزون برفع لواء الحضارة ، .

التعقيب الثالث
النثر الفنى عربى النشأة

رأى بعض المستشرقين أن العرب لم يعرفوا النثر الفنى معرفة ذاتية ، وإنما نقلوا طرائقه عن الفرس واليونان كالمسيو مرسيه ، فهو يرى أن أول كاتب فى اللغة العربية ابن المقفع الفارسى الأصل ، ويذهب إلى أن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب وأسجاع الكهان والأمثال ، ويعلل ذلك بأنهم كانوا يحيون حياة أولية بدائية ، وهى لا تقتضى نثراً فنياً ، لأن النثر الفنى لغة العقل والثقافة ، وإنما يلائمها الشعر ، لأنه لغة العاطفة والخيال (١) .

وقد ذهب الدكتور طه حسين إلى أن الشعر سبق النثر الفنى ، وفصل المقال فى هذا ، وعلله فى كتابه (حافظ وشوقى) (٢) وفى كتابه (من حديث الشعر والنثر) (٣) .

أما ظهور النثر الفنى عند العرب فإن الدكتور طه حسين يرى أن

---

(١) النثر الفنى فى القرن الدابع ١/٣٣ ، ٣٨، ٤٣
(٢) حافظ وشوقى ٦٣
(٣) من حديث الشعر والنثر ص ٢٢ .

أول القرن الثانى للهجرة هو الذى شهد ظهور الحياة العقلية ، وهو الذى شهد مظهر هذه الحياة العربية ، وهو نشأة النثر الفنى (١) ، وربما كان من الحق أن أول من أحدث فى نفوسنا لذة الكتابة الفنية فى العصر الإسلامى فى القرن الثانى للهجرة هو عبد الحميد وابن المقفع .

على أن الدكتور طه أكد أصالة النثر الفنى عند العرب ، وأنهم لم يستعيروه من غيرهم .

والحق أن النثر الفنى نشأ نشأة عربية خالصة كما رأى الدكتور طه حسين ، فلم ينقله العرب عن اليونان أو الروم أو الفرس أو الهند ، كما نقلوا كثيرا من العلوم والمذاهب والآراء .

لكن هذه الحقيقة قد تحتاج إلى تدليل عليها ، وإثبات لصحتها ، فينبغى أن أناقش ما ذهب إليه الأستاذ المستشرق مرسيه من جهل العرب للنثر الفنى إلى أن ظهر عبد الحميد بن يحيى وعبد الله ابن المقفع .

— ١ —

القرآن الكريم هو المعجزة العظمى فى البيان العربى ، شَدَه العرب بافتنانه ، فتطامنوا لبلاغته ، سواء فى ذلك من شرح الله صدره للإسلام ، ومن أصر على الكفر والعناد .

أما الذين أسلموا فقد آمنوا بأن القرآن منزّل على النبى من عند الله ، وأما الذين لم يسلموا فقد أيقنوا بأن القرآن طراز من البلاغة لاطاقة لهم بمثله ، لكنه من صنع النبى ، وزعموا أنه أوتى مقدرة خارقة ، فاتهموه بأنه ساحر وبأنه شاعر .

---

(١) المرجع السابق ٣٥ (٢) المرجع السابق ٤٢ (٣) المرجع السابق ٢٨

وإذْ كان القرآن ذورة البيان العربى ، ونزل بلسان عربى مبين (١)
كما يصفه الله تعالى ، فإن من الطبيعى أن يكون العرب قبيل الإسلام
قد مارسوا النثر الفنى ممارسة أعدتهم لأن يخاطبوا بالقرآن الكريم ، فإن
الله تعالى يقول « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » (٢) ،
ثم إن الله تعالى تحداهم فى عبارات قارعة محرجة أن يأتوا بسورة من
مثله فعجزوا ، ولو لم يكن القرآن من جنس بيانهم الذى عرفوه وألفوه
ماتحداهم هذا التحدى ، وما سجل عليهم عجزهم بعد طول الإمهال :
« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون
بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (٣) .

لكنا بحاجة إلى نصوص نطمئن إليها فى معرفة العرب للنثر الفنى
قبل الإسلام ، لأن الشك يخامر ماروُى عنهم من خطب ووصايا
ورسائل ، وفقدان هذه النصوص التى نطمئن إلى صحتها ليس دليلاً
على جهالة العرب بالنثر الفنى .

— ٢ —

العرب قوم ذوو لَسنَ وبلاغة ، يحبون البيان والطلاقة والتحبير
والرشاقة ، ويأمرون بالتَّبيُّن والتَّثبُّت والتحرر من زلل الكلام ومن
زلل الرأى (٤) .

ولقد وصفهم القرآن الكريم بذلك ، قال تعالى : « ولتعرفَنهم

---

(١) سورة الشعراء ١٩٢ .
(٢) سورة إبراهيم ٤
(٣) سورة الإسراء ٨٨
(٤) البيان والتبيين ١ - ١٩١ و ١٩٧ .

فى لَحْن القول » (١) وقال : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويُشْهِد الله على مافى قلبه وهو ألدُّ الخصام(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم لما سمع بعضهَم يتكلم مادحاً ثم قادحاً ومعللا لمدحه وقدحه : إن من البيان لسحرا (٣) .

لهذا كانت معجزة النبى من جنس ماتميزوا به ، من بلاغة المنطق ، وروعة التعبير ، وساحر البيان .

— ٣ —

وقد كان للعرب فى جاهليتهم أمثال كثيرة ، وسلم بعضها من النسيان والإغفال ، وبقى إلى أن دون ، وربما كان أقدم مصدر لهذه الأمثال نعرفه اليوم كتاب الفاخر لأبى طالب المفضل بن سلمة المتوفى سنة٢٩١ ه

ولسنا نرتاب فى نسبة هذه الأمثال إلى العصر الجاهلى ، كما نرتاب فى الخطب ، لأن فى طبيعة الأمثال مايكفل بقاءها زمنا طويلا ، فعباراتها قصار يسهل حفظها وبقاؤها وتداولها ، والناس كلفون بترديدها والاستشهاد بها ، لأنها تمثل تجارب الماضين وآراءهم وأحكامهم ، ولأنها مرتبطة بأحداث سابقة كثيرا مايشهدون لها نظائر ، فسرعان مايستحضرون التعبير السابق ويرددونه فى الحدث الحاضر ، ثم إنها تصور ألواناً من أخلاق البشر وطباعهم كانت صادقة فى تصويرها حينما قيلت ، وماتزال صادقة فى تصويرها حينما يتمثل بها مُرَدِّدوها .

ولكن ماعلاقة الأمثال بالنثر الفنى ؟ .

فى كثير من هذه الأمثال صفات ترتفع بها عن اللغة المألوفة فى الحياة المعتادة إلى لغة فيها براعة وافتنان .

(١) سورة محمد ٣ (٢) سورة البقرة ٢٠٤ . (٣) البيان والتبيين ١/٥٣

فهى مرسلة فى تعبير مختار المفردات ، محكم الصياغة ، وفى بعضها عناية بالجرس والتوازن والإيقاع ، لهذا نجد فيها سجعاً وتماثلا فى عدد الكلمات ، مثل (رب عجلة تَهَبُ رَيْثا ، ورب فروقه يُدْعَى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا (١)) . ومثل : (رب ساع لقاعد(٢)) .

وهى تعتمد أحيانا على مجاز أو كناية أو تشبيه أو استعارة مستمدة من البيئة ، لتوحى بالمعنى المراد فى ثوب من الخيال ، مثل قولهم (كل فتاة بأبيها معجبة (٣)) .

(١) الفاخر ٢٠٨ أول من قال ذلك مالك بن عوف بن أبى عمرو بن عوف بن محلم الشيبانى ، وكان شيبان بن مالك بن أبى عمرو بن عوف بن محلم شام غيثاً فأراد أن يرحل بامرأته جماعة بنت عوف ، فقال له أخوها مالك : أين مظعن أختى ؟ قال : أطلب موقع هذه السحابة ، قال : لاتفعل فإنها ربما خيلت وليس فيها قطر ، وأنا أخاف عليك بعض مقانب العرب ، قال : لكنى لست أخاف ذلك فمضى وعرض له مروان القرظ بن زنباع بن جذيمة العبسى فأعجله عن زوجته ، وانطلق بها حتى جعلها بين بناته وإخوته ولم يكشف لها سترا ، فقال مالك بن عوف لشيبان : مافعلت بأختى؟ قال: نفتنى عنها الرماح ، فقال مالك : رب عجلة ...

(٢) الفاخر ١٧٥ أول من قاله النابغة الذبيانى ، وكان قد وفد إلى النعمان بن المنذر وفود من العرب فيهم رجل من بنى عبس اسمه شقيق فمات عنده فلما أعطى الملك الوفود بعث إلى أهل شقيق بمثل عطاء الوفد ، فقال النابغة حين بلغه ذلك : رب ساع لقاعد ، وقال النعمان :

أبقيت للعبسى فضلا ونعمة ... ومحمدة من باقيات المحامد

حباء شقيق فوق أعظم قبره ... وما كان يحبى قبله قبر وافد

أتى أهله منه حباء ونعمة ... ورب امرىء ساع لآخر قاعد

(٣) الفاخر ٢٥٣ : أول من قال ذلك العجفاء بنت السعد بن علقمة وكانت قد خرجت مع ثلاث نسوة من بنى سعد فى ليلة طلقة ليتحدثن ، فأتين روضة ، فلما اطمأن بهن المجلس أخذن فى الحديث عن أى النساء أفضل ، قالت إحداهن خير النساء الخريدة الودود الولود ، وقالت أخرى : بل خير النساء ذات الغنى ، وطيب الثنا ، وحسن الحيا ، وقالت الثالثة : خيرهن الشموع الجموع الحصان القنوع ، وقالت الرابعة : بل خيرهن الجامعة لأهلها المانعة الرافعة الواضعة.

ثم قلن : فأى الرجال خير ؟ قالت إحداهن : الحظى الرضى القنوع غير الحظال (الشديد الغيرة) ولا التبال الحقود ، وقالت الأخرى : بل خير الرجال الوطى الدمث الأخلاق السنى ، الذى يكرم الحرة ، ولا يجمع الضرة ، قالت الثالثة بل خير الرجال الغنى المقيم ، الراضى لايلوم ، قالت الرابعة : وأبيكن إن فى أبى لنعتكن .

قالت العجفاء : كل فتاة بأبيها معجبة .

ومثل (تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها (١)) .

وكقولهم فى وصف المغرور بما يتوهم فى نفسه من مزايا ومواهب أو بما يمتلك من أشياء يظن أنه وحده المالك لها بغير أن يقيس ماعنده بما عند الناس : (كل مُجْرٍ فى الخلا يُسَرّ) ، لأن الذى يجرى فرسه وحيداً ينخدع بسرعته ، لكنه إذا سابق به غيره ربما تبين له بطؤه وضعفه .

وكقولهم فيمن يتنصل من خلق فيه أو من وصف ثابت له فيدعى أنه طارئ عليه ، كأن يكون جباناً ويزعم أنه تقهقر لمرض نزل به ، أو يكون حقير النشأة فيدعى أن الدهر أخنى على مجد آبائه : (قبل النفاس كنت مصفرة) لأن المرأة التى كانت قبل الحمل مهزولة شاحبة تزعم بعد الوضع أن نحولها وشحوبها من آثار النفاس .

ولقد يعتمد المثل على التشخيص ، فيضفى صفات الأحياء على الجماد ، أو يضفى صفات العقلاء على غير العقلاء ، من إدراك وتعقل ورزانة وتهور ، مثل (أحمق من رِجْلة) لأنها تثبت فى مجرى السيل فيقتلعها ، كأنها صاحبة رأى وإرادة واختيار ، وهى التى اختارت لنفسها هذا المكان لتنبت فيه ، وكذلك قولهم :

---

(١) الفاخر ١٠٩ أى لاتهتك نفسها وتبدى من محاسنها ماينبغى أن تبديه . أول من قال ذلك الحارث بن سليل الأسدى ، وكان زار علقمة بن خصفة الطائى وكان حليفا له ، فرأى ابنته الزباء فأعجب بها ، فقال : أتيتك خاطبا وقد ينكح الخاطب ويدرك الطالب ويمنح الراغب . فقال له علقمة : أنت كفء كريم يقبل منك الصفو ويؤخذ منك العفو ، فأقم ننظر فى أمرك ثم انكفأ إلى أمها فأخبرها ، فقالت لابنتها : أى الرجال أحب إليك ؟ الكهل الجحجاح (السيد السمح الكريم) الواصل المناح أم الفتى الوضاح ؟ قالت : لا ، بل الفتى الوضاح ... فلم تزل بها أمها حتى غلبتها على رأيها ، فتزوجها الحارث ، فانثنى بها ، ثم رحل بها إلى قومه ، فبينا هو ذات يوم جالس بفناء قبته وهى إلى جانبه إذ أقبل شباب من بنى أسد يعتلجون ، فتنفست صعداء ثم بكت ، فقال لها : مايبكيك ؟ قالت : مالى وللشيوخ الناهضين كالفروخ ، فقال لها : ثكلتك أمك ، تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها . .

(أكفر من حمار) و (أكيس من قشة (١)) و (أكتم من الأرض).

— ٤ —

احتفى العرب بالخطابة منذ الجاهلية ، وافتخروا ومدحوا بالبراعة فيها ، حتى كانت الخطابة والشعر متساويين فى القدر .

يقول لبيد (٢) :

ومقــام ضَيِّق فرَّجتُــه ببيــان ولســانٍ وجــدَلْ

ويقول قيس بن عاصم المنقرى فى وصف قومه :

خطباء حين يقوم قائلهم بيضُ الوجوه مصاقعٌ لُسُنٌ (٣)

ويرثى أوس بن حجر فُضالة بن كَلَدة(٤) بأنه الخطيب الفذ فى مجمع القوم عند الملوك :

أم من يكون خطيب القوم إن حَفَلُــوا

عند الملوك أولى كَيْــد وأقــوال

ويقول أبو قُرْدُودة الطائى فى رثاء ابن عَمَّار الطائى (٥) إن قاتليه قد حرموا الناس كرمه العظيم ، ومنطقة الجميل الأخاذ الذى يشبه الثوب الموشّى باليمن :

ياجفنةً كإزاء الحــوض قــد هدَموا

ومنطِقًا مثل وَشْيِ اليَمْنَةِ الْحِبَرهِ(٦)

---

(١) القشة : القردة الصغيرة .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٦٥ .
(٣) البيان والتبيين ١/٥٧
(٤) المرجع السابق ١/١٨٠
(٥) المرجع السابق ١/٢٢٣
(٦) إزاء الحوض : مصب الدلو فيه . اليمنة : برد يمنى . الحبرة : بكسر الحاء وفتحها وفتح الباء ضرب من برود اليمن منمق موشى (لسان العرب مادة حبر) .

لكنهم لم يكونوا يعدون خطبهم مكتوبة ، لأن الكتابة كانت نادرة ، وإنما كانوا يفكرون فى مقالهم ويُحَبِّرُونه ويزينونه ثم يسترسلون، يقول الجاحظ (١) :

« كان الكلام البائت عندهم كالمقتَضَب(٢) اقتداراً عليه ، وثقة بحسن عادة الله عندهم فيه ، وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأى فى معاظم التدبير ومهمات الأمور ميَّثوه(٣) فى صدورهم ، وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قوَّمه الثقاف . . أبرزوه محكَّكا منقحا ، ومصفًّى من الأدناس مُهَذبًا » .

أى أنهم كانوا أحياناً يعمدون إلى التحبير والتزيين والتنميق كما كان يفعل كثير من الشعراء .

ثم ازدادت الخطابة رفعة وقوة فى العصر الإسلامى ، ولا شك أن كثيراً من الخطب كان يُعَدُّ إعداداً فيه تأنق وتجويد وترتيب ، سواء أكان إعداداً مكتوبا أو غير مكتوب .

يدل على هذا أن عمر بن الخطاب قال إنه كان فى يوم السقيفة قد زَوَّرَ — حبَّرَ وأعدَّ — كلاما ليقوله ، لكن أبا بكر استمهله وتكلم ، فلم يدع شيئاً مما كان عمر يريد أن يقول (٤) .

وكان عمر يشعر بأن لخطبة النكاح صعداء ومشقة (٥) .

وروى أن عثمان بن عفان صعد المنبر فأُرْتِجِ عليه فقال : إن أبابكر

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٤

(٢) المقتضب : المرتجل .

(٣) ميثوة . ذللوه .

(٤) الطبرى ٢/٢٠٠

(٥) البيان والتبيين ١/١١٧ .

وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وسأتيكم الخطب على وجهها إن شاء الله (١) .

وهذا النص صريح فى أن أبا بكر وعمر كانا يعدان خطبهما أوعلى الأقل بعض خطبهما ، وفى أن عثمان قد فوجىء غير مستعد ، فوعدهم بأنه سيعد خطبه لتجىء على النسق الذى يرضاه ويرتضونه .

وروى أن الخوارج طلبوا من عبدالله بن وَهْب الراسبى — حين ولوه رياستهم — أن يخطب فيهم فقال : وما أنا والرأى الفطير والكلام القضيب(٢) .

واشتهر واصل بن عطاء بأنه كان يجتنب الراء فى خطبه(٣) ليخفى لثغته ، ومعنى هذا أنه كان يُعدها ويتمهل فى إعدادها .

على أن طابع الإعدد والتأنق يتضح فى كثير من خطب العصر الأموى ، كخطبة زياد بالبصرة ، وخطبتى الحجاج بالكوفة والبصرة ، وخطبة عبد الملك بعد مقتل مصعب ، وخطبة أبى حمزة الشارى بالمدينة ، لأن هذه الخطب ونظائرها موحدة الموضوع ، مرتبه الأفكار ، بارعة التعبير متزنة الجمل ، محلاة بسجعات لطيفة الوقع ، معتمدة على ألوان من الخيال .

ولقد يسترعى الانتباه أن بعض الخطب تبدأ بمقدمة وثيقة الصلة بالموضوع ، ثم يعقبها العرض ، وبه أحياناً تدليل وتفنيد ، ثم تنتهى بخاتمة جامعة للموضوع ، أو مثيرة للسامعين ، وهى بهذه المراحل قد

---

(١) المرجع السابق ١/٣٤٥.

(٢) المرجع السابق /٢٢٥

(٣) المرجع السابق ١/١٤

استكملت أجزاء الخطبة كلها ، كما قسمها أرسطو وغيره من المحدثين (١).

على أنه لايشترط فى الخطبة أن تضم هذه الأجزاء كلها ، لتكون بارعة أو كاملة ، فالمهم الموضوع نفسه ، لكن اشتمال بعض الخطب فى العصر الأموى على هذه الأجزاء يؤكد أنها مُعَدَّة قبل الإلقاء .

— ٥ —

لم تكن الكتابة فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم بحاجة إلى تنميق واحتفال خاص ، لأن الغاية منها مقصورة على تبليغ المعنى من أقرب طريق .

فلما كان عهد عمر كثرت رسائله ، وبدا فى بعضها التحبير والاحتفال ، كرسالته إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء ، ثم اتضح التنميق أكثر فى الرسائل الكثيرة المتبادلة بين على ومعاوية .

وآل الأمر إلى معاوية فأنشأ ديوان الخاتم وديوان الرسائل ، ثم عربت دواوين الخراج فى عهد عبد الملك ، فصارت العربية لغة الدواوين كلها ، وكان يليها عرب خُلص أو مستعربون حذقوا العربية كسالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد بن يحيى .

وكان لهؤلاء الكتاب من عرب ومستعربين فضل عظيم فى النهوض بالكتابة الفنية ، لأنهم منقطعون لها ، ولأن بقاءهم فى الدواوين موصول بمهارتهم وتجويدهم .

على أن النثر الفنى لم يتمثل فى الرسائل الديوانية وحدها ، بل تعداها إلى ضرب آخر هو التأليف والتدوين .

---

(١) راجع كتاب (فن الخطابة) للمؤلف .

ولقد كان كثير ممن يملون الرسائل أو يكتبونها يتخيرون التعبير وينمقونه قبل ابن المقفع ، ومن هنا جاءت رسائلهم بليغة الصياغة ، طريفة الخيال ، كما نجد فى الرسائل المتبادلة بين على ومعاوية وبين معاوية وزياد وبين الحجاج وقطرى بن الفُجاءة .

ويدل على هذا أيضاً أن معاوية أملى كتاباً قال فيه عن رجل : « لهو أهون علىّ من ذرة ، أو كلب من كلاب الحرّة » ثم قال للكاتب : امح من كلاب الحرة واكتب من الكلاب(١) ولعله كره هذه السجعة ، لأن كلاب الحرة ليست أكثر هواناً عليه من غيرها ، فحرصه على ذكرها يدل على أنه يتكلف السجع ويخضع له المعنى ، وهذا ليس من البلاغة الفطرية التى اشتهر العرب بها .

— ٦ —

على أننا نتعمق فى التدليل ، ونتبسط فى التوضيح فنعقد موازنة بين صفات النثر الفنى عند عبد الحميد بن يحيى ، وصفاته فى الرسائل التى كتبت فى عصر بنى أمية وبنى مروان (٢) ، قبل أن يخط عبد الحميد سطراً ، فماذا نجد ؟

نجد اتفاقاً ونجد تشابهاً فى الجوهر ، ولا نجد اختلافاً إلا فى الشكل والمظهر .

ولقد يكون هذا الحكم فى حاجة إلى تفصيل فما تفصيله ؟ .

نلاحظ أن عبد الحميد كان يطيل آناً ويوجز آناً ، مراعياً مايقتضيه

---

(١) رسائل الجاحظ ٧٥

(٢) راجع أدب السياسة فى العصر الأموى للمؤلف .

المقام وما تتطلبه المناسبة ، لكنه لم يكن مبتدع هذا التنويع ، فقد كانت الرسائل قبله تطول أحياناً ، وتقصر أحياناً ، مجاراة للموضوع ، أو مراعاة للمقام .

ونجد فى رسائل عبد الحميد حفاوة ببسط الأفكار ، وتوليد المعانى أو توكيدها بالترادف ، وقد سبقه إلى هذا كثير ممن أملوا رسائل فى العصر الأموى وممن كتبوا بأنفسهم .

ولقد يسترعى انتباهنا فى نثر عبد الحميد أنه يجنح أحياناً إلى الخيال يُفوِّف به الأفكار ، ولكن هذا ليس بجديد ، لأن فى بعض الرسائل التى كتبت قبله ألواناً من الخيال لا تقل طرافة وجمالا عن أخيلة عبد الحميد ، إن لم تفقها بهاء وأصالة .

وإذا كان عبد الحميد قد اعتمد على التأنق والتحبير وتعمد التجويد ، لأنه كاتب مختص بالكتابة ، فإن كثيراً من رسائل العصر أعدها كاتبوها أو أملوها وتأنقوا فيها ونمقوها .

ولست أنسى أن عبد الحميد كان يفصِّل جمله ويقطِّعها متساوية الطول ومتساوية القصر ، ولست أنسى أنه كان يزينها بقليل من السجع الذى لااستكراه فيه ، وأنه كان يرتب أفكاره فى كثير مما يكتب ، لكنى أذكر أن هذه الصفات كلها فى كثير من رسائل العصر الأموى .

بقيت بعض مظاهر شكلية تفرد بها عبد الحميد ، كتأنقه فى البدء والختام ، وتنويعهما حسب المقام ، وإطالته فى البدء بنوع خاص بعبارات التمجيد والثناء مكررا المعانى تارة ، ومولدا بعضها من البعض تارة ، ولكن تفرُّده بهذا لاينهض دليلاً على أنه أول من كتب فى

العربية نثراً فنياً ، ولا يصح أن يموه به أحد لينفى عن العرب معرفتهم للنثر الفنى قبل عبد الحميد ، لأن الحكم ينبغى أن ينصب على الأصل والبنية والجوهر ، لا على الشكل والحاشية والمظهر . ولأن النثر الفنى ماكان ليفقد ميزة ذات قيمة لو أنه خلا من التأنق والإطناب فى مطالع الرسائل وخواتمها ، وإنما كان يفقد خواصه الأصيلة لو أنه جاء خلوا من التجديد والتنميق وتوخى الجمال والتأثير .

— ٧ —

إذن كان النثر الفنى معروفاً للعرب قبل عبد الحميد وابن المقفع ، لأن العرب كانوا يكتبون رسائل فنية قبل أن يكتب عبد الحميد وابن المقفع ، وجعل هذا النثر الفنى يتطور ويترقى على ألسنة العرب الذى أملوا ، وعلى أقلام العرب الذين كتبوا ، فلما قاربت الدولة الأموية نهايتها كان هذا النثر قد شارف نضجه ، ثم كان عبد الحميد أول كاتب فى الديوان اشتهر بكتابته وذاع صيته ، وظهرت فى آثار قلمه خواص من سبقوه ، ومظاهر ابتكرها ونسبت إليه ، فصار نثر عبد الحميد وابن المقفع هو أول نثر فنى يحدث فى نفوسنا لذة ، ونجد فى قراءته متعة .

ومعنى هذا أن النثر الفنى فى أدبنا العربى لم يكن يونانى النشأة ، ولا فارسى المولد ، وإنما نشأ عربيا خالص العروبة كما نشأ الشعر وكما نشأت الخطابة والحوار والأمثال .

أما الطابع الفارسى واليونانى فقد تبين فى النثر الفنى واضحاً بعد ذلك حينما اتصل العرب بالفرس واليونان ، ونهلوا من أدب أولئك

وعلوم هؤلاء ، ولهذا كانت معالمه فى نثر ابن المقفع ومن بعده أوضح منها فى نثر عبد الحميد ومعاصريه .

التعقيب الرابع

التوقيعات عربية النشأة

دهب بعض الباحثين إلى أن العرب نقلوا التوقيعات(١) عن الفرس ، إذ كان الفرس قد اشتهروا بها .

وهذا رأى متجنٍّ على العرب ، لأن التوقيعات نشأت نشأة عربية خالصة .

(١)

وذلك لأنهم عرفوا التوقيع ومارسوه فى أحسن صوره قبل أن يتصلوا بالفرس أو غيرهم ويحاكوهم فى توقيعهم ، وليس ثمة فرق بين توقيعات العرب فى العصر الإسلامى وتوقيعاتهم فى العصر العباسى .

(٢)

ثم إن التوقيع قائم على ما يلائم الفطرة العربية من ميل إلى الإيجاز ، ومقدرة على البيان ، وسرعة خاطر ، وحضور بديهة ، فلم

---

(١) للتوقيع معان كثيرة : ولعل معناه الاصطلاحى مأخوذ من وقعت الابل أى اطمأنت بالأرض بعد الشبع والرى ، لأن الكاتب الموقع يطمئن إلى تصريفه للأمر وقضائه فيه .
أو من وقع ظنه على الشىء أى قدره ، لأن الموقع يكتب رأيه بعد تدبر .
أو من التوقيع وهو الرمى القريب والإصابة لأن الموقع يفصل فى الأمر من أقرب طريق .
أو من التوقيع وهو إصابة المطر بعض الأرض وتخلفه عن بعضها فتختلف ألوانها ، لأن التوقيع إلحاق شىء بالكتاب بعد الفراغ منه (لسان العرب مادة وقع) .

يكن العرب فى حاجة إلى أن يحاكوا غيرهم فيما يلائم طبائعهم أشد الملاءمة .

(٣)

وقد كان الخلفاء يوجزون فى توقيعاتهم على مايرفع إليهم من شكاوى ورغبات ، لبيان رأيهم فيها ، وكانت توقيعاتهم تتراوح بين آية قرآنية ، وحديث نبوى ، ومثل سائر ، وحكمة متداولة ، وجملة موجزة من الموقع نفسه .

وتميزت بأنها فى مكان معين من حاشية الرقعة المرفوعة إلى الخليفة ، وبمداد مغاير للون الكتاب .

بهذا المعنى وعلى هذه الصورة عرف العرب التوقيع منذ عهد عمر ابن الخطاب :

ثم عهدوا بالتوقيعات منذ عهد الرشيد إلى كتاب يثقون بهم ، فصار التوقيع مهنة ، وصار له رجالٌ من ذوى المقدرة البيانية ، يقول ابن خلدون : « ومن خطط الكتابة التوقيع ، وهو أن يجلس الكاتب بين يدى السلطان فى مجالس حكمه وفصله ، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه ، فإما أن تصدر كذلك ، وإما أن يحذو الكاتب على مثلها فى سجل يكون بيد صاحب القصة .

ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه .

واعلم أن صاحب هذه الخطة لابد أن يتخير من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم ، وعارضة البلاغة ،

فإنه معرضٌ للنظر فى أصول العلم ، لما يعرض فى مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ماتدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ، ومع مايضطر إليه فى الترسل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها » .

(٤)

وهذه أمثلة من توقيعات الخلفاء الراشدين :

١ ـ كتب سعد بن أبى وقاص إلى عمر بن الخطاب فى بناء يبنيه ، فوقع عمر فى أسفل الكتاب : « ابن مايُكنك من الهواجر وأذى المطر » .

ووقع إلى عمرو بن العاص : « كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك » .

٢ ـ رويت توقيعات عن عثمان ، منها توقيعه على شكوى قوم من عامله مروان بن الحكم : « فإن عصوك فقل إنى برىءٌ مما تعملون » ، ومنها توقيعه على شكاية رجل شكا إليه فقرا : « قد أمرنا لك بمايقيمك ، وليس فى مال الله فضل للسرّف » .

٣ ـ ورويت توقيعات عن على ، كتوقيعه فى كتاب لابنه الحسن : « رأى الشيخ خيرٌ من جَلَدِ الغلام » ، وتوقيعه على كتاب لسلمان الفارسى سأله فيه عن طريقة حساب الناس يوم القيامة : « يحاسبون كما يرزقون » .

(٥)

أما توقيعات الأمويين فهى كثيرة ، منها :

١ ـ كتب ربيعة بن عسْل اليَرْبوعى إلى معاوية يسأله أن يعينه

على بناء داره بالبصرة ، باثنى عشر ألف جذع من النخل ، فوقع معاوية على رسالته بقوله :

« أدارك فى البصرة أم البصرة فى دارك ؟ » .

٢ـ وكتب الحسن بن على إلى معاوية كتابا ، أغلظ فيه ، فوقع معاوية عليه بقوله :

« ليت طول حلمنا عنك لايدعو جهل غيرنا إليك » .

٣ـ كتب مُسْلم بن عُقْبة المرّى إلى يزيد بن معاوية بما فعله بأهل المدينة فى وقعة الحرّة ، فوقع فى أسفل الكتاب بقوله : « فلا تأسَ على القوم الفاسقين » .

٤ ـ كتب الحجاج إلى عبد الملك يشكو أهل العراق ، فكان توقيعه على الكتاب :

« ارفق بهم ، فإنه لايكون مع الرفق ماتكره ، ومع الخُرْق ماتحب » .

٥ ـ كتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بقوة عبد الرحمن ابن الأشعث فوقع على الكتاب بقوله :

« بضعْفك قَوِى ، وبخوفك هَلِع » .

٦ ـ كتب قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك يتهدده بالخلع ، فوقع سليمان بقوله : (والعاقبة للمتقين) .

٧ ـ كتب بعض عمال عمر بن العزيز إليه ، يستأذنه فى أن يَرُمَّ مدينة ، فوقع عمر بقوله . « ابنها بالعدل ، ونقّ طرقها من الظلم » .

٨ ـ وهذا النحو كثير من الخلفاء والولاة (١) .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٢/٥٧٤ — ٥٩١ والعقد الفريد ٥/٢٩٣ — ٣٠٢

(٦)

فلما قامت الدولة العباسية تولى خلفاؤها وولاتها التوقيعات بأنفسهم أول الأمر ، كما كان يفعل بنو أمية ، وكثرت التوقيعات فى العصر العباسى ، وزادت افتنانا .

١ ــ فمن توقيعاتهم ماوقع به أبو العباس السفاح لعامل تظلم منه الناس :

« وما كنت متخذ المضلين عَضُدا (١) » .

٢ ــ وما وقع به أبو جعفر المنصور لأهل الكوفة وقد شكوا عاملهم :

« كما تكونون يؤَمّر عليكم » .

٣ ــ وما وقع به المهدى لرجل من بطانته يطلب صلة أبطأت :

« ليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك » .

٤ ــ وما وقع به الرشيد لعامله بخراسان : « داو جرحك لايتسع » ، وتوقيعه بعد قتل جعفر بن يحيى البرمكى : « أنبتته الطاعة ، وحصدته المعصية » .

(٧)

لم يبق شك إذن فى أن التوقيعات عربية المنشأ ، خالصة العروبة ، مثلها مثل النثر الفنى سواء بسواء .

---

(١) سورة الكهف ٥١

الباب الثالث

آثار العرب فى الفرس فى الإسلام

(١)

الإسلام والحرية

سار العرب إلى الحيرة وفارس حاملين العقيدة الإسلامية التى أنعم الله بها على البشر ، فلما دانت لهم فارس خيروا أهلها بين الإسلام والجزية ، كما كانوا يفعلون فى البلاد التى فتحوها ، فهدى الله كثيراً من الفرس إلى الإسلام ، ثم شرح صدور أكثرهم فأسلموا مختارين راضين ، وما هى إلا حقبة من الزمن حتى برع كثير منهم ومن أبنائهم فى العلوم الدينية ، وصاروا من أعلامها ، كأبى حنيفة والبخارى ومسلم .

وبهذا ارتفع الفرس من وهدة الوثنية ومايشبهها ممثلة فى الزرادشتية والمانَوية والمزدَكية ، إلى أوْج التوحيد الخالص ، وتحرروا من النظم الاجتماعية الفاسدة إلى النظم الإسلامية السامية ، فقد كانوا يحلون بعض المحارم ، وإن ادعوا فى القرون الوسطى أن عقائدهم المجوسية لم تكن تبيح لهم زواج المحارم (١) .

روى أن إسماعيل بن يسار — وكان شعوبيا — فخر على العرب بقوله :

إذْ نُربِّى بناتنا وتَدُسُّو نَ سَفَاهاً بناتكم فى التراب

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢ بارتولد .

وكان أشعب فى السامعين ، فقال له : صدقتَ والله ، أراد العرب بناتهم لغير ماأردتموهن له ، قال إسماعيل : وماذاك ؟ قال أشعب : دفن العرب بناتهم خوفا من العار ، وربيتموهن لتنكحوهن ، فضحك الحاضرون وود إسماعيل لو غاص فى الأرض (١) .

ولقد نجم عن إسلام الفرس سمو فى العقائد ، وعلو فى النظم الاجتماعية ، وتحرر من أصفاد الحكم المطلق .

وقد سبق فى الحديث عن الفتح الإسلامى لفارس أن الشعب كان يصطلى بنار الانقسام الدينى ، فهناك زرادشتية تصطنعها الدولة دينها الرسمى ، ورجالها يضطهدون ماعداها من أديان ، وهناك مانوية قائمة على أسس من الكسل وترك الزواج ليفنى العالم ، وهناك مَزْدكية مخربة هدامة تحض على شيوع النساء والأموال ، وإلى جانب هذه الديانات نصرانية يتعادى نساطرتها ويعاقبتها ، والدولة تضطهد النساطرة واليعاقبة فى كل حرب بينها وبين الروم ، وكان هناك يهود وصابئة طالما قاسوا شدائد التنكيل والاضطهاد .

على أن ترف الملوك والحكام ، والحروب الكثيرة بين الدولة وجيرانها ، واستئثار الملوك بالسلطان ، اقتضى فيضاً من الأموال يتدفق على خزائن الدولة ، فكانت الضرائب المتعددة الفادحة التى أنَّ الشعب تحت أثقالها .

وكان الملك وراثياً استبدادياً ، يزعم أن كسرى يملك نيابة عن الله ، فلم يكن يجرؤ أحد على الجهر بسخط أو اعتراض ، على حين أن

---

(١) الأغانى ٤/١٢٠

الأكاسرة فى عزلة عن الشعب الذى يدين بأنهم يتولون شؤونه بتفويض من الله ، فمن حقوقهم على الشعب أن يسمع ويطيع ، وليس عليهم حق لأحد من هؤلاء الناس .

قال نولدكه : « إن ملوك الفرس كانوا يزعمون أنهم وحدهم أصحاب الحق فى لبس التاج بما يجرى فى عروقهم من دم إلهى » .

وقال براون : إن نظرية الحق الإلهى لم تُعْتَنَق كما اعتنقت فى فارس فى عهد ملوك آل ساسان ، ووافقهما على هـذا الوصف كثير من الباحثين مثل دوزى وميلر (١) .

فلما أسلم الفرس تحرروا من هذا كله ، وتخلصوا من أوهاق الفساد والاستعباد ، ثم سمت نفوسهم ، وصفت أرواحهم ، وكثر فيهم المتصوفة والزهاد .

---

(١) أدب السياسة فى العصر الأموى ٣٤

(٢)
فى العلوم الدينية

سارع كثير من الفرس إلى اعتناق الإسلام منذ الفتح العربى ، وشرع كثير منهم يتعلمون اللغة العربية ، لأنها لغة القرآن الكريم والحديث الشريف ، ولغة الغالبين ، ففسحت اللغة العربية طريقها هنالك ، وترجم الفرس كثيراً من الكتب العربية الدينية ، وألفوا كتباً أخرى معتمدين على المصادر العربية :

ذكر المؤرخ الفارسى أبو جعفر نرشخى فى كتابه (تاريخ بخارى) أن أهلها كانوا فى أول العهد بالإسلام يقرأون القرآن الكريم فى ترجمته الفارسية (١) .

ولا شك أن هذه الترجمة كانت تقتضى ترجمة ما يتصل بالنص القرآنى من تفسير وتشريع وتاريخ ، لهذا ترجم الفرس من عهد مبكر تفسير الطبرى ، ومن المرجح أن ترجمة فارسية موجزة لتفسير الطبرى ظهرت فى القرن الرابع بأقلام فريق من علماء خراسان ، ثم كثرت الترجمات لكتب الحديث وكتب الفقه ، وكثرت المؤلفات فى العلوم الشرعية معتمدة على المصادر العربية الإسلامية :

(١) الأدب المقارن ٣٤٢

(٣)

فى التاريخ

أعجب الفرس بكتاب الطبرى (تاريخ الأمم والملوك)(١) لأن الطبرى فارسى الأصل ، ولأنه ثقة فيما سجله تاريخهم القديم ، وحجة فيما سجل من تاريخ الإسلام ، فترجمه الوزير السامانى (بَلْعَمِى) فى القرن الثالث ، بعد أن حذف سلاسل السَّند والروايات المتعددة ، ولكنه أضاف إليه حكايات دينية وخلقية ، لأن الفرس يحرصون على أن يكون التاريخ مجالا للعظة والإرشاد .

وقد عمد المؤرخون من العرب — بعد الطبرى — إلى النثر المسجوع ، والتعبير الحافل بالخيال والصناعة والأمثال والشواهد الشعرية ، حتى إن العُتْبِى صرح فى كتابه (تاريخ يمين الدولة) الذى ألفه سنة ٤١٢ هـ بأنه سلك مسلك الشعراء فى تسجيل مآثر السلطان محمود الغزنوى ، وهو فى الحقيقة لم يسلك مسلك الشعراء وحدهم ، بل سلك أيضاً مسلك المؤرخين العرب بعد الطبرى .

وإذْ كان الفرس يقتفون آثار العرب ، حاكى مؤرخوهم هذا الضرب من التعبير ، فترجم الجرباذقانى كتاب (يمين الدولة) من العربية إلى الفارسية ، حريصاً على نقل الخصائص الفنية إلى لغة الفرس ، وصارت هذه الخصائص منهجاً يسلكه كثير من مُؤرخيهم ، كما نجد فى كتاب التاريخ الذى ألفه شرف الدين وصَّاف فى القرن الثامن الهجرى .

(١) هذا هو اسم الكتاب فى طبعته الأولى بالمطبعة الحسنية المصرية ويسمى فى بعض الطبعات تاريخ الرسل والملوك .

(٤)

فى اللغــة

فتح العرب بلاد الفرس وهم يتكلمون البهلوية (لغة المرحلة الوسطى بين لغتهم القديمة قبل فتح الإسكندر لبلادهم وبين لغتهم الحديثة التى نشأت فى منتصف القرن الثالث الهجرى) فلما احتكت اللغة العربية بالبهلوية صارعتها فصرعتها فى الإنتاج العلمى والأدبى ، واستأثرت به أطول من قرنين ، إذ صارت لغة النابهين من أبناء الفرس إلى أن بعثوا اللغة الفارسية الحديثة محاكية للعربية ، ثم زاحمتها شيئاً فشيئاً حتى استقلت .

لكنها بعد استقلالها ما زالت مصبوغة بألوان شتى من آثار اللغة العربية وآدابها .

١ ــ وقد درس اللغة العربية وتفوق فيها كثير من أبناء الفرس ، كابن المقفع وسهل بن هارون والفضل بن سهل وموسى بن سيّار الذى يذكر الجاحظ أنه كان قصاصاً من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، حتى إنه كان يقعد للقصص والعرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يفسرها للفرس بالفارسية ، فلا يُدْرَى بأى لسان هو أبْيَن .

وكان أبو مسلم الخراسانى يحفظ كثيراً من الشعر العربى ، وكان أبو سَلَمَة الخلاّل عالما بالشعر والأخبار والجدل ، وكان البرامكة على

درجة عالية من البلاغة ، وكثيراً ماشجعوا بنى جنسهم على إجادة اللغة العربية والتفوق فيها ، ليولُّوهم الوظائف الكبيرة فى دولة بنى العباس (١) .

٢ — لهذا كان الفرس يصطنعون اللغة العربية فى أول الأمر وسيلة للتأليف وبخاصة فى العلوم الشرعية ، وكانت بلادهم موطناً من مواطن الأدب العربى منذ سادت العربية هناك إلى أن أغار التتار على بلادهم ، وكان الأدباء من الفرس يأْتَمُّون بالأدب العربى ، ويحاكونه ، وينقلون كثيراً من كلماته وعباراته ، ومازالوا يقرأونه ويتذوقونه إلى اليوم .

ومن هنا كانت طريقتهم فى تربية الملكة الأدبية لا تغاير الطريقة التى نصح بها العرب ، وهى التزود من الثقافة العامة ، والتملِّى بالبليغ الرائع من الشعر والنثر ، وإدامة النظر فى القرآن والحديث .

يقول نظامى العروضى فى كتابه (جهار مقالة) (٢) : « لا يبلغ كلام الكاتب درجة عالية حتى يأخذ من كل علم نصيباً ، ومن كل أستاذ نكتة ، ويسمع من كل حكيم لطيفة ، ويقتبس من كل أدب طرفة ، فينبغى أن يعتاد قراءة كلام رب العزة ، وأحاديث المصطفى ، وآثار الصحابة ، وأمثال العرب ، وكلمات العجم ، ومطالعة كتب السلف ، والنظر فى صحف الخلف ، مثل ترسل الصاحب ، والصابى وقابوس ، وألفاظ الحمَّادِى وإمامى وقُدامة بن جعفر ، ومقامات بديع الزمان والحريرى وحميد ، وتوقيعات البَلْعَمِى وأحمد بن الحسن ،

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٦٨

(٢) المقالات الأربع .

ورسائل عبد الحميد . ومن دواوين العرب ديوان المتنبى والإِبِيَوَردى والغَزِّى ، ومن شعر العجم شعر الأَزرقى وَمثْنَوِى والفردوسى ... الخ » .

٣ — فلا غرابة فى أن تدفقت الأَلفاظ العربية على الفرس ، وامتلأَت بها لغتهم ، ولا سيما المؤلفات العلمية والأَدبية .

والملاحظ أَن الأَلفاظ العربية فى اللغة العلمية أَكثر من الأَلفاظ العربية فى اللغة الأَدبية ، وأَنها فى النثر أَكثر منها فى الشعر ؛ لأَن النثر العلمى قائم على المصطلحات العربية ، أَما النثر الأَدبى فوسط بين النثر العلمى والشعر ، لكن يندر أَن تتلاحق فى الشعر ثلاثة أَبيات ليس فيها لفظ عربى (١) .

ولقد بلغت الأَلفاظ العربية فى بعض الكتب الفارسية من خمسين إلى ثمانين فى كل مئة ، حتى كادت الكلمات كلها تكون عربية مرتبة على قواعد النحو الفارسى .

ولم يقتصر الفرس على اقتباس أَلفاظ كثيرة من العربية ، بل اقتبسوا كثيراً من العبارات الكاملة ، سواء أَكانت من القرآن الكريم والحديث الشريف أَم من الحكم والأَمثال العربية .

على أَن العربية حينما تأَثرت بالفارسية لم تنقل منها إلا مفردات كما سبق فى الباب الأَول .

ومن هنا يتضح أَن الكلمات الفارسية فى العربية قليلة جداً بالقياس إلى الكلمات العربية فى الفارسية ، وأَنها قليلة أَيما قلة بالنسبة إلى الكلمات العربية الأَصيلة ؛ لأَن الكلمات الفارسية التى تسربت إلى العربية فى العصر الجاهلى محدودة ، ثم قوى تسربها فى العصر العباسى

---

(١) قصة الأدب فى العالم ١/٤٤١

بخاصة ، لكن العربية كانت آنئذ قد نمت ونضجت ، وصارت قديرة على التعبير عن مطالب الحياة ، فليست بحاجة إلى أن تقتبس من الفارسية إلاّ بعض المفردات ، للدلالة على أشياء لا نظير لها عند العرب .

وقلما نقل العرب عن الفرس كلمات لها نظائر فى لغتهم ، وإن فعلوا ذلك أحياناً لخفة الكلمة الفارسية على ألسنتهم مثل وَرْد بدلا من حَوْجَم ، وتُوت بدلا من فِرْصاد ، ورصاص بدلا من صَرَفان ، أو ليدلوا على معرفتهم بالفارسية ، مثل بُوصِى بدلا من مَلاَّح ، وجَرْدَقة بدلا من رغيف .

ثم إن العرب نقلوا من الفارسية أسماء ، ولم ينقلوا منها حروفا ولا أفعالا ، كما نجد فى المعاجم اللغوية .

وفى شفاء (الغليل) للشِّهاب الخفاجى دليل على أنهم كانوا يتصرفون فى كثير من الأسماء الفارسية التى نقلوها ، فيخضعون نطقها لأوزانهم ، ثم يشتقون منها أفعالا وغير أفعال ، كما اشتقوا من ديوان دَوَّن وتدوين ومُدَوِّن ومَدَوَّن ، ومن لجـام ألجم ومُلْجَم (١) ، ومن كهربا كهربَ ومن مغناطيس مَغْطَسَ إلخ .

٤ — على أن النحو الفارسى لم يسلم من التأثُّر بالنحو العربى ، كحذف الفعل من بعض الجمل الفارسية ، أو تقديمه محاكاة للنحو العربى ، أو صوغ فعل مبنى للمجهول على الطريقة العربية ، أو استعمال الحال كما هو فى النحو العربى (٢) .

---

(١) اللجام فارسى معرب . القاموس المحيط مادة لجم

(٢) الأدب المقارن ٣٤٣

(٥)
فى النثر الفنى

وجد الفرس فى الأدب العربى مثلهم الذى يحتذون ، ومعينهم الفياض الذى ينهلون منه ، فنقلوا من العربية إلى الفارسية كثيراً من الكتب ورسائل البلغاء ، ونصحوا بدراستها وتذوقها واحتذائها ، ومن هنا تأثر نثرهم الفنى بالنثر العربى أيما تأثر .

١ — الرسائل

حاكى الفرس بلغاء الكتاب ، وظهرت هذه المحاكاة فى الرسائل الديوانية والخاصة التى كتبوها على غرار رسائل عبد الحميد بن يحيى وخلفائه ، فنرى فيها احتفالا بالمقدمات وبالخواتيم ، وحرصاً على الإطناب ، وعناية بالصياغة ، وإكثاراً من الاستشهاد ، وحفاوة بالسجع والمحسنات حتى فى الكتب التاريخية ، كما كان يفعل بعض مؤرخى العرب ، ويتضح هذا فى كتاب (التوسل إلى الترسل) الذى ألفه وجمعه بهاء الدين محمد البغدادى فى القرن السادس الهجرى .

٢ — القصص

استمد الفرس من التاريخ العربى والإسلامى ومن الشخصيات العربية والإسلامية بعض قصصهم .

(أ) فنى الأدب الفارسى قصص نثرية وشعرية موضوعاتها عربية خالصة ، منها حكايات حاتم الطائى للسعدى الشيرازى ، وقصة ليلى والمجنون للنظامى والجامى وهاتفى ، وحكايات وتمثيليات تَعْرِضُ لحلم معاوية وعدل عمر بن عبد العزيز وجور الحجاج ، ومنها القصص

الشعبية الكثيرة التى كانت السبب فى ظهور المسرحية المذهبية المعروفة فى الأدب الفارسى بالتعزية .

ومنها الحكايات التى تَعْرِضُ صوراً من حياة الرشيد والمأمون والمتوكل .

(ب) وفيه كثير من الحكايات العربية مترجمة إلى الفارسية مثل حكايات الفرج بعد الشدة .

(ج) وإذا كان ابن المقفع قد ترجم من الفارسية إلى العربية أكثر مافى كليلة ودمنة ، فإن الأصل الذى نقل عنه كان مفقوداً ، فترجم الفرس هذا الكتاب فيما بعد من العربية إلى الفارسية ، ترجم نثراً فى عهد الأمير نصر بن أحمد السلمانى (٣٠١ — ٣٣١ ﻫ) ووزيره أبى الفضل البلعمى ، ثم نظمه شعرا أبو جعفر الرودكى فى أوائل القرن الرابع ، وما تزال بعض قطع من هذه الترجمة متفرقة فى كتب اللغة والمعاجم .

وهناك ترجمة كاملة باقية إلى اليوم هى ترجمة نظام الدين أبى المعالى نصر الله بن محمد بن عبد الحميد الكاتب التى قام بها امتثالا لأمر بهرام شاه الغزنوى سنة ٥٣٩ ﻫ وجعلها باسمه ، فاشتهر الكتاب باسم (كليلة ودمنة بهرام شاه) .

ويبدو فى هذه الترجمة تأثر الأسلوب الفارسى بالعربى فى تراكيبه المختلفة (١) .

---

(١) القصة فى الأدب الفارسى ٣٢٠ للدكتور أمين عبد المجيد .

٣ ـ المقامات

كذلك حاكى الفرس العرب فى فن المقامة (١) ، والمقامة فن عربى النشأة ، مازال يتدرج ويرقى حتى اكتمل على قلم الحريرى .

(أ) وقد ذهب بعض الباحثين (٢) إلى أن كتاب العرب نقلوا فن المقامات عن الفرس ، مستدلين بأن بديع الزمان الهمذانى كان يجيد الفارسية ، وكانت حياته فى بيئة فارسية ، فى وقت كانت الدولة السامانية فى خراسان وتركستان ، والبويهية بفارس والعراق ، والغزنوية فى أفغانستان تتنافس فى إنهاض الأدب الفارسى وتشجيعه ، ومن هنا استطاع بديع الزمان أن يكتب مقاماته فى نيسابور .

لكن هذا الرأى يعارضه أن ابن دُرَيْد الأزدى قد سبق بديع الزمان ، فابتكر نوعاً من الأدب اشتقه من الحياة الفارسية ، إذ أنه عاش هناك مدة ، وكان غرضه من الأربعين حديثاً التى ابتكرها أن يعارض بها أدب الفرس ، فهو مخترع المقامات باللغة العربية ، وإن كانت موضوعاتها من البيئة الفارسية ، وكان بتأثير لغويته أميل إلى الغريب (٣) .

ثم عارضه أبو الحسن أحمد بن فارس العلامة اللغوى (٤) المتوفى سنة ٣٩٥ هـ إذ وضع مقامات حاكاها بعض الأدباء ، وقد اشتهر من

---

(١) المقامة فى الأصل موضع القيام ، وقد استعملت للدلالة على المجلس استعمال الأضداد ، ثم أطلقت على الحديث يقال فى مجلس واحد ، ثم قصرت على نوع من الأدب معلوم .

(٢) منهم الدكتور أحمد ضيف فى كتابه العصر العباسى .

(٣) زهر الآداب للحصرى ١/٢٣٥ .

(٤) فى معجم البلدان ٤/٨٠ أنه توفى سنة ٣٦٩ ولكن فى المعجم نفسه ٤/٧٢ ، ٩٣ أنه توفى سنة ٣٩٥ وهذا يتفق مع ما فى وفيات الأعيان وإنباه الرواة ودمية القصر .

بينهم تلميذه بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ . وابن فارس والبديع عاشا فى بيئة فارسية كما عاش ابن دُرَيْد من قبل .

ثم مارس هذا الفن كثير من الكتاب ، حتى جاء الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ فأنشأ مقاماته الخمسين التى عارض فيها البديع ، وتفوق عليه .

وحاول كثير من الذين جاءوا بعد الحريرى أن يقتفوا أثره فلم يلحق به أحد .

والذى نستخلصه من هذه اللمحة أن المقامات فن عربى النشأة ، وإن كان السابقون إلى اختراعه قد عاشوا فى بيئة فارسية ؛ لأن الفرس لم يكن نثرهم الأدبى قد نضج وازدهر فى ذلك الوقت ، ولم تعرف لهم قصص أو مقامات من هذا الطراز ليحاكيها العرب .

(ب) ولقد تأثر الأدب الفارسى بالمقامات العربية ؛ فإن حميد الدين البلخى المتوفى سنة ٥٥٩ هـ يسير فى مقاماته الفارسية على نهج بديع الزمان والحريرى ، وهو نفسه يقر بهذا فى مقدمة مقدماته ، وإن خالفهما فى عدة أمور ، منها أنه لا يروى عن شخص معين كما روى بديع الزمان عن عيسى بن هشام ، وكما روى الحريرى عن الحارث ابن هَمَّام ، وأن مقاماته لا تدور حول بطل معيّن كما دارت مقامات البديع على أبى الفتح الإسكندرى ، ومقامات الحريرى على أبى زيد السّروجى ، وإنما تحتل شخصية المؤلف المكان الأول ، ويروى الأحداث عن كثير من أصدقائه لم يذكر أسماءهم ، ويتعدد الأبطال فى مقاماته وتتغير أحوالهم.

(٦)

فى الشعر

لم يرد شعر للفرس القدماء فى لغتهم الفهلوية أو الفارسية القديمة ، ومن المرجح أنه كان لهم شعر ، ولكنه توارى فى غياهب الزمان .

وربما كان فقدان الشعر الفارسى القديم هو الذى زين لبعض الدارسين من العرب ومن الفرس أن يعتقدوا أن الفرس القدماء لم يكن لهم شعر .

فمثلا قال الجاحظ : « وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب ، والشعر لايستطاع أن يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حُوِّل تقطع نظمه ، وبطل وزنه ، وذهب حسنه » (١) .

وقال فى موضع آخر : « فى الفرس خطباء ، إلا أن كل كلام للفرس ، وكل معنى للعجم ، فإنما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد رأى ، وطول خلوة .... وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة .... وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع .... وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من قبله ... ونحن إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ، ومن المنثور

(١) الحيوان للجاحظ ١/٧٥

والأسجاع ، فمعنا العلم أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب .... ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التى بأيدى الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة .... »(١) .

وقد سبق فى الباب الأول من هذا الكتاب أن محمد عوفى ذكر فى كتابه (لباب الألباب) وهو أول كتاب فى تاريخ الأدب الفارسى أن بهرام جور أول من نظم شعراً بالفارسية ، وأنه تعلم اللغة العربية والشعر من العرب الذين نشأ بينهم فى الحيرة ، وكان له شعر عربى بليغ ، وذكر المؤلف أنه قرأ ديوان بهرام جور فى مكتبة بخارى ، وحفظ بعضه ، ونقل بعضه (٢) .

وقد أيده فى هذا العالم الفارسى شمس الدين الرازى مؤلف كتاب المعجم (٣) .

كذلك ذكر شمس الدين الرازى فى كتابه (المعجم فى معايير أشعار العجم) أن صناعة الشعر من اختراع العرب ، وأن العجم تابعون لا واضعون ، وناقلون لا مستقلون (٤) .

فلما سطعت شمس الإسلام على ديار العجم واختلط الفرس بالعرب ، وحفظوا أشعارهم ، وعرفوا نظام بحورهم وأوزانهم وقوافيهم ، شرعوا ينسجون على منوالهم لطائف من نتاج طباعهم(٥) ، وقد ظهر هذا واضحا فى القرن الثالث الهجرى .

---

(١) البيان والتبيين ٣/٢٨

(٢) قصة الأدب فى العالم ١/٤٤٨ .

(٣) المرجع السابق ١/٤٥٠

(٤) المرجع السابق ١/٤٤٣

(٥) قصة الأدب فى العالم ١/٤٤٨

وما من شك فى أن الفرس كانوا شديدى الإعجاب بالشعر العربى ، وكانوا يتوخون محاكاته حتى فى شعرهم الذى نظموه بالفارسية فيما بعد ، حتى إنهم نظموا مايسمى بالمُلَمَّع ، وهو القصيدة التى يعمد فيها الشاعر إلى نظم بيت بالعربية يليه بيت بالفارسية ، أو يفعل عكس هذا ، مراعياً فى الحالين أن تجىء الأفكار مترابطة مسلسلة كأنها بلغة واحدة .

أما الموضوعات التى طرقها شعراء الفرس فإن بعضها محاكاة للموضوعات التى طرقها العرب ، كالمدح والفخر والهجاء والغزل والرثاء والوصف والحكمة .

ويتبين من الموازنة بين الموضوعات العربية والموضوعات الفارسية أن العرب تفوقوا فى الحماسة والبطولة والغيرة والجرية والتكرم والمخاطرة وأشباهها ، كما فاقوا فى تصوير أحوال المجتمع والأسرة ومظاهر الحضارة ، وفى الإكثار من الغزل بالمرأة وإعزازها وحمايتها والشوق إليها ، والعفة التى تتسامى بالحب العذرى عن حاجات الجسد .

أما الفرس فإنهم فاقوا فى عدة موضوعات ، كالقصة والشعر الصوفى .

ا — فى المديح

(١) شاع فى المدائح العربية بدؤها بالوقوف على الأطلال ، أو بالغزل التمهيدى ، وكان لهذا البدء الغلبة على كثير من الشعراء منذ العصر الجاهلى إلى أوائل العصر الحديث (١) .

على أن كثيراً من قصائد المدح مبدوءة بالمدح نفسه ، أو بما يتصل به ، وبعض مدائح أبى نواس مبدوءة بوصف الخمر ومجالسها .

---

(١) راجع (الغزل فى العصر الجاهلى) للمؤلف .

١ — ولقد حاكى شعراء الفرس النهج العربى الشائع ، فبدأوا مدائحهم بالغزل وبكاء الأطلال ، ثم انتقلوا إلى المدح ، كما كان يفعل الشعراء العرب .

من الأمثلة على هذا أن الشاعر الفارسى (منوجهرى) المتوفى أوائل القرن الخامس الهجرى مدح عظيما من عظماء عصره ، فبدأ قصيدته ببكاء الطلل الذى وقف عليه ، وصور ضيق نفسه بهجر محبوبته ، ثم وصف الرحلة التى تسلى بها على ظهر ناقته ، ثم تصور أنه لقى ركب المحبوبة وصواحبها ، فرحب بهن ، وعقر لهن ناقته ، وبعد هذا ركب هو ومحبوبته فى هودج واحد ، فشعر بأن مركبه الثريا والسماك لا نجيبة من النياق ، ثم تخلص من هذا كله إلى المدح .

ولا شك أن النهج العربى واضح هنا أيما وضوح ، وأن صور امرئ القيس فى مطولته (قفانبك) تعلن عن نفسها فى قصيدة الشاعر الفارسى .

٢ — وحاكوا بعض شعراء العربية فى المبالغات والإشادة بالممدوح ووصفه بالفضائل من سخاء وشجاعة وبراعة فى تدبير شؤون الحكم ، بل زادوا عليهم وتجاوزوهم .

وهم فى هذا يشبهون معاصريهم من شعراء العربية ؛ لأنهم كانوا مثل الشعراء العرب على صلة بأمراء الدويلات وولاتها ، وكان هؤلاء الأمراء يتنافسون فى تقريب الشعراء والأدباء ، ويجزلون لهم العطايا والمنح ، ليشيدوا بذكراهم ، ويرفعوا من قدرهم ، ويسجلوا مآثرهم .

وقد جهر الشيخ أبو ذراعة الجرجانى بأن العطايا هى التى تلهم المدح الرائع ، إذ سأله أمير خراسان : أتنظم شعراً مثل شعر الرودكى ؟ فأجاب : إن حسن نظمى يفوق حسن شعره ، ولكن من الواجب أن

تصل الشاعر بإحسانك ، وتمده بعطائك ، حتى يصبح مرضيا عنه من معاصريه ، فإن الشاعر لا يظهر أمره إلا حين يصله ممدوحه ببره وينظر إليه بعين رضاه ، ثم أنشد أبياتاً فى هذا المعنى ختمها بقوله : أعطنى واحداً من ألف مما نال الرودكى من عطايا الملوك يأتنى شعر مثل شعره ألف مرة .

ومن مدائحهم قول أبى منصور عمارة المروزى فى مدح السلطان محمود الغزنوى :

إن النور البادى على جبين الشمس منبعث من كف الملك ، وإن كرمه أظهر لى كوكب السعد سُهَيْلا على جبينى ، ولو ذكر أحد اسمه على شواطىء دجلة لصار ماؤه عسلا مُصَفًّى ، ولاستحال طينه عسَلَ وَرْد (١) .

ومنها قول منصور بن على المنطقى الرازى فى مدح الصاحب بن عبَّاد .

ليت شعرى هل مرض قمر السماء ؟ إنه يئن ويشكو ، وجِرْمه آخذ فى النقصان ، لقد كان تُرْسُ الخالق فِضِّىَّ اللون ، أما الآن فقد بدا فى السماء كأنه طرف الصولجان ، حتى خُيِّلَ إليك أن جواد الصاحب انطلق فى الصحراء ، فألقى نعله الذهبى فى كبد السماء (٢) .

ومنها قول أبى بكر محمد الخسروى السَّرَخْسِى الحكيم يمدح الأمير ناصر الدولة أبا الحسن محمد بن إبراهيم :

---

(١) قصة الأدب الفارسى ١٦٥

(٢) المرجع السابق ١٥٥

له همة علت حتى إنك لتحسب أن السماء من تحتُ كالكَسْرة وأن همته من فوقُ كالفَتْحة .

لقد صار هو القضاء ، وأعداؤه الحذَرَ ، وفى حكم القضاء الحذر سبيلُ الفناء .

وإذا دان الفلك قد سَلَّم الأمر إليه فلا تعجب ، فإن قَدَمَ همته مِجَنُّ الفلك . وإن حلمه والطود متحدان فى النسبة ، وإن الموت وبأسه من معدن واحد ، ومكرماته بالنوع باقية حقاً ، . فالنوع باق والشخوص تزول (١) .

والمبالغات بينة فى هذه المدائح ونظائرها ، لأن الفرس ميالون إلى المبالغة ، ولهذا كثرت فى الشعر العربى بعد الاتصال الوثيق بالفرس فى العصر العباسى ، ثم عاد الفرس فتأثروا بما أعطوه ، وزادوا عليه .

ب — فى الغزل

أما شعراء الغزل فقد افْتَنُّوا فى وصف المحبوب ، وأكثروا من التشبيهات والمبالغات ، وكان كلفهم شديداً بوصف الطُّرة والشعر المجعَّد ، فشبهوا الطرة بالعقارب ، وبالأحرف الهجائية المقوسة ، وهى الجيم والعين والنون .

كذلك أكثروا من العتاب وتصوير حال العاشق وما يعانيه من أسى وحزن إذا هجره معشوقه .

من الغزل قول أبى شكور البلخى : نظرتُ من بعد لأراك فَجَرَحْت

(١) المرجع السابق ١٥٨

وجنتك المشرقة بالحسن واللاحة ، فلما نظرتَ إلىّ بعينك العليلة جرحتَ قلبى ، وهذا قصاص عادل ، لأن الجرح بالجرح . . .

وقد سبق فى دراسة تأثير الفرس فى الأدب العربى أن اللغة الفارسية لا تفرق بين المذكر والمؤنث فى الضمائر وأسماء الإشارة ، وإنما يتضح المراد بالسياق ، وأن بعض الدراسين ذهبوا إلى أن العرب نقلوا الغزل بالمذكر عن الفرس ، وسبق الرد عليهم بأن الغزل بالمذكر نشأ نتيجة لمؤثرات اجتماعية كان لأبناء الفرس فيها النصيب الأكبر ، فهو لم ينشأ محاكاة للأدب الفارسى ، بل نشأ بتأثير هذه العوامل ، وبتأثير الفرس الذين عاشوا فى المجتمع العربى ، وقرضوا الشعر العربى .

ج — فى الخمريات

أكثر شعراء الفرس من وصف الخمر ، وآثارها فى النفس ، وجاء فى وصفهم كثير من التشبيهات الطريفة والمعانى الجديدة ، والغلو والإغراق فى المبالغة ، فهم متأثرون بالعرب ونَقَلة عنهم ، لكنهم زادوا على مانقلوا ، وأضافوا جديداً .

من الأمثلة على هذا قول أبى شكور : إن الخمر حين يعصرها البستانى سائل مشوق أو روح مشرقة ، وإن الأعمى لو رأى قطرة منها لقال : هذه عينى ، ولو رآها الميت لقال : هذه روحى ، وإنها حين تُصَبُّ من القنينة فى الكأس تشبه الهلال ، وحين تستقر فى الكأس تشبه البدر .

ومنها قول الرودكى : إن تأثير الخمر يبلغ أعالى المخ قبل أن تذاق ، وإنها لو سقطت قطرة منها فى نهر النيل لظل التمساح ثملا من رائحتها

مئة عام ، وإن الغزال لو شرب قطرة منها لصار أسدا عربيدا لايكترث بالفهد.

ويبدو أن ولعهم بالخمر راجع إلى غنى بيئتهم بالبساتين الفيحاء ، والحدائق الغناء الحافلة بالفواكه والأزهار والثمار التى تعتصر منها الخمر . .

على أن بعضهم كان يرمز بالخمر إلى المحبة الإلهية ، وهم المتصوفة من الشعراء (١) .

د — فى الشعر القصصى

تأثر الفرس بالعرب فنقلوا كثيرا من قصصهم القديمة وقصصهم الإسلامية ، ولكنهم فاقوا العرب فى شعرهم القصصى ، فطالت بعض قصصهم ، وتداخل بعضها فى بعض ، وتولد بعضها من بعض .

من قصصهم التاريخية الشاهنامة التى نظمها الفردوسى فى نحو خمسة وخمسين ألف بيت من البحر المتقارب والقافية المزدوجة ، فى تاريخ الفرس القدماء وأساطيرهم حتى نهاية الدولة الساسانية والفتح العربى . .

ومن السهل أن يلاحظ الدارس للشاهنامة أنها مصبوغة بالصبغ الإسلامى العربى فى كثير من مظاهرها ، لأن أكثر ملوكها وأبطالها من الموحدين المؤمنين بالله واليوم الآخر وبقضاء الله وقدره ، ولأن الصورة التى بها لجمشيد — فى تسخير الجن فى نحت الأحجار وتخمير الطين وتشييدا البناء ، وفى ركوبه متن الهواء على تخت ، وفى ثرائه العريض

(١) المرجع السابق ١٨٢

وملكه الواسع — قوية الشبه بالصورة القرآنية لسليمان عليه السلام .
وهذه الصورة الفارسية ليست منقولة من التوراة ، لأن السفرين اللذين يتحدثان عن سليمان فى العهد القديم ليس بهما شىء من تسخيره الجن والريح ، كذلك ليس بهما شىء عن قصة الهدهد مع ملكة سبأ ، وإنما نجد فى الإصحاح العاشر من سفر الملوك الأول والإصحاح التاسع من أخبار الأيام الثانى أن ملكة سبأ تسمع بسليمان فتذهب إلى أورشليم فى موكب عظيم ومعها هدايا كثيرة لتمتحنه ، ثم تعود إلى بلادها .

وقد أوحت قصة الهدهد هذه إلى فريد الدين العطار ملحمته الصوفية (منطق الطير) حتى إنه جعل عنوانها من قول القرآن الكريم على لسان سليمان : « ياأيها الناس علّمنا منطق الطير » (١).

وصارت قصة سليمان وتسخيره الجن على النحو الذى ورد فى القرآن الكريم مَعينا لقصص الجن والطلاسم والقماقم فى الأدب الفارسى ، كما صار الهدهد شخصية قصصية لاتقل وضوحاً عن الخضر وذى القرنين (٢) .

ومن قصصهم الغرامية يوسف وزليخا للفردوسى ، ويوسف وزليخا للجامى ، وخسرو وشيرين (كسرى أبرويز وحظيته شيرين) وليلى والمجنون التى نظمها الشعراء نظامى وخسرو الدهلوى والجامى ومكتبى الشيرازى ونامى (٣) .

---

(١) سورة النمل ١٦
(٢) القصة فى الأدب الفارسى ٢٨٦
(٣) قصة الأدب فى العالم ٤٧٣/١

هـ — شعر التصوف

كذلك أقبلوا على شعر التصوف ، فأكثروا من الحديث عن معرفة الخالق ومحبته ، وعن الفناء المؤدى إلى وحدة الوجود .

وهم يلجأون إلى ألوان من التصوير ، وضروب من الحقيقة والمجاز والتصريح والكناية والوضوح والخفاء ، كقول العطار : « العشق نار ، والعقل دخان ، فإذا جاء العشق ولى العقل هارباً » . وقول جلال الدين الرومى : « العشق أن تنظر إلى السموات ، وتمزق كل لحظة مئة حجاب ، وأول خطواته أن تهجر الحياة » . وقول حافظ : « كم فى الطريق إلى منزل ليلى من أهوال وأخطار ، شرط أول خطوة أن تكون المجنون » . . وقول أبى سعيد : « جسمى كله ألم ، وعينى كلها دمع من أجلك ، وإنما يعاش بغير جسم فى عشقك ، لم يبق منى أثر ، فما هذا العشق ؟ صرت كلى معشوقاً ، فمن العاشق لك (١) ؟ .

د — فى بكاء الآثار

بكى بعض العرب مدنهم التى انتزعها منهم أعداؤهم ، وبكوا مجدهم الدائر ، فى كثير من قصائدهم بالمشرق والمغرب .

وقد حاكى الفرس العرب فى بكاء الآثار ، فللشاعر خاقانى المتوفى فى القرن الخامس الهجرى قصيدة وقف فيها بإيوان كسرى ، واستلهمه الحكمة والموعظة ، وبكى مجد الفرس الدائر .

وشبيه بهذا بكاء البلدان التى خربتها الحروب ، مثلما بكى

---

(١) قصة الأدب الفارسى .

حميد الدين بلخى المتوفى فى القرن السادس مدينة بلخ ، وذرف الدموع على خرائبها وعلى أصدقائه ، وهو يحاكى هنا بنثره على لسان صديقه مافعله الحريرى من قبله إذ بكى على لسان أبى زيد السروجى بلدته سَرُوج التى خربها الصليبيون سنة ٤٩٤ هـ ، وإن كان الحريرى قد بكى شعراً فى المقامة الثلاثين .

ز — فى الأوزان والقوافى

كذلك نشأ العروض الفارسى محاكياً للعروض العربى فى دوائره وبحوره ومصطلحاته ، وإن آثر شعراء الفرس بعض الأوزان العربية ، لأنها أكثر طواعية فى لغتهم ، وأقرب إلى طباعهم ، وزادوا على بعضها الآخر ، ونقصوا منه ، ولكن بعض التغيير فى بعض الأوزان لاينفى أن الشعر الفارسى قائم على أوزان عربية .

وهذا هو السبب فى أن شمس الدين محمد بن قيس الرازى مؤلف كتاب (المعجم فى معايير أشعار المعجم) ألفه فى العروضين معاً ، وكتبه بالعربية ، واختار أمثلة منها ومن الفارسية ، ثم لامه بعض أدباء الفرس ، فقسم كتابه قسمين : أحدهما (المعجم فى معايير أشعار العرب) ، والآخر (المعجم فى معايير أشعار العجم) لكنه بعد هذا التقسيم اضطر وهو يتكلم فى العروض الفارسى أن يستند إلى شرح العروض العربى ، لأن صناعة الشعر — كما قال المؤلف نفسه — من اختراع العرب ، والعجم فى كل الأبواب تابعون لاواصفون ، وناقلون لامستقلون (١) .

---

(١) قصة الأدب فى العالم ٤٤٣/١

ونستطيع أن نلخص التعديل الذى أدخله الفرس على الأوزان العربية وعلى القافية فى عدة أمور :

١ ـ أضافوا إلى البحور الستة عشر المعروفة فى الشعر العربى ثلاثة أبحر سموها الغريب والقريب والمشاكل .

٢ ـ أطالوا بعض الأوزان ، فأجازوا فى بحر الرمل ـ وهو فى العروض العربى ستة أجزاء أو أقل ـ أن يكون من ثمانية أجزاء .

٣ ـ تصرفوا فى بعض الزحافات والعلل تصرفا أدى إلى توليد أضرب مستقلة عن الأوزان العربية ، كما نجد فى الرباعى .

٤ ـ لم ينظموا إلا قليلا فى بعض البحور العربية التى أكثر منها العرب كالطويل والكامل والمديد والوافر والبسيط ، وأكثروا من النظم على البحور التى قلل منها العرب ، كالمجتث والمضارع والمقتضب .

وهنالك بحور أكثر منها الفرس والعرب على السواء كالهزج والرمل والخفيف والمتقارب .

٥ ـ أما القافية فقد حاكوا العرب فيها ، ونقلوا عنهم مصطلحاتها ، إلّا أنهم أكثروا من القافية المزدوجة وسموها المثنوى (١) ، وأكثروا من الدوبيت (٢) أى الرباعى ، وخالفوا نظام الموشحات العربية وسموها بَنْد (٣) .

٦ ـ التزموا القافية فى القصيدة كلها أوفى مقاطع منها .

---

(١) المثنوى : نسبة إلى مثنى ، أى يتفق كل شطرين فى الروى ، كما نجد فى الشاهنامة

(٢) دوبيت : من أربعة أشطر تتفق فى الروى فى الأول والثانى والرابع ، وينفرد الثالث غالباً وهو الذى انتقل إلى العربية باسم دوبيت .

(٣) البند : منظومة مقسمة إلى أقسام فى كل قسم أبيات متفقة فى الروى تختم ببيت مستقل يكرر بعد كل قسم ، فيسمى النظم ترجيعاً ، أو يكرر رويه فقط فيسمى النظم تركيبا ، وهو شبه الموشح العربى .

(٧)
في البلاغة

اعتمد الأدب الفارسى فى نشأته على الأدب العربى ، واستظل بظله وحاكاه فترة من الزمن طويلة .

فمن الطبيعى أن يحاكيه فى ضروب بلاغته .

وقد شهد بهذه المحاكاة علماء من الفرس ، قال دولتشاه فى كتابه (تذكرة الشعراء) إن للعرب الفصاحة والبلاغة ، وإن الفرس اتبعوهم فيهما .

ويبدو هذا التأثر واضحاً فى كتاب (ترجمان البلاغة) للشاعر فَرُّخى المعاصر للفردوسى . وفى كتاب (حديقة السحر فى دقائق الشعر) لرشيد الدين الوطواط العمرى (المتوفى سنة ٥٥١ هـ ١١٥٦ م) ، فإن فى الكتابين محاكاة للبلاغة العربية ، وتطبيقاً لأدب الفرس عليها ، واستشهاداً بأمثلة عربية شتى (١) .

لذا صارت التشبيهات والاستعارات والكنايات والمجازات والمحسنات اللفظية والمعنوية مثل العربية .

وأكثر كتاب الفرس وشعراؤهم من الحلى اللفظية والمعنوية التى أولع بها كتاب العربية وشعراؤها منذ القرن الثالث .

ونقل الفرس أصول البلاغة العربية ومصطلحاتها ، فكانت مؤلفاتها لاتغاير المؤلفات العربية إلا فى القليل .

---

(١) قصة الأدب فى العالم ١/٤٤٢

(٨)

فى الحروف الهجائية

على أن الفرس كتبوا لغتهم — وما زالوا يكتبونها إلى اليوم — بالحروف الهجائية العربية ، كما كان الأتراك يفعلون إلى العقد الثالث من القرن العشرين .

ولا شك أن كتابة الفرس لغتهم بالحروف العربية كان من الوسائل التى سهلت على اللغة العربية أن تؤثر آثارها العظيمة فى اللغة الفارسية ، لأن معرفتهم الحروف العربية سهل عليهم قراءة الكتب العربية فى اللغة والأدب والعلوم .

خاتمة المطاف

— ١ —

تبين من هذه الدراسة أن عزلة العرب عن العالم المحيط بهم فى العصر الجاهلى تصوير تعوزه الصحة والدقة ، فقد كانوا على صلات بالفرس وبغيرهم ، بالجوار وبالتجارة وبالرحلات وبالحروب وبالمحالفات السياسية .

وكان اتصال العرب بالفرس فى العصر الجاهلى وسيلة لتأثر العرب بهم ، وتأثيرهم فيهم ، ولكن هـذا كان فى نطاق ضيق محدود .

فلما أشرق الإسلام ، وفتح العرب بلاد الفرس ، تعددت وسائل الاتصال ، وتنوعت طرائق الأخذ والعطاء ، فصار تبادل التأثير والتأثر أوسع نطاقا ، وأعمق أغواراً ، وأوضح معالم ومظاهر .

— ٢ —

واستبان أن العرب أخذوا من الفرس كثيرا ، وأعطوهم كثيرا ، بل إنهم فى الإسلام أعطوا أكثر مما أخذوا ، ونفعوا أكثر مما انتفعوا .

وليس يعيب العرب أنهم نقلوا من الفرس ، ولا ينتقص الفرس أنهم أخذوا عن العرب ، وما يحق للعرب أن يمنوا على الفرس بما أعطوهم ، ولا للفرس أن يمتنوا على العرب بما أولَوْهم .

فإن الأمم كانت وما زالت تتبادل النظم والثقافات كما تتبادل السلع والمخبرات ، بل إن المعرفة تتنقل بسلطانها الذاتى من صُقْع إلى

صقع ، ومن شعب إلى شعب ، كما تتنقل السحائب والرياح ، لاتصدها عوائق ، ولا تردها حواجز .

وإذا كانت النظم والأفكار والثقافات المنقولة أو المنتقلة تنطوى على خير وعلى شر ، وعلى نافع وعلى ضار ، فإن الاتصال الوثيق الطويل الأجل ليس من شأنه أن يكفل الخير الخالص والنفع المحض ، وإنما ينقل من هذا ومن ذاك .

— ٣ —

على أننا لانستطيع أن نصف تأثر الأدب العربى بالفرس بأنه تطور أو تغير فى الجوهر ، لأن الفرس لم يضيفوا إلى أبواب الشعر العربى جديداً سوى المشاركة فى الغزل بالمذكر ، والتوسع فى الغزل المكشوف ، وما يتصل بالزندقة والإلحاد ، ولا تعد هذه أنواعا جديدة فى الشعر ، فقد بقى الشعر العربى غنائياً كما كان .

وأما بناء القصيدة العربية فقد استمر بعد الاتصال بالفرس كما كان فى العصر الجاهلى ، حتى إن الشعراء من أبناء الفرس اقتفوا آثار العرب ، فنظموا الشعر العربى على الأوزان العربية ، والتزموا القافية ، وعددوا موضوعات القصيدة ، ولم يخرجوا على نظامها المألوف ، فلم يستطع أبو نواس وهو الذى سخر ممن يفتتحون قصائدهم بالغزل والوقوف على الأطلال أن يتحرر من الغزل فى مطالع قصائده كلها ، بل بدأ بعضها بالغزل وبكاء الأطلال .

كذلك لم يستطع الكتاب من أبناء الفرس أن يصبغوا النثر العربى بصبغ فارسى ، ولم يستطيعوا أن يخرجوا به على نسقه الأصيل ، وإذا كانوا قد أضافوا إلى ثروته بما نقلوه إليه من قصة وتاريخ وحكَم ،

وبما أضافوه إليه من مظاهر شكلية بعضها مستملح وبعضها مستقبح ، فإن جوهره بقى عربياً لم يمسسه من التعديل أو التغيير قليل ولا كثير.

وقد سبق أن المقامات فن عربى النشأة ، لافارسى النشأة ، كما ذهب بعض الدارسين .

وسبق أن التوقيعات أصيلة فى أدبنا العربى ، وأن النثر الفنى نشأ نشأة عربية خالصة قبل أن يتصل العرب بالفرس اتصالا أحدث آثاره فى اللغة والأدب .

— ٤ —

ثم إن الفرس حينما خالطوا العرب وأثروا فيهم خلطوا عملا صالحاً بأعمال سيئات ، فقد أضافوا إلى اللغة العربية كثيراً من المفردات ، وزادوا على الأدب العربى بعض الموضوعات ، وولدوا طرائف من المعانى والخيال ، ونافسوا العرب فى المنظوم والمنثور ، وأغنوا الثقافة العربية بمئات المؤلفات فى شتى العلوم ، ونقلوا إلى الإدارة والسياسة بعض النظم الجديدة وهذا حسن كله ، ولكن بعضهم كانوا معاول تخريب فى صرح العروبة ، لأنهم نكبوا العرب بالشعوبية ، وقوضوا ملكهم بالثورات الانفصالية ، والدويلات المستقلة ، وجرأوهم على الزندقة ، والاستكثار من الأدب المكشوف ، والولوع بالترف ، والهيام بالجوارى والقيان والكلف بالخمر والغزل بالغلمان .

— ٥ —

أما تأثير العرب فى الفرس فقد كان خيرا كله ، إذ سما بهم إلى الإسلام والتوحيد الخالص ، رزودهم بما يحمل الإسلام من خيرات إلى القلوب والعقول ، وبما يكفل من سمو فى الأخلاق ونظم الاجتماع .

وأغنى لغتهم الفارسية بكلمات كثيرة جداً من العربية ، وبجمل وعبارات كاملة ، فتأثر تركيب الجمل الفارسية بالتركيب العربي فى بعض نسقه وأوضاعه .

ومدَّ نثرهم الفنى بألوان ظهرت فيا كتبوه فى التاريخ والقصة والمقامة والرسائل الفنية .

وهداهم إلى اقتباس أوزان الشعر العربى وقوافيه ومصطلحاته العروضية ، وإلى محاكاة العرب فى بناء القصيدة ، وفى كثير من الموضوعات .

ثم إنه أغناهم بقواعد البلاغة العربية ومصطلحاتها ، فصارت بلاغة الفرس محاكية لبلاغة العرب ، وترددت فى الأدب الفارسى معان وأخيلة عربية كثيرة .

كذلك زودهم بالحروف العربية التى كتبوا بها لغتهم ومازالوا يكتبون .

— ٦ —

فلم يكن عجباً أن تغلبت اللغة العربية على الفارسية ، فتوارت إلى القرن الرابع .

وحينما جدَّ الفرس فى بعثها منذ القرن الثالث عجزوا عن تصفيتها من آلاف الكلمات العربية ، وعن تخليتها من الأنماط الأدبية العربية ، ولم يستطيعوا أن يتنكروا للأوزان الشعرية والقافية وضروب البلاغة عند العرب ، ولا أن يصطنعوا لكتابة لغتهم حروفاً غير العربية التى مازالوا يكتبون بها لغتهم إلى اليوم .

— ٧ —

ولقد ثبت أن العرب الخلّص أنشأوا بعض العلوم إنشاء ، وأنهم ابتكروا ابتكاراً غير مسبوق ، وأنهم ساهموا بنصيب عظيم فى النهضة العلمية والثروة التأليفية على مختلف العصور .

كذلك تبين أنهم سنوا كثيراً من نظم السياسة والإدارة قبل أن ينقلوها عن الفرس أو الروم .

وهذا دليل على أن العقلية العربية ليست عقيما كما زعم بعض المستشرقين ، بل هى ذكية متفتحة وَلُود ، ودليل أيضاً على أن الفضل فى ازدهار العلوم ليس مقصوراً على الأعاجم وأبنائهم كما ادعى بعض الدارسين .

وهو دليل على أن الحضارة العربية لم تكن من بناء الأعاجم ، فقد كانت للعرب حضارة قبل الإسلام ، ثم خمدت جذوتها ، فلما بزغ الإسلام أضاء لهم ، وغذى قلوبهم وعقولهم ، فحفزهم حفزاً ، وسما بهم سموا ، فكانت حالهم فى صدر الإسلام خيراً منها فى العصر الجاهلى ، وكانت أحوالهم فى العصر الأموى أرقى من أحوالهم فى صدر الإسلام ، وهم حينئذ لم يكونوا قد نقلوا عن الأعاجم شيئاً ذا خطر ، ثم جاء العصر العباسى فتضافرت عوامل كثيرة على إعلاء صرح الحضارة ، منها أن العرب متأثرون بالإسلام وبنهضتهم قبل العصر العباسى ، ومنها استعدادهم الطبيعى للترقى والعلاء ، ومنها اقتباسهم من الفرس والروم واليونان وغيرهم ماوجدوا فى اقتباسه خيراً لهم ولدولتهم .

وأعتقد أنه قد آن لخصوم العرب أن يكفوا عن التهجم والافتراء ، فإن الحقائق تكذبهم ، والمنصفين من غير العرب يشيدون بعظمة العرب .

وإنه لحتم على كل باحث عربى أن يجلو مفاخر قومه فيما يدرس ، وأن يفند دعاوى الخصوم ويبطل أكاذيبهم معتمدا على الحق الذى لا تشوبه عصبية ولا جحود .

وعلى العرب أن يتعرفوا ماضيهم العظيم فى موكب التاريخ ، وأن يثقوا بأنفسهم وبسلفهم ثقة البصير الحريص على تراثه ، المعتز بماضيه ، المتطلع إلى مستقبل مشرق وضاء .

— ٨ —

وما من شك فى أن اللغة العربية استطاعت بثرائها ومرونتها أن تتسع لفنون الأدب وضروب العلم ، وأن تسع كل ماأدخله عليها أبناء الفرس والذين تأثروا بهم من العرب ، ولكنها كانت فى هذا كله سليمة البناء ، وطيدة الخصائص ، فلم تفقد شيئاً من مقوماتها ، ولم تنطبع بغير طابعها ، على حين أن الفارسية انطبعت بالطابع العربى فى جوهرها وفى مظاهرها .

وشبيه بهذا احتفاظ العربية بخصائصها حينما اتصلت بفلسفة اليونان وعلومهم ، وحينما اتصلت بأوروبا فى العصر الحديث ، فإنها أثبتت قدرتها على الاستيعاب والنماء والتطور والثراء ، وستظل كذلك قوية نامية إلى ماشاء الله .

المراجـع

مرتبة ترتيبا هجائيا

١ ـ الآثار الباقية . البيرونى ليبسك ١٨٧٨ م .

٢ ـ الإتقان فى علوم القرآن . السيوطى .

٣ ـ الأحكام السلطانية . الماوردى . مطبعة الوطن بمصر سنة ١٢٩٨هـ

٤ ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء . القفطى . مطبعة ليبزج ١٣٢٠ هـ

٥ ـ الأخبار الطوال . الدينورى . تحقيق فلاديمير جرجاس . مطبعة بريل ١٨٨٠ م .

٦ ـ أخبار مكة . الأزرق . المطبعة الماجدية بمكة سنة ١٣٥٢ هـ ومطبعة غتنغة ١٢٧٥ هـ.

٧ ـ أدب السياسة فى العصر الأموى . الدكتور أحمد محمد الحوفى . الطبعة الرابعة دار نهضة مصر .

٨ ـ الأدب الفارسى الإسلامى . (من قصة الأدب فى العالم) بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام .

٩ ـ الأدب المقارن . الدكتور محمد غنيمى هلال .

١٠ ـ أساس البلاغة . الزمخشرى .

١١ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة . ابن الأثير . المطبعة الوهبية بالقاهرة ١٢٨٠ هـ .

١٢ ـ الأسرة والمجتمع . الدكتور على عبد الواحد وافى .

١٣ ـ الأشربة . ابن قتيبة . مخطوط بدار الكتب ١٦٦ مجاميع .
١٤ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة . ابن حجر . المطبعة الشرقية بمصر ١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٧ م
١٥ ـ الأصمعيات . تحقيق الأستاذين أحمد شاكر وعبد السلام هارون مطبعة دار المعارف .
١٦ ـ الأعلاق النفيسة . ابن رسته . مطبعة بريل بلندن ١٨٩١ م .
١٧ ـ الأعلام . الزركلى . الطبعة الثانية .
١٨ ـ الأغانى . الأصفهانى . طبعة دار الكتب وساسى .
١٩ ـ أمالى المرتضى : تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . مكتبة عيسى البابى الحلبى .
٢٠ ـ إنباه الرواة . القفطى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
٢١ ـ انتصار الحضارة . برستد . ترجمة الدكتور أحمد فخرى .
٢٢ ـ إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون ، المعروف بالسيرة الحلبية . على بن برهان الدين الحلبى . المطبعة الأزهرية المصرية ١٣١٩ هـ .
٢٣ ـ أوائل الأوائل . أبو هلال العسكرى . مخطوط بدار الكتب ٢٧٠٥ تاريخ .
٢٤ ـ الأوراق . الصولى . مخطوط بدار الكتب تاريخ ٥٩٤ .
٢٥ ـ أيمان العرب . النجيرمى . مخطوط بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية فى ٧٩١ (١٦٨)
٢٦ ـ البصائر والذخائر . أبو حيان التوحيدى . تحقيق أحمد زين والسيد صقر . مطبعة لجنة التأليف ١٣٧٣ هـ ١٩٥٣ م .

٢٧ — بلوغ الأرب فى مآثر العرب . العطار . مطبعة الطفا بلبنان ١٣١٩ هـ

٢٨ — البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون .

٢٩ — التاج . الجاحظ . تحقيق أحمد زكى باشا . المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٢٢ هـ ١٩١٤ م .

٣٠ — تاج العروس — الزبيدى — طبعةمصر ١٣٠٧ هـ —

٣١ — تاريخ الأدب فى العصر العباسى . السباعى بيومى .

٣٢ — تاريخ الإسلام السياسى الدكتور حسن إبراهيم . الطبعة الثانية ١٩٤٧ .

٣٣ — تاريخ الأمم والملوك . الطبرى . المطبعة الحسينية بمصر .

٣٤ — تاريخ الحضارة الإسلامية . بارتولد . ترجمة الدكتور حمزة طاهر . دار المعارف .

٣٥ — تاريخ الخلفاء . السيوطى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م .

٣٦ — تاريخ الشعوب الإسلامية . بروكلمان .

٣٧ — تاريخ العرب . فيليب حتى . ترجمة محمد مبروك نافع . مطبعة دار العالم العربى بالقاهرة .

٣٨ — تاريخ اليعقوبى . نشرة هوتسما Hautsma

٣٩ — تراث فارس . ترجمة الدكتور محمد كفافى وزملائه .

٤٠ — التنبيه والإشراف . المسعودى . مطبعة الصاوى بمصر ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م .

٤١ — جامع البيان فى تفسير القرآن . الطبرى . المطبعة الأميرية .

٤٢ — الجغرافية التاريخية الاسلامية . محمد أحمد حسونة .

٤٣ — الجمهرة . ابن دريد .

٤٤ — جمهرة أشعار العرب . القرشى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٦ م .

٤٥ — حافظ وشوقى . الدكتور طه حسين .

٤٦ — حديث الأربعاء . الدكتور طه حسين .

٤٧ — الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنيبة . فوق كريمر . ترجمة الدكتور مصطفى بدر .

٤٨ — حضارة العرب . جوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيتر .

٤٩ — الحياة العربية من الشعر الجاهلى . الدكتور أحمد محمد الحوفى . الطبعة الرابعة . دار نهضة مصر .

٥٠ — الحيوان . الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون . الطبعة الأولى .

٥١ — الخراج . أبو يوسف . المطبعة الأميرية ١٣٠٢ .

٥٢ — الخصائص . ابن جنى . مطبعة دار الكتب .

٥٣ — دائرة المعارف الإسلامية .

٥٤ — ديوان ابن الرومى . نشره كامل كيلانى .

٥٥ — ديوان أبى تمام . (١) تحقيق محمد محيى الدين .
(٢) مطبعة صبيح .
(٣) طبعة محمدجمال .

٥٦ — ديوان أبى العتاهية .

٥٧ — ديوان أبى نواس . المطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٨ م ومطبعة التقدم بمصر .

٥٨ـ ديوان الأعشى . نشرة رودلف جيير . مطبعة آدلف هلزهوسن ١٩٢٧ م .

٥٩ـ ديوان أمية ابن أبى الصلت . تحقيق فون سرديريك شلتهتر١٩١١م

٦٠ـ ديوان أوس بن حجر . تحقيق رودلف جيير ١٨٩٢ م .

٦١ـ ديوان بشار بن برد . تحقيق محمد الطاهر بن عاشور . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م .

٦٢ـ ديوان البحترى . مطبعة الجوائب . بالقسطنطينية ١٣٠٠ هـ .

٦٣ـ ديوان حسان بن ثابت . طبعة ليون .

٦٤ـ ديوان الخنساء (أنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء) الأب لويس شيخو اليسوعى . بيروت ١٨٩٦ م .

٦٥ـ ديوان الزمخشرى . مخطوط بدار الكتب ٥٢٩ أدب .

٦٦ـ ديوان طرفة بن العبد . مطبعة برطرند بمدينة شالون ١٩٠٠ م .

٦٧ـ ديوان عبيد بن الأبرص . نشره السير تشارلس ليال .

٦٨ـ ديوان قيس بن الخطيم . تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد . دار المعارف بمصر .

٦٩ـ ديوان لبيد . نشره دكتور هابر Buber . ليدن ١٨٩١ م .

٧٠ـ ديوان المتلمس . مخطوط بدار الكتب ٧٩٨ أدب .

٧١ـ ديوان المتنبى بشرح البرقوقى .

٧٢ـ ديوان النابغة الذبيانى . بشرح البطليوسى . طبعة بيروت .

٧٣ـ رسائل البلغاء . نشرها محمد كرد على . مطبعة البابى الحلبى ١٣٣١ هـ ـ ١٩١٣ م .

٧٤ـ الرسالة . الإمام الشافعى . تحقيق أحمد شاكر .

٧٥ـ رسالة العشق والنساء . من مجموعة رسائل للجاحظ . طبعة ساسى .
٧٦ـ رسالة فى ذم أخلاق الكتاب . من ثلاث رسائل للجاحظ نشرها يوشع فنكل .
٧٧ـ رسالة القيان . من مجموعة رسائل للجاحظ . طبعة ساسى .
٧٨ـ روح المعانى . الألوسى .
٧٩ـ الروض الأنف فى شرح سيرة ابن هشام . السهيلى . مطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٢ هـ ــ ١٩١٤ م .
٨٠ـ زهر الآداب . الحصرى (١) تحقيق الدكتور زكى مبارك . المطبعة الرحمانية بمصر (٢) تحقيق على البجاوى .
٨١ـ الزينة . أبو حاتم الرازى . تحقيق الدكتور حسين الهمدانى .
٨٢ـ سيرة النبى . ابن هشام . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . مطبعة حجازى بالقاهرة . وتحقيق مصطفى السقا وزميله . مطبعة الحلبى .
٨٣ـ شرح الحماسة . المرزوقى . تحقيق عبد السلام هارون .
٨٤ـ شرح القصائد العشر . التبريزى .
٨٥ـ شرح المعلقات . الزوزنى .
٤٦ـ شرح نهج البلاغة . ابن أبى الحديد . مطبعة الحلبى بمصر ١٣٢٩ هـ
٨٧ـ شعراء النصرانية . الأب لويس شيخو اليسوعى . بيروت ١٨٩٠ م
٨٨ـ الشعر والشعراء . ابن قتيبة (١) تحقيق أحمد شاكر . مطبعة الحلبى ١٣٦٤ هـ (٢) مطبعة المعاهد ١٣٥٠ هـ .
٨٩ـ صبح الأعشى . القلقشندى . مطبعة دار الكتب .
٩٠ـ ضحى الإسلام . أحمد أمين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٩١ـ طبقات الأمم . صاعد الأندلسى ، نشره الأب لويس شيخو اليسوعى بيروت ١٩١٢ .

٩٢ـ طبقات الشعراء ، ابن سلام . تحقيق محمود شاكر ، مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م .

٩٣ـ الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، نشره إدورد سخاو ، مطبعة بريل بلندن ١٣٢١ هـ .

٩٤ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ابن خلدون ، مطبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ .

٩٥ـ العرب قبل الإسلام ، جورجى زيدان .

٩٦ـ العرب والإمبراطورية العربية ، بروكلمان ، ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ، بيروت .

٩٧ـ عروبتنا . محمود كامل .

٩٨ـ عصر ما قبل الإسلام ، محمد مبروك نافع .

٩٩ـ العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، الجزء الأول والثانى ، مطبعة لجنة التأليف والجزء الثالث ، المطبعة العامرية الشرقية بمصر .

١٠٠ـ العمدة . ابن رشيق ، مطبعة أمين هندية بمصر ١٣٤٤ هـ ـ ١٩٢٥ م .

١٠١ـ عيون الأخبار ، ابن قتيبة ، مطبعة دار الكتب .

١٠٢ـ عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، ابن أبى أصيبعة . المطبعة الوهبية ١٢٩٩ هـ

١٠٣ـ الغزل فى العصر الجاهلى ، الدكتور أحمد محمد الحوفى . دار نهضة مصر بالقاهرة .

١٠٤ ـ الفائق فى غريب الحديث ، الزمخشرى ، تحقيق على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

١٠٥ ـ الفاخر ، أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم ، تحقيق عبد العليم الطحاوى ومحمد على النجار .

١٠٦ ـ فتوح البلدان ، البلاذرى ، مطبعة الموسوعات بمصر ١٣١٩ هـ ـ ١٩٠١ م .

١٠٧ ـ فتوح الشام البصرى ، مطبعة ببنست شن كلكته ١٨٥٤ م .

١٠٨ ـ فجر الإسلام ، أحمد أمين .

١٠٩ ـ الفصل فى الملل والنحل ، ابن حزم ، المطبعة الأدبية بمصر ١٣١٧ هـ .

١١٠ ـ الفهرست ، ابن النديم ، ليبزج ١٨٧١ م .

١١١ ـ قصة الأدب الفارسى ، حامد عبد القادر ، مطبعة لجنة البيان العربى ١٣٧١ هـ ١٩٥١ م .

١١٢ ـ قصة الأدب فى العالم . أحمد أمين والدكتور زكى نجيب محمود.

١١٣ ـ قصة الحضارة الفارسية ، ول ديوارنت .

١١٤ ـ القصة فى الأدب الفارسى ، الدكتور أمين عبد المجيد ، مطبعة دار المعارف .

١١٥ ـ الكامل . المبرد ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

١١٦ ـ الكامل فى التاريخ . ابن الأثير . المطبعة الأميرية .

١١٧ ـ الكشاف . الزمخشرى .

١١٨ ـ لسان العرب . ابن منظور .

١١٩ - لسان الميزان . ابن حجر . حيدر آباد .

١٢٠ - المبسوط . السرخسى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٤ هـ .

١٢١ - مجلة المجمع اللغوى .

١٢٢ - مجمع الأمثال . الميدانى المطبعة البهية المصرية ١٣٤٢ هـ .

١٢٣ - المحبّر . ابن حبيب . مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد ١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م .

١٢٤ - المختصر فى أخبار البشر . أبو الفدا . المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٥ هـ .

١٢٥ - المرأة فى الشعر الجاهلى . الدكتور أحمد محمد الحوفى الطبعة الثانية مطبعة دار الكتاب العربى .

١٢٦ - مروج الذهب . المسعودى . مطبعة بولاق ١٢٨٣ هـ .

١٢٧ - مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب . أوليرى . ترجمة الدكتور تمام حسان .

١٢٨ - المسالك والممالك . ابن حوقل . مطبعة بريل بليدن ١٨٧٢ م .

١٢٩ - مسالك الممالك . الإصطخرى . ليدن ١٩٢٧ م .

١٣٠ - مسند الإمام أحمدبن حنبل . المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٣ هـ .

١٣١ - المعارف . ابن قتيبة ، المطبعة العامرة الشرقية بمصر ١٣٠٠ هـ .

١٣٢ - المعانى الكبير . ابن قتيبة .

١٣٣ - معجم الأدباء . ياقوت . طبعة الدكتور فريد رفاعى .

١٣٤ - معجم البلدان . ياقوت . مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م .

١٣٥ - معجم الشعراء - المرزبانى . نشره الدكتور سالم الكرنوى . مكتبة المقدس بالقاهرة ١٣٥٤ هـ .

١٣٦ ـ معجم ما استعجم : البكرى . تحقيق مصطفى السقا . مطبعة لجنة التأليف ١٣٦٤ هـ ـ ١٩٤٥ م

١٣٧ ـ المعرب . الجواليقى . تحقيق محمود شاكر .

١٣٨ ـ المغازى . الواقدى . طبعة كلكتا بالهند ١٨٥٦ م .

١٣٩ ـ المفضليات . الضبى . تحقيق عبد السلام هارون ومحمود شاكر .

١٤٠ ـ مقامات بديع الزمان الهمذانى .

١٤١ ـ مقامات الحريرى (شرح الشريشى) المطبعة المنيرية بمصر ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٢ م .

١٤٢ ـ مقدمة ابن خلدون . تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى . مطبعة لجنة البيان العربى .

١٤٣ ـ مقدمة خدابحش لكتاب الحضارة الإسلامية . فون كريمر . ترجمة الدكتور مصطفى بدر .

١٤٤ ـ مقدمة المفصل . الزمخشرى .

١٤٥ ـ الملاهى . المفضل بن سلمة النحوى . مخطوط بدار الكتب بالقاهرة ٥٣٣ ـ فنون جميلة .

١٤٦ ـ الملل والنحل . الشهرستانى . تحقيق محمد فتح الله بدران .

١٤٧ ـ من حديث الشعر والنثر . الدكتور طه حسين .

١٤٨ ـ النظم الإسلامية ، الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور على إبراهيم حسن الطبعة الثالثة ١٩٦٢ .

١٤٩ ـ المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل . المرتضى . حيد آباد الدكن الهند ١٣١٦ هـ .

١٥٠ ـ الموشح . المرزبانى . المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٣ هـ .

١٥١ ـ المؤتلف والمختلف . الآمدى . مكتبة المقدسى بالقاهرة ١٣٥٤ هـ

١٥٢ ـ النثر الفنى فى القرن الرابع . الدكتور زكى مبارك . مطبعة دار الكتب بالقاهرة .

١٥٣ ـ النقود العربية . الأب أنستاس مارى الكرملى .

١٥٤ ـ نهاية الأرب . النويرى . طبعة دار الكتب .

١٥٥ ـ نوابغ الكلم . الزمخشرى . الطبعة الأولى بمصر ١٣٤١ هـ ـ ١٩١٤ م .

١٥٦ ـ النوادر . القالى . مطبعة دار الكتب .

١٥٧ ـ نوادر المخطوطات . تحقيق عبد السلام هارون .

١٥٨ ـ الوزراء والكتاب . الجهشيارى . تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى .

١٥٩ ـ وفيات الأعيان . ابن خلكان .

(أ) مطبعة بولاق .

(ب) وتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٨ م .

مراجع أجنبيــة

١٦٠ — سياسة نامه . نظام الملك . طهران ١٣١٠ هجرى شمسى .

١٦١ — فرهنك نفيسى . محمد على نفيسى .

١٦٢ — A, History of Arabian Music. Farmer.

١٦٣ — Literary History of Persia, Browne - London. 1906,

كتب مطبوعة للمؤلف

١ — وطنية شوقى :

دراسة مفصلة للوطنية فى شعر شوقى ، معتمدة على دراسة العصر الحديث من الناحية السياسية ، وعلى نصوص من شعر شوقى ، وعلى موازنات بينه وبين غيره من شعراء العصر الحديث ، وتوضيح لموقفه وموقفهم من الخلافة الاسلامية

٢— الإسلام فى شعر شوقى :

دراسة لتدين شوقى ، ومظاهره فى شعره ، من إيمان بالله ، ومدائح للنبى ، وإشادة بخصائص الإسلام ، ودفاع عنه ، ودراسة لنزعته فى تأييد الخلافة مع دراسة فنية لهذا الشعر الدينى .

٣ — النسيب فى شعر شوقى :

دراسة لغزل شوقى من حيث بواعثه ، وخصائصه الفنية .

٤ — الفكاهة فى الأدب :

دراسة للفكاهة ولأصولها ، وتقسيمها أنوعاً طبقاً للبواعث النفسية ، وعرض مفصل لدلالاتها الاجتماعية والسياسية واللغوية ، ونماذج فكهة لبعض الشخصيات .

٥ — أدب السياسة فى العصر الأموى :

يتناول الأحزاب السياسية ونشأتها ومذاهبها ، ويعرض نماذج من أدبها شعراً وخطابة وحواراً وكتابة ، مع تحليل لهذا الأدب ، ودراسة لخصائصه ، وموازنات بين بعضه وبعض ، ويعرض للعصبية القبلية والجنسية وأثرهما فى السياسة وفى الشعر ، وبه ترجمة لبعض الأدباء الساسة .

٦ — أبوحيان التوحيدى :

دراسة لعصره السياسى والعلمى والأدبى ، وعرض لحياته ولثقافته ولصلاته بوزراء عصره ، وتحليل لشخصيته ، وتعريف بكتبه ، وتحليل لأسلوبه ، وموازنة بينه وبين معاصريه ، وبينه وبين الجاحظ .

٧ — **البطولة والأبطال :**

عرض للبطولة وأسسها وأنواعها ، وعرض لصور من أبطال العرب فى الجاهلية والإسلام ، ولبعض أبطال مصر الحديثة :

٨ — **سوسن :**

قصة قصيرة سامية الغرض نبيلة الهدف :

٩ — **مع ابن خلدون :**

عرض لآرائه فى التربية وفى علم الاجتماع وبخاصة التى لم يعرض لها الدارسون ، ودراسة جديدة لأدبه من شعر ونثر .

١٠ — **الغزل فى العصر الجاهلى :**

دراسة للغزل فى الجاهلية من حيث أصوله وبواعثه وأنواعه ، وعلاقته بالبيئة ، مع موازنة بين الغزل فى الجاهلية وفى الإسلام :

١١ — **المرأة فى الشعر الجاهلى :**

دراسة مفصلة للمرأة فى العصر الجاهلى من الشعر ، من حيث مكانتها فى الأسرة وفى القبيلة وفى المجتمع ، أما وزوجة وبنتاً وأختاً وقريبة . ودراسة للمرأة فى الحياة العامة فى السلم وفى الحرب ، ولثقافتها وصناعتها . ودراسة للمرأة فى الحياة الفنية من حيث روايتها للشعر ، ونقدها له ، ومن حيث أثرها فى الغناء .

ودراسة لشاعريتها وفنون شعرها وخصائصه ، مع موازنات بينها وبين النساء المعاصرات لهـــا فى العالم القديم .

١٢ — **أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى :**

عرض وتحليل لصور الطبيعة فى الشعر الجاهلى من حيوان ونبات وأحجار ، وظواهر فى الجو والأرض ، واستنباط الخصائص العامة فى تناول الشعراء للطبيعة ، ودراسة لأصداء البيئة فى موضوعات الشعر وفى أخيلة الشعراء وفنهم .

١٣ — تيارات ثقافية بين العرب والفرس :

يتناول الصلات بين العرب والفرس فى الجاهلية وفى الإسلام ، وأثرها فى كل من الشعبين من حيث العقائد والنظم والعادات واللغة والأدب ، ويوضح أن العرب أخذوا من الفرس ولكنهم أعطوها أكثر مما أخذوا .

١٤ — الحياة العربية من الشعر الجاهلى :

بحوث تمهيدية شتى ، وتوثيق للشعر الجاهلى ، ودراسة له من حيث تصويره للحياة الاجتماعية والدينية وللعادات والمعتقدات ولصلات العرب بغيرهم من الأمم .

١٥ — المثل السائر لابن الأثير : (أربعة أجزاء) :

تقديم وتحقيق وتعليق (بالاشتراك) .

١٦ — الطبرى :

دراسة لعصره وبيئته وحياته ومصادر ثقافته وألوانها ، وتعريف بتلاميذه ومؤلفاته ، وتحليل لشخصيته ولمناهجه فى التفسير والتاريخ والفقـه .

١٧ — الجاحظ :

دراسة لعصره وحياته ومعالم شخصيته ومؤلفاته وخصائصه الفنية ، وتحليل لبعض كتبه .

١٨ — الزمخشرى :

دراسة لعصره وحياته وأساتذته وتلاميذه ومؤلفاته ومنهجه فى كتاب التفسير ، وما تضمنه من تأييد مذهب المعتزلة ، وما اشتمل عليه من آراء فقهية ونحوية وبلاغية ، ودراسة لجهوده فى ميادين اللغة وغيرها ، وتحليل لنثره ولشعره .

١٩ — فن الخطابة :

دراسة فنية للخطيب وعدته وصفاته وعوامل نجاحه ، ودراسة للخطابة وأنواعها وأصولها وأسلوبها وتصور الأمم لها ، وتعقيب بدراسة للخطابة السياسية فى العصر الأموى :

٢٠ — من أخلاق النبي :

عرض للأخلاق الإسلامية ، وموازنة بين المذهب الإسلامى والنظريات الفلسفية تكشف عن سمو المذهب الإسلامى .

ودراسة لبعض أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام كما تجلت فى أقواله وسلوكه .

٢١ — الجهاد :

دراسة للجهاد من حيث معناه ، وحكمه ، وأنواعه ، وعدته ، وجزاؤه ، ونتائجه ، وتعقيب بصور من شخصيات مجاهدة .

٢٢ — سماحة الإسلام :

تحليل لسماحة الإسلام فى مناح شتى من تشريعه ، ومن معاملته لمخالفيه ، معتمدة على النصوص والتشريع والتطبيق العملى ، مع موازنات بين الإسلام وسواه من أديان وقوانين وفلسفات .

٢٣ — تحت راية الإسلام :

بحوث شتى فى الدفاع عن الإسلام ، وفى الإشادة بألوان من حضارته وتعاليمه وثقافته .

٢٤ — القومية العربية فى الشعر الحديث :

دراسة لدعائم القومية العربية ، وعرض للشعر الذى أثر فيها ، وتأثر بها من الخليج إلى المحيط ، ودراسة فنية لهذا الشعر ، وتوضيح لجهود مصر قديماً وحديثاً فى مجال العروبة .

٢٥ — مع القرآن الكريم (الجزء الأول) :

بحوث شتى فى التدليل العقلى على أن القرآن الكريم من عند الله ، وفى بيان إعجازه ، ونوع أسلوبه ، وحضه على العلم وعلى الفكر ، وفى توضيح الغرض من القسم فيه ، وفى بيان الثواب العاجل والعقاب الواقع ، وبيان أثره فى الأدب شعراً ونثراً الخ ..

٢٦ — مع القرآن الكريم (الجزء الثانى :

بحوث شتى تعرض أثر القرآن الكريم فى اللغة ، وتبين ألواناً من إيجاز الحذف فيه ، وتنفى أن به حروفاً وكلمات زائدة ، وتبين معنى الأمى والأميين فيه ، وتدرس الضلال والهدى والقدر والحرية والجزاء والعمل ، وتوضح أكاذيب اليهود على الله وعلى رسله كما توضح أسماء يوم القيامة الخ .

٢٧ — حصاد القلم :

مقالات وبحوث نشرت بالمجلات فى مصر وفى العالم العربى .

٢٨ — بلاغة الإمام على :

دراسة أساسها نهج البلاغة بين القبول والرفض ، وخصائص الإمام على فى خطابته وكتابته .

٢٩ — ديوان شوقى :

توثيق وتبويب وشرح وتكملة لديوان أمير الشعر أحمد شوقى..

رقم الايداع بدار الكتب ٣٥٥٣ / ٧٨
الترقيم الدولى ١ — ١١٥ — ٢٨٦ — ٩٧٧ ISBN
مطبعة نهضة مصر
الفجالة — القاهرة

الفهـــرس

صفحة

صفحة

الباب الثالث